

الباب الثالث

أخبار بنى العباس

١ - فصل

ابتداء الدولة العباسية

[٤٢] كان القائم بهذه الدولة أبو مسلم الخراساني وكان اسمه عبد

الرحمن بن مسلم^(١) فمن قوله :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت	عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
مازلت أسعى بجهد في دمارهم	والقوم في غفلة والناس قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا	من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة	ونام عنها تولى رعيها الأسد

(١) عبد الرحمن بن مسلم ، أبو مسلم الخراساني : مؤسس الدولة العباسية ، تمهدها بالبصرة عيسى ومقل ابنى إدريس العجلي ، فرياه إلى أن شبه فاتصل بإبراهيم بن الإمام محمد (من بنى العباس) فأرسله إلى خراسان داعية ، فأقام فيها واستمال أهلها . ووثب على ابن الكرماني (والى نابسبور) فقتله واستولى على نيسابور . وسلم عليه بإمرتها فخطب باسم السفاح العباسي . وقضى على الدولي الأموية وصفا الحو للسفاح إلى أن مات وخلفه أخوه المنصور فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع في الملك فقتله . [١٣٧هـ=٧٥٥م] . انظر : تاريخ بغداد (٢٠٧/١٠) ، الطبري (١٥٩/٩) ، والأبيات انظر : وفيات الأعيان (١٥٢/٣) .

٢ - فصل

أولهم عبد الله السفاح^(١)

[٤٣] ذكر ابن الجوزي في كتاب الأذكياء^(٢) عن خالد بن صفوان^(٣): أنه دخل يوما على أبي العباس السفاح وليس عنده أحد ، فقال: يا أمير المؤمنين إنني والله ما زلت منذ قلذك الله خلافته أطلب أن أصير معك بمثل هذا الموقف في الخلوة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب فعل حتى نفرغ ، فأمر الحاجب بذلك ، فقال: يا أمير المؤمنين إنني فكرت في أمرك واستحلبت الفكر فيك فلم أر أحدا له قدرة واتساع في الاستمتاع بالنساء ولأضيق فيهن عيشا منك إنك ملكك نفسك امرأة من

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو العباس السفاح: أول خلفاء الدولة العباسية ، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب . قام بدعوته أبو مسلم الخراساني ، مقوض عرش الدولة الأموية ، فبوع له بالخلافة جهرا في الكوفة سنة [١٣٢هـ] وكان شديد العقوبة ، عظيم الانتقام ، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال ، ولذلك لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماهم . وهو الذي بنى "الهاشمية" وجعلها مقرا لحكمة ، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام ، وكان سخيا جوادا ، يوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، ت[١٣٦هـ - ٧٥٤م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٥٢/٥) ، المسعودي (١٦٥/٢) الطبري (١٥٤/٩) .

(٢) انظر : كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ١٤٢ ، وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

(٣) خالد بن صفوان بن عبد الله : من فصحاء العرب المشهورين . ولد ونشأ بالبصرة وكان لفصاحته أقدّر الناس على مدح الشيء وذمه ، ت[١٣٢هـ - ٧٥٠م] . انظر : وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

نساء العالمين فاقتصرن عليها فإن مرضت مرضت وإن غابت غبت وإن عزلت عزلت، وحرمت يأمر المؤمنين على نفسك التلذذ بما يُشتهى منهن فإن منهن الطويلة التى تشتهى لحسنها ، والبيضاء التى تحب لرؤيتها ، والسمراء العساء^(١) والصفراء الذهبية، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك ، وما يشتهى من نضارتهم ونظافتهم ، وتحلل خالد لسانه فأطنب فى صفات ضروب الحوارى وشوقه إليهن ؛ فلما فرغ من كلامه قال له السفاح: ويحك ملأت مسامعى ما أشغل خاطرى والله ماسلك مسامعى كلام أحسن من هذا، فأعد على كلامك فقد وقع منى موقعا فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتداء به، ثم قال له : انصرف فانصرف وبقي أبو العباس مفكرا فدخلت عليه أم سلمة^(٢) زوجته وكان قد حلف لها أنه لا يتزوج عليها ولا يتخذ عليها سرية ووفى لها فلما رآته على تلك الحالة قالت له : إني لأنكرك ياأمير المؤمنين فهل حدث شيء تكرهه أو أذاك خبرا ارتعت له ؟ قال : لا فلم تنزل به حتى أخبرها بمقالة خالد ، فقالت له : وما قلت لابن الفاعلة ، فقال لها : أينصحنى وتشتمينه ، فخرجت إلى مواليتها وأمرتهم بضرب خالد .

قال خالد : فخرجت من الدار مسرورا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين ولم أشك فى الصلة فبينما أنا واقف ، إذ أقبل موالى أم سلمة يسألون عنى فحققت الجائزة ، فقلت لهم: هاأنا واقف فاستبقى إلى أحدهم بخشبة

(١) العساء : شديدة السواد .

(٢) هند بنت يعقوب بن عبد الله المخزومى ، أم سلمة : سيدة جليلة ذات عقل وحزم ، غلبت على أمر زوجها أبى العباس السفاح غلبة شديدة فكان لا يقطع أمر إلا بمشورتها. انظر : أعلام النساء (٢/٢٣٥) .

فغمزت برذونى^(١) فلحقنى وضرب كفل البرذون وركضت ففررت منهم واستخفيت فى منزلى أيا ما وقع فى قلبى أنى أمنت من أم سلمة ، فبينما أنا ذات يوم جالس فى المنزل فلم أشعر إلا يقوم هجموا على ، فقالوا: أحب أمير المؤمنين فسبق إلى قلبى أنه الموت فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون لم أر دم شيخ أضيع من دمي فركبت إلى دار أمير المؤمنين فأصبتة جالسا ولحظت فى المجلس بيتا عليه ستور رقاق وسمعت حسا خفيفا خلف الستر ، فأجلسنى ثم قال : يا خالد أنت وصفت لأمر المؤمنين صفة فأعدها فقلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب ما اشتقت اسم الضرتين إلا من الضر ، وإن أحدا لم يكسر من النساء أكثر من واحدة إلا كان ضر وتنغيص، فقال السفاح : لم يكن هذا من كلامك أولا ، قلت: بلى : يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكم أن الثلاث من النساء يدخلن على الرجل البوس ، فقال: برئت من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك أولا أو مرة فى حديثك، قلت: بلى يا أمير المؤمنين : وأخبرتكم أن الأربع من النساء شر مجتمع لصاحبهن يشينه ويهرمه ، قال : والله ما سمعت منك هذا أولا ، قلت : بلى يا أمير المؤمنين وأخبرتكم، أن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليست لهن خصاء ، قال أمير المؤمنين : أفتكذبى ؟ قلت: أفتقتلنى ؟ قال خالد : فسمعت ضحكا خلف الستر ، ثم قلت : وأخبرتكم أن عندك ريحانة قريش وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والحوارى ، فقيل لى من وراء الستر: صدقت يا عماء هذا حديثك ولكنه غير حديثك ونطق بما فى خاطره عن لسانك ، فقال السفاح: مابك قاتلك الله ؛ قال خالد : فانسلت وخرجت، فبعثت إلى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذونا وتخت ثياب ، انتهى .

(١) برذون : الدابة التى تحمل المتاع .

[٤٤] وروى : أن أبا دلامة^(١) الشاعر كان واقفا بين يدي السفاح في بعض الأيام ، فقال : سلني حاجتك فقال له أبو دلامة : أريد كلب صيد ، فقال : أعطوه إياه فقال : ودابة أتصيد عليها ، فقال : أعطوه دابة فقال : وغلاما يقود الكلب والصيد ، فقال : أعطوه غلاما ، فقال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه ، فقال : أعطوه جارية فقال : هؤلاء ياأمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها ، فقال : أعطوه دارا تجمعهم ، ثم قال : وإن تكن لهم الدار فمن أين يعيشون قال : قد أقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر غامرة من فيافي^(٢) بنى إسرائيل ، قال : وما معنى الغامرة ياأمير المؤمنين؟ قال : مالا نبات فيها ، قال : قد أقطعتك ياأمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بنى سعد ، فضحك منه وقال : أعطوها كلها عامرة. قال الحافظ^(٣) : فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية وجعل يأتي بمسألة مسألة على ترتيب وفكاهة حتى نال مأسأله ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليها بارك الله فيه ، انتهى^(٤).

[٤٥] وروى عن الحسن بن الحصين قال : لما أفضت الخلافة إلى بنى العباس ، كان من جملة من اختفى : إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك فلم يزل مختفيا إلى أن أضناه وأضجره الاختفاء ، فأخذ له أمان من

(١) زند بن المحون ، أبو دلامة : شاعر من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، حسيم ، نشأ في الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس وله فيهم مدائح ، واتهم بالزندقة لتهتكه وأخباره كثيرة متفرقة ، ت [١٦١هـ] .

(٢) فيافي ، مفردا فيفى : المغارة لا ماء فيها .

(٣) الحافظ : أبو الفرج ابن الحوزي ، انظر : الأذكياء ص ١٢٨ .

(٤) انظر : ثمرات الأوراق ص ٧٤ .

السفاح، وكان إبراهيم رجلاً أديباً بليغاً حسن المحاضرة فحظى عند السفاح ، فقال له : لقد مكثت زمانا طويلا مختفيا فحدثني بأعجب ما رأيت في اختفائك ، فإنها كانت أيام تكدير^(١) .

فقال : يا أمير المؤمنين وهل سُمع بأعجب من حديثي . لقد كنت مختفيا في منزل أنظر منه إلى البطحاء فبينما أنا على مثل ذلك ، وإذا بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع في ذهني أنها خرجت تطلبني، فخرجت متفكرا حتى أتيت الكوفة من غير الطريق وأنا والله متحير ولا أعرف بها أحدا ، وإذا أنا بباب كبير في رحبة منيعة فدخلت في تلك الرحبة فوقفت قريبا من الدار ، وإذا برجل حسن الهيئة وهو راكب فرسا ومعه جماعة من أصحابه وغلماؤه فدخل الرحبة فرآني واقفا مرتابا ، فقال لي: ألك حاجة ؟ قلت: غريب خائف من القتل ، قال : ادخل فدخلت إلى حجرة في داره ، فقال : هذه لك ، وهيا لي ما أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب وأقم عند الله ماسألني قط من أنا ولا ممن أخاف، وهو في أثناء ذلك يركب في كل يوم ويعود متعوبا متأسفا كأنه يطلب شيئا فانه ولم يجده ، فقلت له يوما : أراك تركب في كل يوم وتعود متعوبا متأسفا كأنك تطلب شيئا فاتك فقال لي : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، قتل أبي وقد بلغني أنه مختف من السفاح وأنا أطلبه لعلني أجده وأخذ بشاري منه ، فتعجبت والله يا أمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجل يريد قتلي ، ويطلب ثأره مني فكهرت الحياة واستعجلت الموت لما نالني من الشدة فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله فعرفني الخبر فرجده صحيفا، فقلت : يا هذا قد وجب

(١) تَكَدَّرَ : غم .

على حقك وان من حقك أن أدلك على قاتل أيك وأقرب إليك الخطوة وأسهل عليك مابعد ، فقال : أتعلم أين هو قلت : نعم ، فقال : أين هو؟ ، فقلت : والله هو أنا فخذ بشارك منى ، فقال لى : أظن أن الاختفاء أضناك فكرهت الحياة ، قلت : نعم والله أنا قتلته يوم كذا وكذا فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال لى : أما أبى فسيلقاك غدا يوم القيامة فيحاكمك عند من لاتخفى عليه خافية ، وأما أنا فلست مخفرا^(١) ذمتى ولا مضيعا نزىلى ، اخرج عنى فإنى لا آمن من نفسى عليك بعد هذا اليوم ؛ ثم وثب يأمر المؤمنين إلى صندوق فأخرج منه صرة فيها خمسمائة دينار ، وقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك فكرهت أخذها وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيت . فبقى السفاح يهتز طربا ويتعجب .

[٤٦] وعن الهيثم بن عدى^(٢) ، قال : كان أبو العباس السفاح تعجبه المسامرة ومنازعة الرجال ، فحضرت ذات ليلة فى مسامرة إبراهيم بن مخرمة الكندى وناس من بنى الحارث بن كعب وهم أخواله وخالد بن

(١) خفر : نقض العهد - الغدر .

(٢) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الثعلبى الطائى البحرى ، أبو عبد الرحمن : علام بالأدب والنسب ، مؤرخ ، اختص بمحاسبة المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، وروى عنهم وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس ، ونقل أخبارهم فأورد فى بعض كتبه ، معانيهم ، وأظهرها فكره لذلك ، وطعن فى نسبه وقيل :

إذا نسبت عديا فى بنى ثعل

فقدم الدال قبل العين فى النسب

قال بن قتيبة : كان يسرى رأى الخوارج ، ت [٢٠٧هـ - ٨٢٢م] . انظر : المعارف ص ٢٣٤ ، مرآة الحنان (٣٢/٢) .

صفوان بن إبراهيم التميمي فحاضوا في الحديث وتذاكروا مضر واليمن ، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين إن اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا وكانت لهم القرى ولم يزلوا ملوكاً أرباباً وورثوا ذلك كابراً عن كابر أو لا عن آخر منهم : النعمانيات ، والمنذريات ، والقابوسيات ، والتبابعة ومنهم: من مدحته الزبر، ومنهم : غسيل الملائكة ، ومنهم : من اهتز لموته العرش، ومنهم : من كلمه الذئب ، ومنهم الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ، وليس شئ له خطر إلا وإليهم ينسب من فرس رائع ، أو سيف قاطع ، أو درع حصينة ، أو حلة مصونة أو درة مكنونة ، إن سئلوا أعطوا ، وأن سيموا أبوا ، إن نزل بهم ضيف قروه، لا يبلغهم مكابر ولا ينالهم مفاخر هم العرب العرباء ، وغيرهم المتعربة .

قال : أبو العباس السفاح مأظن التميمي يرضى بقولك ، ثم قال له : ماتقول ياخالد ؟ قال : إن أذنت لى فى الكلام تكلمت قال : أذنت لك فى الكلام فتكلم ولا تهب أحدا ، فقال: أخطأ ياأمير المؤمنين المقتحم بغير علم، والناطق بغير صواب فكيف يكون ما قال ، وإن القوم ليست لهم ألسن فصيحة ، ولا حجة رجيحة نزل بها كتاب ولا حجات بها سنة ، وهم منا على منزلتين : إن حادوا عن قصدنا أكلوا وإن جاوزوا حكمنا قتلوا ، يفخرون علينا بالنعمانيات والمنذريات وغير ذلك مما سنأتى عليه ، ونفخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ولله المنة به علينا وعليهم، لقد كانوا أتباعه فيه عزوا وله أكرموا فمننا النبي ﷺ ، ومننا الخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور ، والمسعى ، وزمزم ، والمقام ، والمنبر ، والركن ، والحطيم ، والمشاعر ، والحجابه ، والبطحاء، مع ما لا يخفى من المآثر ولا يدرك من المفاخر ، فليس يعدل بنا

عادل ، ولا يبلغ فضلنا قول قائل ، ومنا الصديق ، والفاروق ، والوصى ،
وأسد الله ، وسيد الشهداء ، وذو الجناحين ، وسيف الله ، عرفوا أعالم الله
وأناهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ، ومن عادانا اصطلمناه^(١) ، ثم التفت
إلى إبراهيم فقال : أعالم أنت بلغة قومك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم
العين ؟ قال : الجمجمة ، قال : فما اسم السن ؟ قال : الميدن ، قال : فما
اسم الأذن ؟ قال : الصنارة ، قال : فما اسم الأصابع ؟ قال : الشنائر ، قال :
فما اسم اللحية ؟ قال : الذئب ، قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع ، قال :
أفمؤمن أنت بكتاب الله ؟ قال : نعم فإن الله تعالى يقول ﴿إنا أنزلناه قرآنا
عربيا لعلمكم تعقلون﴾ [يوسف : ٢] وقال تعالى ﴿بلسان عربى مبين﴾
[الشعراء : ١٩٥] وقال ﴿ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [إبراهيم : ٤]
فنحن العرب والقرآن بلساننا نزل ؛ ألم تر أن الله تعالى قال ﴿العين
بالعين﴾ [المائدة : ٤٥] ولم يقل الجمجمة بالجمجمة ، وقال ﴿السن
بالسن﴾ [المائدة : ٤٥] ولم يقل الميدن بالميدن ، وقال ﴿الأذن بالأذن﴾
[المائدة : ٤٥] ولم يقل الصنارة بالصنارة ، وقال ﴿يجعلون أصابعهم فى
آذانهم﴾ [البقرة : ١٩] ولم يقل شنائرهم فى صنائرهم ، وقال ﴿لا تأخذ
بلحيتى ولا برأسى﴾ [طه : ٩٤] ولم يقل بذئبى وقال تعالى ﴿فأكله الذئب﴾
[يوسف : ١٧] ولم يقل فأكله الكنع ، ثم قال : أسألك عن أربع إن اقررت
بهن قهرت ، وإن جحدتهن كفرت ، قال : وماهن ؟ قال : الرسول منا أو
منكم ؟ قال : منكم ، قال : فالقرآن نزل علينا أو عليكم ؟ قال : عليكم ،
قال : فالييت الحرام لنا أو لكم ؟ قال : لكم قال : فالخلافة فينا أو فيكم ؟
قال خالد : فما كان بعد هذه الأربع فهو لكم .

(١) اصْطَلَمَ : استأصله .

٣- فصل

خلافة أبي جعفر المنصور^(١)

[٤٧] قيل : إنه كان يحفظ الشعر من مرة ، وله مملوك يحفظه من مرتين ، وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرات ، وكان بخيلا جدا حتى أنه كان يلقب بالدوانيقي لأنه كان يحاسب على الدوانق^(٢) فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له : إن كانت مطروقة بأن يكون أحد يحفظها أو أحد أنشأها أى بأن كان أتى بها أحد قبلك فلا نعطيك بها جائزة ، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ماهى مكتوبة فيه فيقرأ الشاعر القصيدة ، فيحفظها الخليفة من أول مرة ، ولو كانت ألف بيت ، ويقول للشاعر : اسمعها منى وينشدها بكمالها ، ثم يقول له وهذا المملوك يحفظها وقد سمعها المملوك مرتين مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيقرأها ، ثم يقول الخليفة : وهذه الجارية التى خلف الستارة تحفظها أيضا ، وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرأها بحروفها ، فيذهب الشاعر بغير شيء .

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ، أبو جعفر المنصور : ثانى خلفاء بني العباس ، كان عارفا بالفقه والأدب ، محبا للعلماء . ولد فى الحميمة من أرض الشراة ، وولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح [١٣٦هـ] ، وهو باني مدينة "بغداد" أمر بتخطيطها سنة [١٤٥هـ] وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التى بناها السفاح ، وكان بعيدا عن اللهر والعبث كثير الحد والتفكير ، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا ، وكان أفحلهم شجاعة وحزما ، مدة خلافته [٢٢] عاما توفي ببئر ميمون محرما بالحج [١٥٨هـ - ٧٧٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٧٢/٥) ، تاريخ الطبرى (٢٩٢/٩-٣٢٢) .

(٢) الدَوَانِق ، جمع دائق : جزء من الدرهم .

[٤٨] قال الراوى : وكان الأصمعى من جلسائه وندمائه فنظم أبياتا

صعبة، وكتبها على قطعة عمود من رخام ، ولفها فى عباءة وجعلها على ظهر بعير ، وغير حليته فى صفة أعرابى غريب وضرب له لثاما ولم يين منه غير عينيه ، وجاء إلى الخليفة ، وقال : إني امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة فقال : ياأخا العرب إن كانت لغيرك لانعطيك عليها جائزة ، وإلا نعطك زنة ماهى مكتوبة عليه فأنشد الأصمعى هذه القصيدة :

هيج قلبى الثمل
مع زهر لحظ المقل
وسيدى وموللى
غزير عقيقلى
باللثم ورد الخجل
فلم يجد بالقبل
وقد غدا مهرولى
ولى ولى ياويللى^(١)
ولولت ولولة
فقلت لاتروللى
إلا بطيب الرصللى
وبعدده مايكفى
قالت له حين كذا
أزكى من القرنفل
شممتها فى أنفقى

صوت صفير الببل
الماء والزهر معا
وأنت ياسيدلى
وكم وكم تيمنى
قطفت من وجنته
وقلت بس بسببلى
وقال لا لاللا
والخود مالت طربا
من فعل هذا الرجل
لما رآته أشمطا
وينى اللؤلولى
يريد غير القبل
وفتية سقونى
انهض وجد بالنقل
قهيرة كالعسللى

(١) خَوْد : المرأة الشابة .

والعود دندن دنلى
والرقص قد طبطبللى
والطبل طبطبللى
وغرد القمرى يصيح لى
فلو ترانى راكبا
من ملل فى مللى
كمشية العرنجللى
فى السوق بالقلقللى
خلفى ومن حوللى
من خشية العنقللى
معظم مبجل
حمراء كالدم دمللى
مبغدد اللديبل
من حى أرض الموصللى
تعجز الأدبللى
صوت صفير الببل

بالزهر والسرولى
فى وسط بستان حلى
والسف سقسقلى
على ورق سـفرجل
شواشواشواشوا
على حمار أهزلى
يمشى على ثلاثة
والناس ترجمملى
وانكل كعكع كعكع
لكن مشيت هاربا
إلى لعشاء وذلك
يامر لى بخلفة
أجر فيها ماشيا
أنا الأديب الألمعى
نظمت قطعاً زخرفت
أقول فى مطلعها

قال الراوى : فلم يحفظها الملك لصعوبتها ونظر إلى المملوك وإلى
الجارية فلم يحفظها أحد منهما ، فقال : يا أخا العرب هات الذى هى
مكتوبة فيه نعطك زنته ، فقال : يامولاى إنى لم أجد ورقا أكتب فيه وكان
عندى قطعة عمود من رخام من عهد أبى وهى ملقاة ليس لى بها حاجة
فنقشتها فيها ؛ فلم يسع الخليفة إلا أنه أعطاه وزنها ذهباً ، فنفذ مافى
خزينته من المال فأخذه وانصرف ، فلما ولى قال الخليفة : يغلب على ظنى
أن هذا الأصمعى ، فأحضره وكشف عن وجهه فإذا هو الأصمعى ،

فتعجب منه ومن صنيعه وأجازه على عادته . قال : ياأمير المؤمنين إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال ، وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك ، وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية ، فإذا أعطيتهم ماتيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك ، انتهى والله أعلم .

[٤٩] وذكر الغزالي^(١) وابن بليان وغيرهما : أن أبا جعفر المنصور حج ونزل في دار الندوة ، وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت فخرج ذات ليلة سحرا فبينما هو يطوف، إذ سمع قائلا يقول : اللهم أشكو إليك ظهور البغى والفساد في الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الطمع . فهرول المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ، ثم رجع إلى دار الندوة وقال لصاحب شرطته : إن بالبيت رجلا يطوف فأتني به ، فخرج صاحب الشرطة فوجد رجلا عند الركن اليماني ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فلما دخل عليه قال: أنت الذي سمعتك آنفا تشكو إلى الله ظهور البغى والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي مأمرضي ، فقال له : ياأمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلات بلاد الله بذلك بغيا وفسادا أنت هو ، فقال له المنصور : ويحك كيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء بياي وملك

(١) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالي : فقيه ، أصولي ، صوفي ، ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بحرجان ، ثم إلى إمام الحرمين الجويني بنيسابور ، فشتغل عليه ولازمة ، ثم أقبل على العبادة والسياحة ، له مؤلفات كثيرة أشهرها "إحياء علوم الدين" ، ت[٥٠٥هـ - ١١١١م] . انظر : سير أعلام النبلاء (١٢ / ٧٥ - ٨١) ، وفيات الأعيان (١ / ٥٨٦) .

الأرض فى قبضتى ، فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين وهل داخل أحدًا من الطمع ما داخلك استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم واتخذت بينك وبين رعيتك حجابًا من الجبس والآجر^(١) ، وحجبة معهم السلاح ، وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان نفرًا استخلصتهم لنفسك ، وأمرتهم على رعيتك ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا العارى ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء ، الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها ، قالوا : هذا خان الله ورسوله فما لنا لنخونه ، فأجمعوا على أن لا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا فصار هؤلاء شركاءك فى سلطانتك وأنت غافل عنهم فإذا جاء المظلوم إلى بابك وحدك أوقفت رجلاً ينظر فى مظالم الناس ، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم ، وسوف من وقت إلى وقت ، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك فضربه أعوانك ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره ، وأنت ترى ذلك ولا تنكر.

لقد كانت الخلفاء قبلك من بنى أمية إذا أتت إليهم الظلامة أزيلت فى الحال ، ولقد كنت أسافر الضيفان يا أمير المؤمنين ، فقدمت مرة فوجدت الملك الذى به قد فقد سمعه فبكى ، فقال له : وزراؤه ما يكيك أيها الملك لا أبكى الله لك عينا إلا من خشيته ، فقال : والله ما بكيت لمصيبة نزلت بى وإنما لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه ، ثم قال : إن كان سمعى ذهب فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس لا يلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم ، وكان يركب الفيل طرفى النهار ويدور فى البلد لعله يجد أحداً لابسا ثوباً أحمر ،

(١) الآجر : ما يبنى به من الطين المشوى . وتسميه العامة : الغرميد .

فيعلم أنه مظلوم فينصفه ؛ هذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رافته على شح نفسه بالمشركين ، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله ﷺ يا أمير المؤمنين لاتجمع الأموال إلا لإحدى ثلاث ، فإن قلت : إنما أجمع الأموال لمصالح الملك ، فقد أراك الله عبرة في الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت : إنما أجمع للولد ، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيراً ذليلاً حقيراً ، وإن قلت : إنما أجمعه لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق منزلتك إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح .

فبكى المنصور بكاء شديداً ، ثم قال : وكيف أعمل وقد فرت مني العباد ولم تقربنى والصالحون لم يدخلوا على ؟ فقال : يا أمير المؤمنين افتح الباب ، وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم ، وخذا المال مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك ، فقال المنصور: نفعل إن شاء الله تعالى ، وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى، فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده ، فقال : لصاحب الشرطة على بالرجل الساعة فخرج يطلبه فوجده عند الركن اليماني فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ليس إلى ذلك من سبيل ، فقال: إذن يضرب عنقي ، فقال : ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل ، ثم أخرج من مزود^(١) كان معه رقاً^(٢) مكتوباً فقال له : خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحاً ومات

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد ، و جمعه مزود .

(٢) رِقّ : جلد رقيق يكتب فيه .

من يومه مات شهيدا ، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيدا ، وذكر له فضلا عظيما وثوابا جزيلا ، فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور ، فلما رآه قال له : ويلك أو تحسن السحر ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قص عليه القصة فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار وهو هذا «اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمك بما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدر كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لي من كل هم وغم أصبحت وأمست فيه فرجا ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا أستوجه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا فإنك أنت المحسن إليّ وأنا المبيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلى بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك فجد بفضلك وإحسانك على أنك أنت الرؤوف الرحيم» ، انتهى من حياة الجيوان .

[٥٠] وحدث عبد الله البلتاجي قال : دخل ابن أبي ليلى على أبي جعفر المنصور ، وكان ابن أبي ليلى قاضيا ، فقال أبو جعفر : إن القاضي يرد عليه من طرائف الناس ونوادرهم ، فإن كان ورد عليك شيء فحدثني فقد طال على يومي .

قال : والله يا أمير المؤمنين قد ورد على منذ ثلاثة أيام أمر ماورد على مثله : أتتى عجز ، تكاد أن تنال الأرض بوجهها ، أو تسقط من انحنائها

فقلت : أنا بالله وبالقاضى أن يأخذ لى بحقى ، وأن يعيننى على خصمى ، قلت : ومن خصمك ؟ قالت : ابنة أخ لى ، فدعوت بها فحاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحما فجلست منبهرة فذهب العجوز تنظلم، فقالت الشابة أصلح الله القاضى مرها فلتسكت حتى أتكلم بحجتى وحجتها، فإن لحت^(١) بشيء فلترد علىّ فإن أذنت لى أسفرت^(٢)، فقالت : العجوز إن أسفرت قضيت لها ، فقلت لها : أسفري فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أن يكون مثله إلا فى الجنة .

فقلت : أصلح الله القاضى هذه عمتى مات والدى وتركنى يتمة فى حجرها فربتنى فأحسن التريبة حتى إذا بلغت مبلغ النساء ، قالت لى : يا بنت أخى هل لك فى التزويج ؟ قلت : ما أكره ذلك ياعمة ، قالت العجوز: نعم ، قالت: فخطبني وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلا صيرفيا^(٣) فتزوجني ، فكنا كأننا ريحانتان ما نظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه ويروح على بما رزقه الله تعالى؛ فلما رأت العمة موقعه منى وموقعى منه ؛ حسدتنا على ذلك وكانت لها ابنة فشوفتها^(٤) وهياتها لدخول زوجى فوقعت عينه عليها ، فقال : ياعمة هل لك أن تزوجيني ابتك؟ قالت : نعم بشرط ، فقال لها : وما الشرط ؟ قالت: تصير أمر ابنة أخى إلى ، قال : قد صيرت أمرها إليك ، قالت : فإنى قد طلقته ثلاثا بته،

(١) لَحَنَ : أخطأ

(٢) أَسْفَرَتْ : كشفت عن وجهها .

(٣) صَيَّرَفِيَّ : بياع النقود بنقود غيرها .

(٤) شوفتها : زينتها .

وزوجت ابنتها زوجى فكان يغدو عليها ويروح ، فقلت لها : يا عمتى أتأذنين لى أن أنتقل عنك ؟ قالت : نعم ، فانتقلت عنها . وكان لعمتى زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال : مالى لا أرى ريبتنا ؟ قالت : طلقها زوجها فانتقلت عنا ، فقال : إن لها من الحق علينا أن نعزيها بمصيتها فلما بلغنى مجيئه إلى تهيأت له وتشوفت ، فلما دخل على عزانى بمصيتى ثم قال : إن فيك بقية من الشباب فهل لك أن أتزوج بك ؟ قلت : ما أكره ذلك ولكن على شرط ، قال لى : وما الشرط ؟ قلت : تصير أمر عمى بيدي ، قال : فإنى قد فعلت وصيرت أمرها بيدك ، قلت : فإنى قد طلقته ثلاثا بته ، قالت : فقدم على بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندى ، ثم إنه اعتل وتوفى ؛ فلما انقضت عدتى جاء زوجى الأول الصيرفى يعزىنى بمصيتى فلما بلغنى مجيئه تهيأت وتشوفت له ، فلما دخل على قال لى : يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعز الناس على وأحبهم إلى وقد حلت المراجعة هل لك فى ذلك ؟ قلت : ما أكره ، ولكن اجعل أمر ابنة عمى بيدي ، قال : فإنى قد فعلت ، قلت : فإنى قد طلقته ثلاثا بته ، أصلح الله القاضى فرجعت إلى زوجى فما اعتدائى عليها ؟

فقال العجوز : أنا فعلت مرة وفعلت مرة بعد أخرى ، فقلت : إن الله لم يؤت فى هذا وقتا وقد قال ﴿من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ [الحج: ٦٠] واحدة بواحدة والبادى أظلم ، فقال القاضى : إن زوج العمة لم يكن له أن يتزوج ابنة أخيها وهى فى عدته ، فأرادت العجوز أن تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها ، فقلت لها : قد فرقت بينكما قومى إلى منزلك ، انتهى .

[٥١] و[قيل] : ذكر المنصور يوما في مجلسه زوال ملك بنى أمية

وما جرى عليهم وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء ، فقال له إسماعيل بن على الهاشمي : إن عبد الله بن مروان بن محمد^(١) في حبسك وله قصة مع ملك النوبة فأحضره واسأله عنها ، فأحضره فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المنصور : رد السلام أمن ولم تسمح نفسي بذلك، ولكن اقعد فقعد ، فقال : ما قصتك مع ملك النوبة ؟

فقال : يا أمير المؤمنين كنت ولي عهد أبى ، فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلمانى ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشددت فى وسطى جوهرها له قيمة عظيمة وخرجت هاربا إلى بلاد النوبة فلما قربنا بعثت غلاما لى فقلت : امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة^(٢) ، فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن ، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم ، وقال : الملك يقرئك السلام ويقول لك : من أنت وما جاء بك إلى بلادى أمحارب أم راغب فى دينى أم مستجير بى ، فقلت له : رد على الملك ما أنا بمحارب ولا راغب فى دينك ولا ممن يتغنى بدينه بدلا بل مستجير به ، فذهب الرسول ورجع إلى وقال : الملك يقول لك إنى أحيى إليك غدا فلا تحدث نفسك حدثا ولا شيئا من الميرة ، فقلت لأصحابى : افرشوا الفرش ففرش لى وجلست من الغد أرقبه وإذا هو

(١) عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، الأموى : شهد زوال دولتهم فى أيام أبيه [١٣١هـ] وفر من عبد الله بن على العباسى "عم السفاح" إلى بلاد النوبة ،

ت[١٧٠هـ - ٧٨٧م] . انظر : تاريخ ابن خلدون (١١٢/٣)

(٢) الميرة : الطعام الذى يدخره الإنسان .

قد أقبل وعليه بردان قد اثتر بأحدهما وارتدى بالآخر حافى الرجلين ومعه عشرة معهم الحراب ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه فاستصغرت أمره وسولت لى نفسى قتله فلما قرب إذا سواد عظيم قلت: ما هذا؟ قالوا: الخيل فوافى بها عشرة آلاف عنان^(١) ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا؛ فلما دخل جلس على الأرض، قال: فقلت لترجمانه: لِمَ لَمْ يقعد على الموضع الذى وطئ له فسأله فقال: قل له إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعا لله وعظمته إذ رفعه الله على عبادته، ثم نكت بأصبعه الأرض طويلا، ورفع رأس، وقال: قل له كيف سلبتم هذا الملك فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت: جاء من أقرب منا قرابة إليه فسلبنا وغلبنا وطردنا، فخرجت إليك مستحيرا بالله ثم بك، قال: فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا من غير رأينا، قال: فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا بغير رأينا، قال: فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها مالا طاقة لهم به: الضرب والإهانة ولا يقنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم فى طلب دراج^(٢) قيمته نصف درهم والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع، قال: لا ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم مانهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد، وإنى أخاف أن ينزل بك النقمة إذا كنت من الظلمة فتشملنى

(١) عَنان: لحام العيل .

(٢) الدَّرَاج: القنفذ لأنه يدرج فى الليل .

معك ، فإن النعمة إذا نزلت شملت ، فأخرج بعد ثلاث فإن وجدتكَ بعدها أخذت مامعك وقتلتك ومن معك ، ثم وثب قائما وخرج وأقامت ثلاثا ورجعت الى مصر فأخذني عاملك ، وبعث بي إليك وها أنا والموت أحب إلى من الحياة ، فرق له المنصور وهم بإطلاقه ، فقال له إسماعيل بن علي : في عنقي بيعة هذا ، قال : فما ترى قال ينزل في دار من دورنا ، ويجرى عليه مايجرى على مثله ، ففعل به ذلك ، انتهى .

[٥٢] و[قيل] خطب المنصور يوما بالشام فقال : "أيها الناس ينبغي لكم أن تحمدوا الله تعالى على ما وهبكم الله في فلاني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يحييكم" ، فقال أعرابي : إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا.

[٥٣] و[قيل] : دخل ابن هرمة^(١) على المنصور وامتدحه ، فقال له المنصور : سل حاجتك ، قال : تكتب إلي عاملك بالمدينة إذا وجدني سكرانا لا يحدني ، فقال له المنصور : هذا حد لاسبيل إلى تركه ، فقال : مالي حاجة غيرها ، فقال لكتابه : اكتب إلي عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة فكان الشرطة

(١) إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر : شاعر غزل من سكان المدينة ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد ثم وفد إلى المنصور العباسي في وفد أهل المدينة فتحهم له ، ثم أكرمه ، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم . وقال الأصمعي : ختم الشعر بابن هرمة وكان مولعاً بالشراب ، وجلد فيه أكثر من مرة ، ت [١٧٦هـ] . انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (١/١٦٢) ، تاريخ بغداد (٦/١٢٧) ، البداية والنهاية (١٠/١٦٩).

يمرون عليه وهو سكران ويقولون من يشتري ثمانين بمائة فيمرون عليه ويتركونه ، انتهى^(١) .

[٥٤] وحدث أحمد بن موسى قال : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أحسن معرفة ولا أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالا لبني أمية فأمر المنصور حاجبه الربيع^(٢) أن يحضره فلما حضر بين يديه ، قال المنصور : رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالا وسلاحا لبني أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أنت وارث لبني أمية قال لا قال فلم تسأل إذن عما في يدي من أموال بني أمية ولست بوارث لهم ولا وصي فأطرق المنصور ساعة ثم قال : إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين ، فقال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بيعة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي وأنه هو الذي غصبوه من الناس ، وأن أمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التي اغتصبوها على مايتهم أمير المؤمنين، قال: فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : ياربيع صدق الرجل مايجب لنا على الرجل شيء ، ثم قال للرجل ألك حاجة ؟ قال : نعم قال

(١) جاء ذكر هذه القصة في العقد الفريد لابن عبد ربه (٥٨/٨) ولكن كانت بين ابن هرمة مع المهدي .

(٢) الربيع بن يونس بن محمد بن أبي قروة ، كسبان أبو الفضل : من موالى بني العباس ، وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم ، اتخذ المنصور العباسي حاجبا ثم استوزره ، وعاش إلى خلافة المهدي ، وإليه تنسب "قطيعة الربيع" ببغداد وهي محلة كبيرة ، ت[١٩٦هـ - ٧٨٦م] . انظر :وفيات الأعيان (١٨٥/١) ، الأعلام للزركلي (١٥/٣) .

ماهى ؟ أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك فوالله ياأمير المؤمنين ما
لبنى أمة عندى مال ولا سلاح وإنما أحضرت بين يديك وعملت ما أنت
فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم فأيقنت أن الكلام
الذى صدر منى هو أنجح وأصلح لما سألتنى عنه ، فقال المنصور : ياربيع
اجمع بينه وبين الذى سعى به فجمع بينهما ، فقال : ياأمير المؤمنين هذا
أخذلى خمسمائة دينار وهرب ولى عليه مسطور شرعى فسأل المنصور
الرجل فأقر بالمال قال فما حملك على السعى كاذبا ، قال : أردت قتله
ليخلص لى المال ، فقال الرجل : قد وهبتها له ياأمير المؤمنين لأجل وقوفى
بين يديك وحضورى مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لى،
فاستحسن المنصور فعله وأكرمه وردده إلى بلده مكرما وكان المنصور كل
وقت يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ قط ولا أثبت من جنانه ولا من حجته
مثله ولا رأيت مثل حلمه ومروءته ، انتهى .

٤ - فصل

خلافة المهدي^(١)

[٥٥] اسمه محمد بن المنصور . حدثنا داود بن رشيد قال : قلت للهيثم بن عدي : بأى شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولاه المهدي القضاء وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؟ فقال : إن خبر اتصاله بالمهدي ظريف فإن أحببت شرحته لك ، قلت : والله قد أحببت .

قال : اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي وقال له استأذن لى على أمير المؤمنين فقال له من أنت وما حاجتك ؟ قال أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين أعززه الله رؤيا سالحة وقد أحببت أن تذكرنى له ، فقال الربيع : يا هذا إن القوم لا يصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة غير هذا ، فقال : إن لم تخبره بمكانى سألت من يوصلنى إليه وأخبره أنى سألتك الإذن لى عليه فلم تفعل فدخل الربيع على المهدي فقال له يا أمير المؤمنين إنكم قد أطمعتم الناس فى أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب فقال له المهدي : هكذا تبضع

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن علي العباسي ، المهدي : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بإذنج (من كور الأهواز) ولى الخلافة بعد وفاة أبيه وبعهد منه [١٥٨هـ -] كان محمود العهد والسيرة ، محبا إلى الرعية ، جوادا . وكان يحلس للمظالم ويقول : أدخلوا على القضاء فلو لم يكن ردى للمظالم إلا حياء منهم لكفى . وهو أول من مشى بين يديه بالسيوف المتصلة والقسى والنشاب . وهو الذى بنى جامع الرصافة . وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا ، ومات فى ماسبذان [١٦٩هـ - ٧٨٥م] . انظر : دول الإسلام للنعمى (١/٨٦) ، تاريخ الطبرى (١٠/١١-٢١) .

الملوك فماذا ؟ قال : رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمير المؤمنين أيده الله رؤيا حسنة وقد أحب أن يقصها عليك ، فقال المهدي : ياربيع انى والله أرى الرؤيا لنفسى فلا تصح لى فكيف يمكن ادعاؤها ممن لعله قد افتعلها ، قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل ، قال : هات الرجل .

قال : فادخل عليه سعيد وكان له رؤية ، وجمال ، ومروءة ظاهرة ، ولحية عظيمة ، ولسان طلق . فقال له : ما رأيت بارك الله فيك ؟ قال رأيت يأمر المؤمنين آتياً أتانى فى منامى ، فقال : أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين سنة فى الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى فى ليلة الآتية فى منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له . فقال المهدي : ما أحسن مارأيت ونحن نمتحن رؤياك فى ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا ، فإن كان الأمر على ما ذكرت أعطيناك فوق ماتريد وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك ؛ لعلنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت . قال : يأمر المؤمنين فما أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلى وعيالى وأخبرتهم أنى كنت عند أمير المؤمنين أكرمه الله ثم رجعت صفر اليد ، فقال له : المهدي فكيف نعمل ؟ فقال : يعجل لى أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ما أحب وأحلف له بالطلاق أنى قد صدقت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له : من يكفلك فمد عينه إلى خادم حسن الوجه والنزى وقال : هذا يكفلنى ، فقال له المهدي : أتكفله يا غلام ؟ فاحمر وخجل وقال : نعم يا أمير المؤمنين فكفله ، وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم فلما كانت تلك الليلة رأى المهدي مذكروه له سعيد

حرفاً بحرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن فأذن له ، فلما وقعت عين المهدي عليه قال له : أين مصداق ماقلت لنا عليه ، فقلت له : وما رأى أمير المؤمنين فضجع في جوابه^(١) ، فقال له : امرأتى طالت إن لم تكن رأيت شيئاً . قال له المهدي : ما أجراك على هذا الحلف بالطلاق فقال لأنى أحلف على صدق قال له المهدي فقد والله رأيت ذلك مبيناً ، فقال له سعيد : الله أكبر فانجزلى يا أمير المؤمنين ما وعدتني قال : حبا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت^(٢) ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة فأخذ ذلك وانصرف ، فلحق به الخادم الذى كان كفله ، وقال له : سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل ؟ فقال سعيد : لا والله ، فقال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته ، قال : هذا من المخاريف التى لا أب لها ، وذلك أنى لما ألقيت هذا الكلام خطر بباله ، وحدث به نفسه ، وأسرى به قلبه واشتغل به فكره ، ففى ساعة نام خيل له ما حل فى قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه . فقال له الخادم : قد حلفت بالطلاق ، قال : قد طلقت واحدة وبقيت معى على ثنتين وأزيد مهرها عشرة دراهم ، وأتحصل على عشرة آلاف درهم ، وثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت من أصناف الثياب ، وثلاثة مراكب فارهة ، فبهت الخادم وتعجب من ذلك . فقال له سعيد : قد صدقتك وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فاستر على . ثم طلبه المهدي لمنادمته فنادمه وحظى عنده وقلده القضاء على العسكر فلم يزل كذلك حتى مات ، انتهى .

(١) فضجع فى جوابه : أبطأ فى الرد .

(٢) التَّخْتُ : عِزَانَةُ الثَّيَاب .

[٥٦] ويحكى : أن المهدي خرج يتصيد ففسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابي فقال : يا أعرابي هل من قري ؟ قال : نعم ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبس فسقاه ، ثم أتاه بنبذ في ركوة فسقاه قعباً^(١) فلما شرب ، قال : يا أبا أندرى من أنا ؟ قال : لا والله ، قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : بارك الله في موضعك ، ثم سقاه قعباً آخر فشربه ، فقال : يا أعرابي أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين قال : رحبت ببلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه ثالثاً ، فلما فرغ منه ، قال : يا أعرابي أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال : لا ولكني أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابي الركوة^(٢) وأوكأها^(٣) وقال : والله لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدي حتى غشى عليه ، وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف فطار قلب الأعرابي ، فقال له : لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال .

[٥٧] وقيل : كان لأسماء بنت المهدي جارية ، يقال لها : كاعب وكانت بكراً ناهداً ذات حسن وجمال وقد^(٤) واعتدال وكانت بنت ست عشرة ، سنة قال : فتلاعب عليها أبو نواس^(٥) لينالها ، فتمنعت منه مراراً

(١) القَعْب : قدح ضخم .

(٢) رِكْوَة : إناء صغير من جلد لشرب الماء وغيره .

(٣) أوكأ : أى شدها بالركاء ، والركاء الخيط الذى تشد به الصرة وتعلق منه .

(٤) قد : معتدلة القامة .

(٥) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكيم ، أبو نواس : شاعر العراق في عصره ، ولد بالأهواز من بلاد خوزستان ، ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل -

فظفر بها ليلة من الليالي فى ناحية من نواحي القصر فمسكها ، فبكت وقالت : الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس : فى نفسه هذا جزع الأبيكار فتركها مدة ، فاتفق أنه خرج من القصر ليلة ، وقد رقرق الدجى^(١) فوجدها نائمة سكرى فتقرب منها وحل السراويل من وسطها ودهمها ، فإذا هى خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد ، و قام عنها وندم على ما كان منه وأخذ يقول^(٢) :

وناهدة الثدين من خدم القصر	مرقوة الخدين ليلة الشعر
كلفت بها دهرًا على حسن وجهها	طويلا وماحب الكواعب من أمرى
فمازلت بالأشعار حتى خدعتها	وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئاً فقالت بعبرة	أموت به داء ودمعتها تحرى
فلما تعانقنا توسطت لجة	غرقت بها ياقوت فى لحج البحر
فصحت أغثنى يا غلام فجاءنى	وقد زلقت رجلى ورحت إلى صدرى
ولولا صياحى بالغلام وأنه	تداركنى بالحبل رحت إلى القعر
فاقسمت عمرى لا ركبت سفينة	ولا سرت طول الدهر إلا على الظهر

فيها بالخلفاء من بنى العباس . قال الجاحظ : ما رأيت رجلاً أعلم باللغة ولا أنصح لهجة من أبى نواس . قال الشافعى : لولا محزون أبى نواس لأخذت عنه العلم . وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضارية وأخرجه من اللهجة البدوية . ولابن منظور "صاحب اللسان" كتاب سماه "أخبار أبى نواس" ، ت[١٩٨هـ - ٨١٤م] . انظر : الشعر والشعراء ص ٣١٣ ، وفيات الأعيان (١/١٣٥) ، تاريخ بغداد (٧/٤٣٦) .

(١) رَقَرَقَ الدُّجَى : خف الظلام .

(٢) انظر : ديوان أبى نواس ص ٢٣٦ .

حكاية أجنبية

[٥٨] قال المبرد^(١) : صعدت من البصرة إلى بغداد ، فمررت بدير العاقول^(٢) فرأيت مجنونا فيه ، فلم أر قط أظرف منه ولا أحسن ثيابا ويده الواحدة على صدره ، فلما دنوت منه أنشأ يقول :

الله يعلم أننى كمد	لا أستطيع أيت ما أجد
روحان لى روح تملكها	بلد وأخرى حازها بلد
وأرى الصباية ليس ينفعها	صبر وليس لمثلها جلد
وأظن ظاعتي كشاهدتي	بمكانها تجد الذى أجد

فقلت : أحسنت والله لله درك يامجنون ، فأهوى لشيء يرمينى به فبعدت عنه ، فقال لى : أنشدتك ماتجبه واستحسنته ، وتقول لى : يامجنون وتكون مع الزمان على ، فقلت له : أخطأت ، فقال : إذن اعترفت بخطئك ، ثم قال : أنشدك شعرا أيضا ، قلت : نعم فأنشأ يقول :

ما أقتل اليين للحب وما	أوجع قلب المحب بالكمد ^(٣)
عرضت نفسى على البلاء لقد	أسرى فى مهنتى وفى كبدى
ياحسرة إذ أبيت معتقلا	بين اختلاج الهموم والسهد ^(٤)

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس المبرد : إمام العربية ببغداد فى زمنه . من

كتبه ، الكامل ، شرح لامية العرب ، ت[٢٨٦هـ] . انظر : بغية الرعاة ص ١١٦ .

(٢) دير العاقول : دير بين مدائن كسرى ، والنعمانية بالقرب من بغداد .

(٣) اليين : الفرقة .

(٤) اختلاج : شغلته الهموم والأرقى . سهد : الأرقى .

فقلت : أحسنت والله زدنا ، قال :

إن فتشوني فمحرق الكبد أو كشفوني فناحل الحسد
أضعف ما بي وزادني ألما أن لست أشكو النوى إلى أحد

فقلت : أحسنت والله زدنا ، فقال : يافتي أراك كلما أنشدتك بيتا ،
قلت : زدنا وماذاك إلا لمفارقة حبيب أو خل أريب ، ثم قال : أحسبك أبا
العباس المبرد . بالله ماهو أنت ؟ قلت : أنا ذلك فمن أين عرفتني ؟ فقال :
وهل يخفى القمر ، ثم قال : يا أبا العباس أنشدني من شعرك شيئا تتعش به
روحي فأنشدته قولي :

بكيت حتى بكى من رحمتي الطلل ومن بكائي بكت أعداى إذ رحلوا^(١)
يامنزل الحى أين الحى قد نزلوا نفسى تساق إذا ماسيقت الإبل
أنعم صباحا سقاك الله من طلل غيثا وجاد عليك الوابل الهطل
سقىا لعهدهم والدار جامعة والشمل ملثم والجبل متصل
فضال ماقد نعمنا والحبيب بها والدهر يسعد والواشون قد غفلوا
قد غير الدهر ماقد كنت أعرفه والدهر ذو دول بالناس ينتقل
بانوا فبان الذى قد كنت آمله والبين أعظم مايلى به الرجل
فالشمل مفترق والقلب محترق والدمع منسكب والركب مرتحل
كان قلبى لما سار عيسهم صب به دنف أو شارب ثمل^(٢)
لما أناخو قبيل الصبح عيسهم وثوروها وسارت بالهوى الإبل

(١) الطَّلَل : الشاخص من الآثار ، جمعه أطلال .

(٢) العَيْس : الأهل البيض يحالط بياضها سواد خفيف . الدَّنْف : من ثقل مرضه ودنا من الموت . الثَّمِيل : شدة السكر .

وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إلى ودمع العين منهمل^(١)
ياحادى العيس عرج كى أودعهم ياحادى العيس فى ترحالك الأجل
إنسى وحقك لأنسى مودتهم ياليت شعرى لطول العهد ما فعلوا

قال أبو العباس المبرد فلما أتممت شعرى ، قال لى : ما فعلوا قلت
ماتوا فصاح صبيحة عظيمة وخر مغشيا عليه فحركته فوجدته قد مات رحمة
الله عليه ، انتهى .

(١) السَّجَف : الستر .

٥ - فصل

خلافة موسى الهادي بن محمد^(١)

لم أر فيه شيئاً ومن رأى فيه شيئاً فليضعه ، قال بعض الفضلاء من حيث إن المؤلف أمر بأن من رأى فيه شيئاً فليضعه فرأيت هذا التزر اليسير مذكوراً في تاريخ الإسحاقى^(٢) فأحببت ذكره امثالاً لأمره .

[٥٩] فقلت : ذكر صاحب السكردان^(٣) : إن الهادى كان يوماً فى بستان يتنزه على حمار ، ولا سلاح معه وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادى بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه ، فلما أبصر الخارجى الهادى جذب يديه من

(١) موسى بن محمد بن أبى جعفر المنصور ، أبو محمد الهادى : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بالرى وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [١٦٩هـ] وكان غائباً بحرجان فأقام أخوه الرشيد ببيته ، واستبدت أمه الخيزران بالأمر . وعندما تولى الخلافة أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر ، فلم تر أمه ذلك ، فزجرها ، فأمرت بقتله ، فقتل ودفن فى بستانه بعمى أباذ [١٧٠هـ = ٧٨٦م] . انظر : الكامل لابن الأثير (٢٩/٦-٣٦) ، تاريخ الطبرى (١٠/٢١-٣٣) .

(٢) صاحب تاريخ الإسحاقى هو : محمد بن عبد المعطى الإسحاقى ، مؤرخ مصرى من أهل منوف . له "لطائف أخبار الأول فىمن تصرف بمصر من أرباب الدول" ، ت[١٠٦٠هـ = ١٦٥٠م] .

(٣) صاحب السكردان هو : أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى ، أديب ومؤرخ ، ت[٧٧٦هـ = ١٣٦٥م] .

الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادى ، ففر كل من كان حوله
وبقى وحده وهو ثابت على حماره حتى إذا دنا منه الخارجى وهم أن
يعلوه بالسيف أوماً إلى وراء الخارجى وأوهمه أن غلاماً وراءه ، وقال :
يا غلام اضرب عنقه ، فظن الخارجى أن غلاماً وراءه والتفت الخارجى ،
فنزل الهادى مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجى ، وذبحه
بالسيف الذى كان معه ، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره وأتباع الهادى
ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملثوا منه حياءً ورعباً فما عاتبهم
ولا خاطبهم فى ذلك بكلمة ، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم ولم يركب
إلا جواداً من الخيل فانظر إلى هذا المقدار فى ثبات جأش الملوك ، فإنه قل
من يفعل ذلك وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادراً .

[٦٠] حكى عبد الحق^(١) : إنه قال : مما ابتلى به الهادى من المحبة
أنه كان مغرمًا بجارية تسمى غادر^(٢) ، وكانت من أحسن النساء وجهها
وأطيبهن غناء ، اشتراها بعشرة آلاف دينار ، فبينما هو يشرب مع ندمائه ،
إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب ، فقيل له : مابال أمير المؤمنين ؟
قال : وقع فى قلبى أنى أموت وأن أخى هارون يلى الخلافة ويتزوج غادر ،
فامضوا واتنوني برأسه ، ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره ، وحكى له
ماخطر بباله فجعل هارون يترفق به ، فقال : لأرضى حتى تحلف لى بكل
ماأحلفك به أنى إذا مت لاتتزوج بها فرضى بذلك وحلف أيماناً عظيمة

(١) عبد الحق ، الدهلوى : مؤرخ ، محدث وأديب هندى كبير ، له "تاريخ حقى" أو

"تاريخ عبد الحق" ، ت [١٠٥١هـ - ١٦٤٢م] .

(٢) انظر : أعلام النساء لرضا كحالة (٣/٤) .

ودخل إلى الجارية وحلفها أيضا على مثل ذلك ، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات ، وولى الخلافة هارون الرشيد ، فطلب الجارية فقالت : يا أمير المؤمنين كيف تصنع بالإيمان ؟ فقال : قد كفرت عنك وعني ثم تزوج بها ، ووقعت في قلبه موقعا عظيما ، وافتتن بها أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره فلا يتحرك ولا ينقلب ، فبينما هي في بعض الليالي وهي في حجره نائمة إذا بها انتبهت فرعة مرعوبة ، فقال لها : ما بالك فديتك ؟ قالت رأيت أخاك الهادي الساعة في النوم فأنشدني هذه الأبيات :

أخلفت عهدى بعدما	جاورت مكان المقابر
ونسيتى وحتشت فى	أيمانك الزور الفواجر
ونكحت غادرة أخى	صدق الذى سماك غادر
لا يهنك الألف الجديد	ولا تدر عنك الدوائر
ولحقتنى قبل الصبا	ح وصرت حيث غدوت صائر

قالت : ثم ولى عنى ، وكان الأبيات مكتوبة في قلبى مانسيت منها كلمة ، فقال لها : هذه أحلام الشيطان ، فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ثم اضطربت بين يديه : وماتت في تلك الساعة ولا تسأل عن هارون الرشيد و ما لقي بعدها ، انتهى .

٦ - فصل

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي^(١)

هو أخو موسى الهادي وهو الخامس من بني العباس

[٦١] قال إبراهيم الموصلي^(٢) في تهنئة الخلافة : عندما ولي

الرشيد بعد أخيه موسى الهادي :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها

[٦٢] و[قيل] : قدم أعرابي حين ولي هارون الخلافة فقيل له : فيم

جئت ؟ قال : أتيت برسالة ، قال : ائت بها ، قال : أتاني آت في منامي
فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

توارثت الخلافة من قريش تزف إليكما أبدا عروسا

(١) هارون بن محمد بن أبي جعفر المنصور ، الرشيد : خامس خلفاء العباسيين ،
وأشهرهم وعلامتهم كان عالما بالأدب وأخبار العرب ، والحديث والفقه ،
ازدهرت الدولة الإسلامية في عهده وبلغت أوجها ، تولى الخلافة بعد اغتيال أخيه
الهادي ، حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكما على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب
القسطنطينية . ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم . وهو من نكب بالبرامكة
بعدما لعبت دورا هاما في الحكم ، ت [١٩٣هـ - ٨٠٩م] . انظر : البداية والنهاية
(٢١٣/١٠) ، كامل لابن الأثير (٣٣١/٢) ، تاريخ اليعقوبي (١٣٩/٣) .

(٢) إبراهيم الموصلي : من أشهر موسيقي العرب ، برع في الفناء والعزف على العود ،
نادم المهدي والهادي والرشيد وعرف بالنديم ، ت [٧٤٢م : ٨٠٤م] .

إلى هارون تهدى بعد موسى
فأعطاه الرشيد عطاء جزيلًا وصرفه .

[٦٣] بويغ له بالخلافة فى الليلة التى توفى فيها أخوه ، وولد فى تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها فى بنى العباس مات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وولد فيها خليفة ولما بويغ الرشيد قلد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك^(٢) وزارته ؛ وسيأتى إيقاع الرشيد بالبرامكة وسبب ذلك .

[٦٤] ويحكى : أن هارون الرشيد مر فى بعض الأيام وبصحته جعفر البرمكى وإذا هو بعدة بنات يستقين الماء فخرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولى لطيفك ينشى	عن مضجعى وقت المنام
كى أستريح وتنطفى	نار تأجج فى العظام
دنق قلبه الأكف	على بساط من مقام
أما أنا فكما علمت	فهل لوصلك من دوام

(١) تَمِيس : مشى وهو يتمايل ويتبحر .

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، أبو الفضل : وزير الرشيد العباسى ولد ونشأ فى بغداد ، واستوزره هارون الرشيد ملقيا إليه أمور الحكم وأعبائه ، وكان يدعوه : أخى ، فانقادت له الدولة ، يحكم بما شاء فلا ترد أحكامه ، إلى أن نقم الرشيد به وبالبرامكة ، وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس ، ت(١٨٧هـ = ٨٠٣م) . انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ ، البداية والنهاية (١٠٩/١٨٩، ١٩٤) ، وفيات الأعيان (١٠٥/١) ، تاريخ بغداد (١٥٢/٧) .

فأعجب أمير المؤمنين ملاحظتها وفصاحتها ، فقال لها : يا بنت الكرام
هذا من قولك أم من منقولك ؟ قالت : من قولي ، قال : إن كان كلامك
صحيحا فامسكى المعنى وغيرى القافية فأنشدت تقول :

قولى لطيفك ينشئ	عن مضجعى وقت الوسن ^(١)
كى أستريح وتنطفئ	نار تأجج فى البدن ^(٢)
دنف تقلبه الأكف	على بساط من شجن
أما أنا فكما علمت	فهل لوصلك من ثمن

فقال لها : والآخر مسروق ، قالت : بلى كلامى ، فقال : إن كان
كلامك أيضا فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينشئ	عن مضجعى وقت الرقاد
كى أستريح وتنطفئ	نار تأجج فى الفؤاد
دنف تقلبه الأكف	على بساط من حداد
أما أنا فكما علمت	فهل لوصلك من سداد

فقال لها : والآخر مسروق ، فقالت بل : كلامى ، فقال لها : إن
كان كلامك فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينشئ	عن مضجعى وقت الهجوع ^(٣)
كى أستريح وتنطفئ	نار تأجج فى الضلوع
دنف تقلبه الأكف	على بساط من دموع

(١) الوسن ، وسين : أخذه ثقل النوم .

(٢) تأجج : النهب .

(٣) الهجوع : النوم .

أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من رجوع

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أى هذا الحى ؟ قالت : من أوسطه بيتا وأعلاه عمودا ، فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحى ؛ ثم قالت : وأنت من أى راعى الخيل ؟ فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة فقبلت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب . فقال الخليفة : لجعفر لابد من أخذها ، فتوجه جعفر إلى أبيها وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك ، فقال : حبا وكرامة ، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا ، ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها ، فكانت عنده من أعز نسائه ، وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام ، ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب ، فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت كل ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعى له ، فقيل لها : ما سبب هذا ؟ فقالت : مات والدى فمضوا إلى الخليفة فأخبروه ، فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر ؟ قالت : وجهك يا أمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قالت : منذ أنا عندك مارأيتك هكذا ولم يكن لى من أخاف عليه إلا والدى لكبره ؛ ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين ؛ فترغرت عيناه بالدموع وعزاها فيه وأقامت مدة وهى حزينه على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين .

[٦٥] ويحكى : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة ، فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير^(١) ، فرأى جارية من جواريه نائمة

(١) مقاصيرُ : طرق

فأعجبته ، فداس على رجلها فانتبهت فرأته أمير المؤمنين فاستحيت منه
وقالت : ياأمين الله ما هذا الخبر ، فأجابها بقوله :

قلت ضيف طارق في أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابته تقول :

بسرور وهناء سيدي أخدم الضيف بسمعي والبصر
فبات عندها إلى الصباح ، فسأل أمير المؤمنين من الباب من
الشعراء؟ قيل له: أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه فقال له : هات على ،
ياأمين الله ما هذا الخبر ، فأنشأ يقول :

طال ليلي حين وافاني السهر	فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشي في المجالي ساعة	ثم أجرى في مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرق	زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطنًا	فدنت منى ومدت للبصر
وأشارت لى بقول مفصح	ياأمين الله ما هذا الخبر
قلت ضيف طارق في أرضكم	هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بكل سرور سيدي	أخدم الضيف بسمعي والبصر

قال فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة .

[٦٦] ويحكى : أن هارون الرشيد هجر جارية له ، ثم لقيها في
بعض الليالي في القصر سكرى تدور في جوانب القصر وعليها مطرف
خز^(١) وهى تسحب أذيالها من التيه والمحب ، وسقط رداؤها عن منكبيها

(١) مُطَرَفَ خَزَّ : رداء من الحرير .

والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان ، ولها ردفان ثقيلان ، فراودها عن نفسها ، فقالت : ياأمير المؤمنين هجرتنى هذه المدة وليس لى علم بملاقاتك فانظرنى إلى غد حتى أتهيا وآتيك ، فلما أصبح قال : للحاجب لاتدع أحدا يدخل على إلا فلانة وانتظرها فلم تحيى فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد ، فقالت : ياأمير المؤمنين كلام الليل يحويه النهار . فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس ، والرقاشى^(١) ، وأبو مصعب^(٢) فقال لهم : هاتوا علىّ : كلام الليل يحويه النهار ، فقال الرقاشى : أنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول :

أتسلوها وقلبك مستطار	وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركك صبا مستهما	فتاه لاتزور ولاتزار
فولت واثنت تيهها وقالت	كلام الليل يحويه النهار

وقال أبو مصعب : وأنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول :

فهل لوصلك من دوام	لما وسعتك فى بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى	ومن ذكراك فى الأحشاء نار
تبسمت الفتاة بغير ضحك	كلام الليل يحويه النهار

(١) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشى ، أبو العباس : شاعر من أهل البصرة ، فارسى الأصل . انتقل إلى بغداد ومدح الخلفاء . قال المبرد : كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير ، ويظهر العز وهو ذليل ، ويتكسر وهو قليل ، فكانت الشعراء تهجوه ، ت[٢٠٠هـ - ٨١٥م]. انظر : فوات الوفيات (٢/١٢٥) ، تاريخ بغداد (١٢/٣٤٥) .

(٢) مصعب بن الحسين البصرى ، أبو الحسين ؛ المعروف : بمصعب الماجن : شاعر من أهل البصرة . كان وراقا ، استفرغ شعره فى وصف الغلمان ، ت[٢٥٠هـ - ٨٦٥م] .

وقال أبو نواس : وأنا قائل فى ذلك أربعة أبيات وأنشأ يقول :

وخود أقبلت فى القصر سكرى	ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافا ثقالا	وغصنا فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها	من التخميش وأنحل الإزار ^(١)
فقلت الوعد سيدتى فقالت	كلام الليل يحويه النهار

فقال الرشيد : قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعنا علينا ، وأمر لكل بخلعة سنية^(٢) ، خمسة آلاف درهم ، ولأبى نواس بعشرة آلاف درهم ، انتهى^(٣) .

[٦٧] وذكر الخطيب^(٤) فى بعض مصنفاته : أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها فوجدها تغتسل ، فلما رآته تحللت^(٥) بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئا فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا له : أبو نواس ، وبشار^(٦) فقال : ليحضرا جميعا فأحضرا فقال الرشيد : ليقل كل منكما أبياتا توافق مافى نفسى فأنشأ بشار يقول :

(١) التخميش : اللطم على الوجه .

(٢) خلعة سنية : رقيقة القدر .

(٣) ذكرت القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه (٤٠٩/٦) . ولكن مع الأمين .

(٤) الخطيب ، أبو بكر أحمد : محدث ، أصولى ، مؤرخ . ترحل وسمع الحديث . له

تاريخ بغداد ، ت [٤٦٤هـ - ١٠٧٢م] .

(٥) تحللت : تغطت .

(٦) بشار بن برد بن يرحوخ العقيلي ، أبو معاذ : شاعر غزلى مشهور ، ت [١٧٨هـ] .

انظر : شذرات الذهب (٣٦٤/١) .

تحييتكم والقلب صار إليكموا
 إذا ذكروا الهجران لآعن ملالة
 وقالوا تحبيننا ولاقرب بيننا
 على أنهم أحلى من الشهد عندنا
 بنفسى ذاك المنزل المتجيب
 وذكرهم ينمى إلى محبب
 فكيف وأنتم حاجتى تتجنبوا
 وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال : أحسنت ولكن ماأصبت مافى نفسى ، فقل : أنت ياأبا نواس
 فجعل يقول (١) :

نضت عنها القميص لصب ماء
 وقابلت الهواء وقد تعرت
 ومدت راحة كالماء منها
 فلما أن قضت وطراو همت
 رأأت شخص الرقيب على التدانى
 وغاب الصبح منها تحت ليل
 فسبحان الإله وقد براها
 فررد خدها فرط الحياء
 بمعتدل أرق من الهواء
 إلى ماء معد فى إناء
 على عجل لتأخذ الرداء
 فأسبلت الظلام على الضياء
 فظل الماء يجرى تحت ماء
 كأحسن مايكون من النساء

فقال الرشيد : سيفاً ونطعاً ، فقال له : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال :
 أمعنا كنت ؟ قال : لا والله ولكن شئ خطر ببالى فأمر له بأربعة آلاف
 درهم وصرفه أه .

[٦٨] ويحكى : أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً ،
 فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة وقلقه زائد ونفسه
 محصورة، فلما أصبح قال: على بالأصمعى فخرج الطواشى (٢) إلى البوايين

(١) انظر : ديوانه ص ٢٨ .

(٢) الطواشى : من حملة العدم العاصة .

فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين : ارسلوا أحداً خلف الأصمعى فلما حضر ، أعلم الخليفة به فأجلسه ورحب به ، وقال: يا أصمعى أريد منك أن تحدثنى بأجود ماسمعت من أخبار النساء وأشعارهن ، فقال : سمعا وطاعة ، لقد سمعت كثيرا ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدن ثلاث بنات ، فقال له : حدثنى حديثهن فقال : اعلم يا أمير المؤمنين إنى توجهت سنة إلى البصرة فاشتد على الحر ، فطلبت مقيلا أقيلا فيه فلم أجد ، فبينما أنا أتلفت يمينا وشمالا ، إذا أنا بساباط^(١) مكنوس مرشوش ، وفيه دكة من خشب وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك ، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع ، فسمعت كلاما عذبا من فم جارية حسناء وهى تقول : ياأختى إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح تعالين نطرح ثلثمائة دينار ، وكل منا تقول بيتا من الشعر ، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلثمائة دينار لها ، فقلن : حبا وكرامة ، فقالت الكبرى :

عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ولوزارنى مستيقظا كان أعجبا
فقلت الوسطى :

ومازارنى فى النوم إلا خياله فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا
فقلت الصغرى :

بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ضجيعى ورياه من المسك أطيبا
فقلت : إن كان لهذا المقال جمال تم الأمر على كل حال فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف ، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية وهى

(١) سَابَاط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

تقول : اجلس يا شيخ فطلعت على الدكة ثانيا وجلست ، فدفعت إلى ورقة فنظرت خطأ في نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الها آت مدور الواوات مضمونه ، نعلم الشيخ ، أطال الله بقاءه ، أننا ثلاث بنات أخوات جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلاثمائة دينار ، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلاثمائة دينار وقد جعلناك الحكم في ذلك فاحكم بما تراه والسلام ، فقلت للجارية : على بدواة وقرطاس فغابت قليلا وخرجت إلى بدواة مفضضة وأقلام مذهبة فأنشأت أقول :

أحدث عن خلود تحدثن مرة	حدث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحارى جحافل	حللن بقلب للمشقوق معذبا
خلون وقد نامت عيون كثيرة	من الراقيدين المشتتهين التغييا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا	نعم واتخذن الشعر لهوا وملعبا
فقلت عروب ذات عز عزيزة	وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار في النوم مضجعي	ولو زارني مستيقظا كان أعجبا
فلما انقضى مازخرفت وتضاحكت	تنفست الوسطى وقالت تطربا
ومازارني في النوم إلا خياله	فقلت أهلا وسهلا ومرحبا
وأحسنن الصغرى وقالت محيبة	بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسي وأهلى من أرى كل ليلة	ضحيعي ورياء من المسك أطيبا
فلما تدبرت الذى قلن وانبرى	لى الحكم لم أترك لذى اللب متعبا
حكمن لصغراهن فى الشعر أنسى	رأيت الذى قالت جميلا وأصوبيا

قال الأصمعى ثم دفعت الرقعة إلى الجارية ، فلما صعدت إلى القصر فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة ، فقلت : مابقى لى إقامة فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف وإذا بالجارية تنادى وتقول : اجلس

يأصمعي، فقلت : ومن أعلمك أننى الأصمعي ؟ فقالت ياشيخ إن خفى علينا اسمك فما خفى علينا نظمك ، فجلست وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى ، وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادى وتقول: اجلس يأصمعي ، فرفعت بصرى إليها فنظرت كفا أحمر فى كم أصفر فخلته البدر يشرق من تحت الغمام ، ورمت لى بصرة فيها ثلثمائة دينار ، وقالت : هذا صار لى وهو منى لك هبة فى نظير حكومتك فقال لى : أمير المؤمنين لأى شىء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى ، فقلت له : ياأمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت : عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ، وهو محمول معلق على شرط وقد لايقع . وأما الوسطى : فمر بها طيف خيال فى النوم فسلمت عليه . وبيت الصغرى : ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشتت منه أنفاسا أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولايفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس ، فقال الخليفة : أحسنت يأصمعي ثم دفع إلى ثلثمائة دينار فأخذتها وانصرفت ، فكنت أقول : لله درك من شعر أخذت فى حكومتى منه ثلثمائة دينار وفى حكايته مثلها والله أعلم .

[٦٩] ومما حكى عن الأصمعي فى نوادره قال : سهرت ليلة عند الرشيد فى الرقة فقال لى : من معك يا عبد الله يؤنسك ، فقلت ياأمير المؤمنين مالى أنيس غير الوحدة ، فأمسك وأقبل فى حديثه ماشاء الله ، ثم نهض ونهض من بحضرته ؛ فلما صرت إلى منزلى وإذا بخادم الأمير يقرع الباب ، فخرجت فإذا ضوء شمع وضحة وغوغاء ومعه جارية فلما رآنى الخادم دنا منى وقبل يدى وقال لى : يقول لك أمير المؤمنين : قد أمرنا لك

بمن يؤنسك وهى جارية من خواصه وشيء من المال ، فشكرت أمير المؤمنين ، ودعوت له وتقدم الخادم بإدخال الجارية ومعها من الآلات والخدم والجوارى والفرش مالم أر مثله إلا عند أمير المؤمنين ، ثم ودعنى الخادم وانصرف ؛ فلما نظرت إلى الجارية رأيتهأ أحسن الناس وجهها ، وأكملهم قدا وشكلا وظرفا ، وأكثرهم محونا ، فداخلنى لها هيبة وانقباض فقالت ماهذا الحياء البارد السمج الذى لاوجه له ، أين ملحك ونوادرك ! ثم قالت لجارية من الجوارى: هات ماعندك فجاءت بأحسن مايكون من ألوان الطعام فأكلنا ، وهى مع ذلك تباسطنى وتؤانسنى بالحديث والملاعبة، ثم دعت بالشراب فشربت وسقتنى، ثم قالت : مابقى بعد الأكل والشرب إلا النوم والخلوة ، فقامت ولبست من الثياب ماأرادت وألبستنى ثيابا فاخرة مبيضة ، وتفرق من كان عندنا ، ثم اضطجعت إلى جانبنى فلما جمعنا الفراش اصابنى من الحصر وانقطاع الإنعاض ورخاوة الاير مالم أكن أعهدده قبل ذلك ، فجعلت تقلبه بيدها وتغمره فلا يزداد إلا انكماشا وموتا ، فلما أعيتهأ الحيلة فيه ، ويثست من قيامه ، ومضى من الليل أكثره ، قالت : عظم الله أجرك فى إيرك ، ثم نهضت ولبست ثياب الحداد ودعت بسفط فأخرجت منه مناديل صغار ، أو حنوطا و قالت : نم على ظهرك يابطال فاستولى على الخجل ، حتى أنى لم أقدر أخالفها فى شيء مما تأمرنى به فى جميع ماتفعله فى ، ففسلته وحنطته وكففته بتلك المناديل ، فلما فرغت همت بجواريتها وقامت معهن فى بكاء ، ونحيب ، ونوح ، وندب ، وصراخ بأشد مايكون ومازلن على ذلك إلى وقت السحر، ثم قالت : مابقى إلا مسايئولاه الرجال من الصلاة والدفن وولت عنى، فقممت وأنا أخزى خلق الله حالا فلبست ثيابى وصليت الفجر،

وسرت من وقتى وساعتى إلى الرشيد ، فأنكر الحاجب حضورى فى ذلك الوقت وأعلم الرشيد بى فأذن لى فدخلت وهو قاعد فى مصلاه ، فقال لى : ويحك مادهاك فى هذا الوقت ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين خبرى عجب وأمرى غريب فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا مارحمتينى وأرحتنى من هذه الجارية التى أنفذتها إلى ، فلا حاجة لى بها ، فقال أمير المؤمنين : ومالسب لذلك ومالخير الذى دهاك وليس لها عندك حين من الزمان ؟ فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها ، حتى بلغت إلى إقامة الصلاة فاشتد ضحكته حتى أنه كاد أن يستلقى على قفاه ، وسمعت الضحك من كل ناحية فى الدار من الجوارى وغيرهن ، ثم قال نحن إلى هذه أحوج منك إليها وقد كنا غافلين ، عنها ثم إنه أمر بحملها إلى داره وعوضنى عنها خمسين ألف درهم وترك جميع ما حل معها فى منزلى وخرجت مجردة ، فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى انه لم يتقدم عليها أحد من نظائرها وسميت من وقتها هذا بالأصمعة إلى أن توفيت رحمة الله عليهم أجمعين .

[٧٠] وعن أبى إسحاق إبراهيم الموصلى قال^(١) : استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الأيام للانفراد بجوارى وإخوانى فأذن لى فى يوم السبت ، فأتيت منزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى ومااحتجت إليه وأمرت البوابين بغلاق الأبواب ، وأن لا يأذنوا لأحد بالدخول على ، فبينما أنا فى مجلس والحريم قد حقفن بى ، وإذا بشيخ ذى هية وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة ويده عكازة مقمعة من فضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق ، فداخلنى غيظ

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٥٥ .

عظيم لدخلوه على وهممت بطرد البوايين ، فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارهم حتى ذهب ما بي من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى لإدخال مثله على لأدبه وظرفه ، فقلت : هل لك فى الطعام ؟ قال : لا حاجة لى فيه قلت فالشراب ؟ قال : ذلك إليك فشربت رطلا وسقيته مثله ، ثم قال ياأبا إسحاق هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ماقد فقت به العام والخاص ، فغاضنى قوله ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت ياإبراهيم فازددت غيظا ، فقلت : مارضى بما فعله فى دخوله بغير إذنى واقتراحه على حتى سمانى باسمى ولم يجهل مخاطبتى ، ثم قال: هل تزيد ونكافئك فتذمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته وقمت به قياما تاما لقوله ونكافئك فطرب ، وقال : أحسنت ياسيدى، ثم قال : أتأذن لى فى الغناء ؟ فقلت : شأنك واستضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد الذى سمعه منى فأخذ العود ، وحسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربى ، اندفع يغنى هذه الأبيات :

ولى كبد مفروحة من يبيعنى	بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها	ومن يشتري ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذى فى جوانحي	أنين غصيص بالشراب طريح ^(١)

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل ما فى البيت تحببه وتغنى معه وبقيت مبهورتا لأستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ، ثم اندفع يغنى فقال :

(١) غَصْرٌ : اعترض الشراب حلقه فمنعه من التنفس .

فلأني إلى أصواتكس حزين
وكدت بأسرار لهن أيين
شربن الحميا أو بهن جنون
ولم تدمع لهن عيون

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة
فعدن ولما عدن كدن يمتنى
دعوت بترداد الهدير كأنما
فلم ترعيني مثلهن حمامها

قال ثم سكت قليلا وغنى هذه الأبيات :

فقد زادني مسراك وجدا على وجدى
على فتن من غصن بان ومن رند
وأبديت من شكواى مالم أكن أبدى
يمل وأن البعد يشفى من الوجد
على أن قرب الدار خير من البعد
إذا كانت من تهواه بغير ذى ود

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
بكيت كما يكي الوليد صبا
وقد زعموا أن المحب إذا دنا
بكل تداوننا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع

ثم قال : يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك
وعلمه جواريك فقلت : أعده على ، فقال : لست تحتاج إلى إعادة فقد
أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدي فارتعت منه وقمت إلى السيف
وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة ، فقلت للحوارى :
أى شىء سمعتن فقلن سمعنا غناء أطيب شىء وأحسنه فخرجت متحيرا إلى
باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أى شيخ فوالله
مادخل اليوم إليك أحد ، فرجعت أتأمل أمره ، فإذا هو قد هتف بى من
جوانب البيت ، وقال : لا بأس عليك يا أبا إسحاق فإنما هو أبو مرة^(١) قد
كنت نديمك اليوم فلا تفزع ، فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر ، فقال :

(١) أبو مرة : كنية الشيطان .

أعد الأصوات التي قد أخذتها فأخذت العود وضربت فإذا هى راسخة فى صدرى ، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب ولم يكن له همة على الشراب، وقال كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليتة متعنا بنفسه يوما واحدا ، كما متعك ثم أمر لى بصلة فأخذتها وانصرفست ، انتهى .

[٧١] و[قيل] : قال الرشيد يوما للفضل بن يحيى ، وهو بالرقه : قد قدم إسماعيل بن صالح بن على وهو صديقك ، وأريد أن أراه فقال : إن أخاه عبد الملك فى حبسك وقد نهاه أن يحييك ، قال الرشيد : فإنى أتعلل حتى يحيئنى عائدا فتعلل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعود أمير المؤمنين قال : بلى فجاءه عائدا فأجلسه ثم دعا بالغداء فأكل إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأنى قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج حوارى يغنين وضربت ستارة وأمر باستقيه فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه فى حجر إسماعيل ، وجعل فى عنقه سبحة وفيها عشر حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : غن يا إسماعيل وكفر عن يمينك بثمان هذه السبحة فاندفع يغنى شعر الوليد بن يزيد فى غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته وهى التى ينسب إليها سرق الغالية فقال :

فأقسم ماكفأى مدت لريه	ولاحملتى نحر فاحشة رجلى
ولا قادننى سمعى ولا بصرى لها	ولادلتنى رأبى عليها ولا عقلى
واعلم أنسى لم تصبنى مصيبة	من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

فسمع الرشيد أحسن غناء بأحسن صوت ، فقال : الريح يا غلام فجىء بالريح فعقد له لواء على إمارة مصر ، قال إسماعيل : فوليتها سستين فأوسعتهم عدلا وانصرفت بخمسمائة ألف دينار وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال : غنى والله الخبيث لهم ليس هو بصالح ، انتهى .

[٧٢] ويروى : أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة شرفها الله تعالى ، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف سبقة أعرابي فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرا عليه ، فقال الحاجب للأعرابي : تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين فقال الأعرابي : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام فقال عز وجل ﴿سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج : ٢٥] فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره ، فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلى فسبقه الأعرابي فصلى فيه؛ فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه : اتنى بهذا الأعرابي فأتاه الحاجب فقال : أحب أمير المؤمنين فقال : مالى إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلى والسعى ، فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الرشيد : يا أخا العرب اجلس هنا بأمرى ، فقال الأعرابي : ليس البيت بيتى ولا الحرم حرمى وكلنا فيه سواء ، فإن شئت تجلس وإن شئت تنصرف ، قال الراوى : فعظم ذلك على الرشيد وسمع مالم يكن فى ذهنه وماظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام، فجلس الرشيد وقال : يا أعرابي أريد أن أسألك عن فرضك إن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنست عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ، فقال الأعرابي : سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت ! فتعجب الرشيد من

سرعة جوابه ، وقال : بل سؤال تعلم . فقال له الأعرابي : قم فاجلس مقام السائل من المسئول ، قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدالك، فقال له : أخبرني عما افترض الله عليك ؟ فقال له : تسألني عن أى فرض : عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أم عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة فى طول العمر ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به ، ثم قال : له سألتك عن فرضك فاتيتنى بحساب الدهر ، قال : يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة ، فقال ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال : فظهر الغضب فى وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : يا هارون ولم يقل ياأمير المؤمنين وبلغ مبلغا شديدا ، غير أن الله تعالى عصمه منه ، وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذى أنطق الأعرابي بذلك، فقال له الرشيد : يا أعرابي أن فسرت ماقلت نجوت والا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : ياأمير المؤمنين أعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف ، قال : فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال : مم تضحك ؟ قال : عجبنا منكما إذ لا أدرى أيكما أجهل الذى يستوهب أجلا قد حضر أم الذى يستعجل أجلا لم يحضر ، قال : فهال الرشيد ماسمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال الأعرابي : أما سؤالك عما افترض الله على ، فقد افترض على فرائض كثيرة فقولى لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام . وأما قولى لك عن خمسة : فهى الصلوات . وأما قولى لك عن سبعة عشر : فهى سبعة عشر ركعة . وأما

قولى لك عن أربعة وثلاثين : فهى السجادات . وأما قولى لك عن خمسة
وثمانين : فهى التكبيرات . وأما قولى لك عن واحدة فى طول العمر : فهى
حجة الإسلام واحدة فى طول العمر . كله وأما قولى لك عن واحدة من
أربعين : فهى زكاة الشياه شاة من أربعين ؟ وأما قولى لك خمس من
مائتين : فهى زكاة الورق . قال : فامتلاً الرشيد فرحنا وسرورا من تفسير
هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابى وعظم الأعرابى فى عينه وتبدل
بغضه محبة ، ثم قال الأعرابى : سألتنى فأجبتك وأنا أريد أن أسألك
فأجبنى ، قال : قل فقال الأعرابى : ماتقول فى رجل نظر إلى امرأة وقت
صلاة الفجر فكانت عليه محرمة ، فلما كان وقت الظهر حلت له فلما كان
وقت العصر حرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب حلت له ، فلما كان
وقت العشاء حرمت عليه ، فلما كان وقت الصبح حلت له ، فلما كان
وقت الظهر حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما كان وقت
المغرب حرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء حلت له ؟ فقال : والله يا أبا
العرب لقد أوقعتنى فى بحر لم يخلصنى منه غيرك ، فقال له : أنت خليفة
ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتى
وأنا رجل بدوى لا قدر لى فقال له الرشيد : قد عظم قدرك العلم ورفع
ذكرك ، فاشتهدى إكراماً لى ولهذا المقام تفسير ذلك ، فقال : حبا وكرامة ،
ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولا تنزدرى بالحقير ، فقال :
حبا وكرامة ثم قال : إن قولى لك رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر
فكانت عليه حراما ؛ فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهى حرام
عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان وقت العصر
أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له ، فلما
كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت الفجر راجعها

فحلت له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتق عنها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الاسلام فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الاسلام فحلت له . قال : فأغتبط وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال لاحاجة لى بها ردها إلى أصحابها ، فقال له : أريد أن أجرى لك جراحة تكفيك مدة حياتك ، قال : الذى أجرى عليك يجرى على ، قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك ، قال : لا ولم يقبل منه شيئا ثم أنشد يقول :

هـب الدنيا تواتينا سنينا	فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغى لشيئ ليس يبقى	وأتركه غدا للوارثينا
كأنى بالتراب على يحشى	وبالإخوان حولى ناديينا
ويوم تزفر النيران فيه	وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقي وجلال ربي	لانتقم من منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب	فكيف يكون حال المحرمينا

فلما فرغ من إنشاده ، تأوه وسأله عن أهله وبلاده فأخبره أنه موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام أجمعين^(١) ، وكان يتزيا بزى أعرابى زهدا فى الدنيا ، وتباعدا عنها ، فقام إليه الرشيد وقبل ما بين عينيه ثم قرأ ﴿اللله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين .

(١) موسى الكاظم : سابع الأئمة الاثنى عشر ، عند الإمامية كان من سادات بنى هاشم ومن أعبد أهل زمانه ، وأحد كبار العلماء الأجواد ، ت[١٨٣هـ - ٧٩٩م] . انظر : وفيات الأعيان (١٣١/٢) ، فرق الشيعة ص ٨١ .

[٧٣] وقال السجستاني^(١) : أرق الرشيد ليلة ، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليل^(٢) فأحضرهما وقال : عللاني ، وابدأ أنت يا حسين .

فقال حسين : نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدرًا إلى البصرة معتدًا محمد بن سليمان الزينبي^(٣) بقصيدة ، فقبلها وأمرني بالمقام فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقي ، فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي ، فإذا بجارية كأنها قضيب ينثنى واسعة العينين ، زجاء الحاجبين^(٤) مفتوحة الجبين ، عليها قميص جلناري ، ورداء عدني قد غلب شدة يياض بدنها على حمرة قميصها ،

(١) سهل بن محمد بن عثمان الحشمي ، السجستاني : من كبار العلماء في اللغة والشعر . من أهل البصرة ، كان المبرد يلزمه القراءة عليه . من مصنفاته "المعمرين" ، "الشوق إلى الوطن" ، الفرق بين الآدميين وكل ذي روح" ، ت [٢٤٨هـ = ٨٦٢م] .
انظر : الفهرست لابن النديم (٥٨/١) ، بغية الرعاة ص ٢٥٦ .

(٢) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ، أبو علي : شاعر من تلمذ الخلفاء العباسيين ، وكان يلقب : بالأشقر ، أصله من خرسان . ولده ونشأ في البصرة ، وشعره رفيق عذب . وأنهم أبو نواس بأخذ معانيه في العمر . أخباره كثيرة ، ت [٢٥٠هـ = ٨٦٤م] . انظر : وفيات الأعيان (١٥٤/٢) .

(٣) محمد بن سليمان بن علي العباسي ، أبو عبد الله : أمير البصرة . وليها في أيام المهدي . قال ابن الأثير : كان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان وكور الأهواز وفارس . غُزل سنة [١٦٤هـ] وأعاد الرشيد وزوجه أخته العباسية بنت المهدي [١٧٢هـ] . وكان غنيًا من النبلاء ، ت [١٧٣هـ = ٧٨٩م] . انظر الكامل لابن الأثير (١٧/٦) ، تاريخ بغداد (٢٩١/٥) .

(٤) زجاء الحاجبين : حاجبان رفيقان في طولهما .

تتألاً من تحت القميص بشدين كرماتين ، و بطن كطى القباطى^(١) ،
وعكن^(٢) كالقراطيس ، لها جمعة^(٣) جمعدت^(٤) بالمسك محشوة ، وهى
يأمر المؤمنين متقلدة خرزا^(٥) من الذهب والجوهر يزهر بين نهديها ،
وعلى صحن جبينها طرة كالسبع^(٦) ، وحاجبان مقرونان ، وعينان
نحلاوان^(٧) ، وخدان أسيلان^(٨) ، وأنف أفتى^(٩) تحته ثغر كاللؤلؤ ، وأسنان
كالدر وقد غلب عليها الطيب ، وهى حيرانة ذاهبة فى الدهليز ورائحة
تخطر على أكباد محبيها فى مشيتها وقد خالط أصوات نعلها خلاخلها
فهى كما قال الشاعر فيها:

كل جزء من محاسنها كائن من حسناتها مثلاً

فهيتها يأمر المؤمنين ، ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدهليز
والدار والشارع قد عقب بالمسك ، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر
وقلب حزين حريق مسعر ، فقلت لها : ياسيدتى إني شفيخ غريب أصابنى

(١) القباطى : ثياب من الكتان .

(٢) عكن : ما تننى من لحم البطن .

(٣) جُمَّة : محنم شعر الرأس .

(٤) جَعَدَت : ضد استرسل .

(٥) انخرَزَ : الحَبَّ المنقوب من المعادن ، والزجاج ، وغيرهما ، تُنظَم من قلائد .

(٦) الطرة : شعر الناصية ، لونه أسود كالسبع وهو نوع من الكساء .

(٧) عينان نحلاوان : واسعتان .

(٨) أسيل : أملس .

(٩) أنف أفتى : ارتفع وسط قصبته وضاق منحراه .

عطش أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها ، قالت : إليك عنى يا شيخ ،
فلأنى مشغولة عن الماء وادخار الزاد ، قلت : لأى علة ياسيدتى : قالت :
لأنى عاشقة لمن لاينصفنى وأريد من لايريدنى ، ومع ذلك فلأنى ممتحنة
برقباء^(١) فوق رقباء ، قلت : وهل ياسيدتى على بسطة الأرض من تريدينه
ولايريدك ؟ قالت : نعم ، وذلك لفضل ماركب فيه من الجمال والكمال
والدلال ، قلت : وما وقوفك فى هذا الدهليز ؟ قالت : ههنا طريقه وهذا
أوان احتيازه ، فقلت : ياسيدتى اجتمعتما فى وقت من الأوقات ووجب
حديث فى هذا القرب فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها
كطل^(٢) سقط على ورد ثم أنشأت تقول :

وكنا كفصنى بانه فوق روضة نشم جنى اللذات فى عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع فبما من رأى فردا يحن إلى فرد

قلت : ياهذه فما بلغ من عشقك لهذا الفتى ، قالت : أرى الشمس
على حائطهم أحسب أنها هو وربما أراد بغتة فأبهت ، ويهرب الدم والروح
من جسدى وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، فقلت لها : فاعذرينى
فأنت على مابك من الصبا وشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف
القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة ، فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت
مفتنة فى أرض البصرة ، قالت : والله قبل محبتى هذا الغلام كنت تحفة
الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة ، حتى فتنتى هذا
الغلام .

(١) رقباء ، جمع رقيب : الحارس .

(٢) الطل : الندى

قلت : ياهذه فما الذى فرق بينكما ؟ قالت : نرائب الدهر ،
ولحديثي وحديثه شأن من الشئون وذلك أنى كنت قعدت فى يوم نيروز^(١)
ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الحميلات ، وكانت فيهن
الحوراء جارية شيراز ، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم ،
وكانت بى ولعة^(٢) ، فلما دخلت رمت نفسها على تقطعنى قرصا وعضا ،
ثم خلونا نتمرن القهوة^(٣) إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا ، وكانت
تلاعبنى وألاعبها فتارة أنا فوقها وتارة هى فوقى ، فحملها السكر إلى أن
ضربت يدها إلى تكتى^(٤) فحلتها من غير رية كانت بينا ونزلت سراويلي
ملاعة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبي فرأى ذلك فاشمأز لذلك
وصدف^(٥) عنى صدوف المهرة العربية إذ سمعت صلاصل لحامها فولى
خارجا ، فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسأل جمعيته ، فلا ينظر إلى بطرف
ولا يكتب لى بحرف ، ولا يكلم لى رسولا ولا يسمع مني قليلا ، فقلت لها :
ياهذه من العرب هو أم من العجم ؟ فقالت : ويحك هو من جملة ملوك
البصرة ، فقلت لها : شيخ هو أم شاب ؛ فنظرت إلى شزراً^(٦) . وقالت :

(١) نيروز : يوم الفرح .

(٢) ولعة : متعلقة به من شدة الحب .

(٣) نتمرن القهوة : تناول شرب الخمر ، قيل : سميت بذلك لأن شاربها يثقى عن
الطعام ، أى تقل شهرته .

(٤) التكتى : رباط السراويل ، جمعها تكتك .

(٥) صدَفَ : أعرض وانصرف .

(٦) شَزَرَ : نظرت إليه بحانب عينها مع إعراض .

إنك أحمق هو مثل القمر ليلة البدر أجرد^(١) أمرد^(٢) له طرة كحلحك الغراب^(٣)، لا يعيبه شيء غير انحرافه عنى ، قلت لها : ما اسمه قالت : ماذا تصنع به ؟ قلت : أجتهد فى لقائه فأتعرف الفصل بينكما ، قالت : على شرط أن تحمل إليه رقعة ، قلت : لا أكره ذلك .

فقلت : اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبى السخاء ، وقصره بالمربد ، ثم صاحت فى الدار يا حواري الدواة والقرطاس ، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من ففته وكتبت بعد البسملة سيدى ترك الدعاء فى صدر رقعتى ينبئ عن تقصيرى ودعائى أن دعوته هجنة^(٢) ورعونة^(٤) ولولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب ، سيدى جد بنظرة وقت اجتيازك فى الشارع إلى الدهليز^(٥) تحيى بها نفسا ميتة ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة ، واجعلها عوضا عن تلك الخاوات التى كانت بيننا فى الليالى الخاليات التى أنت ذاكر لها ، سيدى ألسنت لك محبة مدنفه ، فإن رجعت إلى -الآيسة- كنت لك شاكرة ، وبعد خادمة والسلام .

(١) أجرد : الخالى من الشعر ، جمعها جرد .

(٢) أمرد : الشاب طرُّ شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعها مرد .

(٣) حلك : شديدة السواد .

(٢) الهُجْنَةُ من الكلام : العيب والقبح .

(٤) الرُّعُونَةُ : الحمق .

(٥) الدِيلِيز : ما بين الباب والدار : المسلك الطويل الضيق ، وجمعها دهاليز .

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان ، فوجدت مجلسا محتفلا بالملوك ورأيت غلاما زان المجلس وفاق على من فيه جمالا وبهجة قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة ، فقلت فى نفسى: بالحقيقة حل بالمسكينة ساحل بها ، ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره فإذا هو قد ورد فى موكب ، فوثبت إليه وبالغت فى الدعاء له وناولته الرقعة ؛ فلما قرأها وفهم معناها ، قال : ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك أن تنظر إلى البديل ، قلت: نعم فصاح فى الدار اخرجوا إلى المربد ، فإذا أنا بحارية : خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل من غير وحل^(١) ، فناولها الرقعة وقال : أحببى عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرقت وقالت : ياشيخ استغفرالله مما جئت به .

فخرجت يأمرير المؤمنين وأنا أحر رجلى ، حتى أتيتها واستأذنت عليها ، فقالت : ما وراءك ؟ فقلت : البوس والبأس ، فقالت : ماعليك منه فأين الله والقدر ، ثم أمرت لى بخمسمائة دينار، ثم جزت بعد أيام بياها فوجدت غلامانا وفرسانا ، فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه ، فقالت : لا والله لانظرت له وجهها ، فسجدت لله يأمرير المؤمنين شماتة بضمرة ونفرتة من الحارية فاوردت على منه رقعة فإذا فيها بعد التسمية : سيدتى لولا إبقائى عليك أدام الله حياتك لوصف شطرا من غدرك ، وبسطت شطر غبنى^(٢) عليك ، وسلكت ظلامتى فيك ، إذ كنت الحانية على نفسك ونفسى ، والمظهرة لسوء العهد ، وقلة الوفاء والمؤثرة

(١) الرَّحْل : الطين الرقيق ، ومشية مستوحل أى : مشية يحذر وتردد .

(٢) الغبن : العديعة .

علينا غيرنا ، فخالفت هواى ، والله المستعان على ماكان من سوء اختيارك والسلام .

وأوقفتنى على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة ، فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ، ثم رأيته بعد ذلك وقد تزوج بها ضمرة . فقال الرشيد : لولا أن ضمرة سبقنى إليها لكان لها معى شأن من الشئون ، انتهى .

[٧٤] وحكى مسرور الخادم قال : أرق الرشيد أرقا شديدا ليلة من الليالى ، فقال : يامسرور من على الباب من الشعراء ، فخرجت إلى الدهليز فوجدت : جميل بن معمر العذرى ، فقلت : أحب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فدخلت ودخل معى إلى أن صار يسن يدى هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة ، فرد عليه وأمره بالجلوس ، فقال له الرشيد : يا جميل أعندك شىء من الأحاديث العجبية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أيما أحب إليك ما عاينته ورأيت ، أو ما سمعته ووعيته ؟ فقال : بل حدثنى عما عاينته ورأيت .

فقال : نعم يا أمير المؤمنين أقبل على بكلك واصنع إلى بأذنك ، قال : فقصد الرشيد إلى مخدة من الدياج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش النعام ، فجعلها تحت فخذيه ، ثم مكن منها مرفقيه ، وقال : هلم بحديثك .

فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أنى كنت مفتونا بفتاة محبا لها ، وكنت ألفها إذ هى سولى وبغيتى من الدنيا ، وأن أهلها رحلوا بها لقلبة المرعى ، فأقمت مدة لم أرها ، ثم إن الشوق أقلقنى وجذبنى إليها ، فراودتنى نفسى

بالمسير إليها ؛ فلما كانت ذات ليلة من الليالي هزنى الوجد إليها فقامت
وشددت رحليّ على ناقتي ، واعتممت بعمتي ، ولبست أطماري^(١) ،
وتقلدت بسيفي ، وتنكبت حجفتي^(٢) ، وركبت ناقتي ، وخرجت طالبا
لها ، وكنت أحد في السير ؛ فسرت وكانت ليلة مظلمة مذلّمة^(٣) ، وأنا مع
ذلك أكابد هبوط الأودية ، وصعود الجبال ، وأسمع زئير الآساد وعواء
الذئاب ، وأصوات الوحوش من كل جانب ؛ وقد ذهّل عقلي وطاش لبي ،
ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعالى .

فبينما أنا أسير كذلك ، إذ غلبني النوم فأخذت بي الناقة على
غير الطريق التي كنت فيها وزاد على النوم وإذ أنا بشيء لطمني على
رأسي ، فانتبهت فرعا مرعوبا ، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على
تلك الأغصان تترنم^(٤) بلغاتها وألحانها وأشجار تلك المروج^(٥) مشتبكة
بعضها ببعض ، فنزلت عن ناقتي ، وأخذت زمامها بيدي ولم أزل أتلفظ
بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة^(٦) ،
وفأصلحت كورها^(٧) ، واستويت راكبا على ظهرها ، ولا أدري إلى أين

(١) الأطمار : الثياب .

(٢) تنكبت حجفتي ، أي لبستها على منكبي ، والحجفة : الترس من الحديد بلا خشب .

(٣) مذلّمة : شديدة السواد .

(٤) تترنم : تطرب .

(٥) المروج : الأرض الواسعة فيها نبت كثير .

(٦) الفلاة : الصحراء الواسعة .

(٧) الكور : رَحْل البعير .

أذهب ولا إلى ماتسوقنى الأقدار ، فمددت نظرى فى تلك البرية فلاحت لى نار فى صدرها ، فوكزت ناقتى وسرت طالبا إلى أن وصلت إلى تلك النار فقربت منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ، ورمح مركزوز ، وراية قائمة ، وخيل واقفة ، وإبل سائمة ، فقلت فى نفسى : يوشك أن يكون لهذا الخباء شان عظيم ؛ فإنى لأرى فى هذه البرية سواه .

ثم تقدمت خلف الخباء وقلت : السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته ، فخرج إلى من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر كأنه البدر إذا أشرق والشجاعة لائحة بين عينيه فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أخا العرب إنى أظنك ضالا عن الطريق . فقلت : الأمر كذلك ، أرشدنى يرحمك الله تعالى ، فقال : يا أخا العرب إن أرضنا هذه مسبعة ، وهذه الليلة مظلمة موحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك ، فانزل عندى على الرحب والسعة ، فإذا كان الغد ارشدتك إلى الطريق ، قال : فنزلت عن ناقتى وعقلتها بفاضل زمامها ، ونزعت ماكان على من أطمار ، وجلست ساعة ، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاه فذبحها وإلى نار فأضرمها وأحجمها ، ثم دخل الخباء وأخرج أبزاراً^(١) ناعمة ، ولحما مطبياً ، وأقبل يقطع من اللحم ويشوى على النار ويطعمنى ويتنهد تارة ويكى تارة أخرى ، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديداً وأنشد يقول :

ومقلة إنسانها باهت

ولم يبق إلا نفس خافت

إلا وفيه سقم ثابت

لم يبق فى أعضائه مفصل

(١) أبزار : الثياب .

فدمعه جار وأحشاؤه توقد إلا أنه ساكت
تبكى له أعداؤه رحمة ياويح من يرثى له الشامت

قال جميل : فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلا من ذاق طعم الهوى ، فقلت فى نفسى : أنا فى منزل الرجل وأتهجم عليه فى السؤال فردعت نفسى : وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية ؛ فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء ، وأخرج طستاً نظيفاً وإبريقاً حسناً ومنديلاً من الحرير أطرافه مزركشه بالذهب الأحمر وقمقماً مملوء من الماورد الممسك ، قال: فتعجبت من ظرفه ورقه حاشيته ، وقلت فى نفسى : ما أغرب الظرف فى البادية ، ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة ، ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بينى وبينه بمقطع من الدياج الأحمر ، ثم خرج وقال : ادخل ياوجه العرب وخذ مضجعتك ، فقد لحقتك فى هذه الليلة تعب وفى سفرك هذا نصب مفرط .

قال جميل : فدخلت فإذا أنا بفراش من الدياج الأخضر ، فعند ذلك نزع ما كان على من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمري مثلها ، فلم أزل كذلك وأنا متفكر فى أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون ، فلم أشعر إلا بحس خفى لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية فرفعت سجاف المضرب ونظرت ، فإذا أنا بصبيه لم أر أحسن منها وجهها وهى إلى جانبه وهما يكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والحوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقى. فقلت : يالله العجب من هذا الشخص الثانى، وهذا بيت فرد فىلانى لم أر فيه غير هذا الفتى وليس حوله أحد ، ثم قلت فى نفسى : لاشك أن هذه الحارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام وقد تفرد بها فى هذا المكان

وتفردت به فحققتها ، فإذا هي إنسية عربية إذا رمقت^(١) تحجل الشمس المضيئة ، وقد أضاء الخباء من نور وجهها ، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتني الغيرة على الحب ، فأرخيت الستر وغطيت وجهي ونمت. فلما أصبحت ، لبست ثيابي وتوضأت لصلاتي وصليت ما كان على من الفرض، ثم قلت له: يا أخا العرب هل لك أن ترشدني إلى الطريق فقد تفضلت عليّ فنظر إليّ وقال : على رسلك يا وجه العرب ، الضيافة ثلاثة ، وما كنت بالذي يدعك إلا لثلاثة أيام ، قال جميل : فأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه، فقال: أما نسبي فأنا من بني عذرة^(٢) ، وأنا فلان بن فلان ، وعمي فلان ، فإذا هو ابن عمي يا أمير المؤمنين ، وهو من أشرف بيت في بني عذرة ، قال: فقلت يا ابن العم : ما حملك على ما أراه منك من الانفراد في هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك في هذا المكان، فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامي ، تغرغرت عيناه بالبكاء ، ثم قال : يا ابن العم إنني كنت محبا لابنة عمي مفتونا بها ، هائما بحبها ، مجنوناً عليها، لأطيق الفراق عنها ، فزاد عشقي لها فخطبتها من عمي فأبى أن يزوجنيها، وزوجها من رجل من بني عذرة ، ودخل بها وأخذها إلى المحلة التي هو فيها من العام الأول ، فلما بعدت عني ، وحجبت عن النظر إليها حملتني لوعات الهوى ، وشدة الشوق والحرى على تركي أهلي

(١) رمقت : أدام النظر .

(٢) عُدْرة : قبيلة عربية من قضاة إليها يُنسب الحب العذري المشهور بشدة العشق والعفة.

ومفارقتى عشيرتى وخلانى ، وجميع أمتعتى وانفردت بهذا البيت فى هذه البرية ، وألفت وحدتى . فقلت : وأين أياتهم ؟ قال: هم قريب فى ذروة هذا الجبل ، وفى كل ليلة ، عند نوم العيون وهدير من الليل ، تنسل من الحى سراً ، بحيث لا يشعر بها أحد ، فأقضى منها بالحديث وطراً وتقضى هى كذلك ، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، أو يأتينى الأمر على رغم الحاسدين أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين .

قال جميل: فلما حدثنى الغلام يأمرير المؤمنين ، غمنى أمره ، وصرت من ذلك فى حيرة لما أصابنى عليه من الغيرة . فقلت له : يا ابن العم هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك ، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشd والنجاح، وبها يفرج الله عنك الذى تخشاه ، فقال لى : قل يا ابن العم ، فقلت له : إذا كان الليل وجاءت الحارية فاطرحها على نائتى فإنها سريعة الرواح واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم برارى وقفارا ، وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبة قلبك وأرض الله واسمع فضاهـا، وأنا والله مساعدك ماحيت بروحى ومالى وسيفى . فلما سمع ذلك، قال : يا ابن العم حتى أشاورها فى ذلك فإنها عاقلة لبيئة بصيرة بالأمر .

قال جميل : فلما جن الليل وحان وقت مجيئها ، وهو منتظر الوقت المعلوم أبطأت عن عاداتها ، فرأيت الفتى وقد خرج من باب العباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التى تهب من نحوها وأنشد يقول :

ريح الصبا تهدي إلى نسيم
من بلدة فيها الحبيب مقيم
ياريح فيك من الحبيب علاقة
أفتعلمين متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية وهو يبكي ، ثم قال لى : يا ابن العم إن لبنت عمى فى هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عنى عائق، ثم قال لى : كن مكانك حتى آتيك بالخبر ، ثم أخذ سيفه وحجفته^(١) ، ثم غاب عنى ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شىء يحمله ، ثم صاح إلى فأسرعت إليه ، فقال : أتدرى يا ابن العم ما الخبر ؟ فقلت : لا والله ، فقال : فجئت فى ابنة عمى فى هذه الليلة ، لأنها كانت ترجعت إلينا كعادتها ، إذ عرض لها فى طريقها أسد فافترسها ، ولم يبق منها إلا ماترى ، ثم إنه طرح ماكان على يده فإذا هو : مشاش^(٢) الحارية وما فضل من عظامها ، ثم بكى بكاء شديدا ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده ، ثم قال لى : لاتبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى ، ثم سار فغاب عنى ساعة ، ثم عاد ويده رأس الأسد فطرحه عن يده ، ثم طلب ماء فآتته به ، فغسل فم الأسد ، وجعل يقبله ويبكى ويئن وزاد حزنه عليها ، وأنشد يقول :

ألا أيها الليث المغر بنفسه هلكت لقد هيئت لى بعدها شحنا
وصيرتنى فردا وقد كنت ألفها وصيرت بطن الأرض لى ولها وطنا
أقول لدهرٍ خاننى بفراقها وغار عليها أن أكون لها حزنا

ثم قال : يا ابن العم سألتك بالله ، وبحق القرابة ، والرحم التى بينى وبينك ألا حفظت وصيتى : إنك سترانى الساعة ميتا بين يديك ، فإذا كان

(١) الحجفة : الترس من الحلد بلا خشب ، وجمعها ححف .

(٢) المشاش : رؤوس العظام .

كذلك فغسلنى وكفنى أنا وهذا الفاضل من مشاش الحارية فى هذا الشوب
وادفنا فى قبر وآحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات ، وأنشد يقول :

كنا على ظهرها والعيش فى رغد والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرق الدهر والتصريف ألفتنا وصار يجمعنا فى بطنها الكفن

قال : ثم بكى بكاء شديدا ، ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة ،
وخرج وجعل يتهدد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا ، فلما رأيت ذلك
منه عظم على وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزنى عليه ، ثم
تقدمت إليه وفعلت به ما أمرنى : من الغسل وكفنتهما جميعا ، ودفنتهما
فى قبر واحد ، وأقمت على قبرهما ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت ، وأقمت سنين
أتردد إلى زيارتهما ، وهذا ما كان من حديثهما يا أمير المؤمنين . قال :
فلما سمع الرشيد كلامه : استحسنة وخلع عليه وأجازة جائزة حسنة ، والله
أعلم.

حكاية أجنبية

[٧٥] قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى^(١) : بينما أنا ذات يوم فى
منزلى ، وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمت الأمطار بقطر

(١) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلى ، أبو محمد النديم : من أشهر ندماء الخلفاء ،
تفرد بصناعة الغناء ، فكان عالماً باللغة ، والموسيقى ، والتاريخ ، راوياً للشعر حافظاً
للأخبار ، نادم الرشيد والمأمون ، والوائق . ولما مات نُعى إلى المتوكل ، فقال :
ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ت [٢٣٥هـ - ٨٥٠م] . انظر :
وفيات الأعيان (٦٥/١) الفهرست (١٤٠/١) .

كأفواه القرب وامتنع الغادى والمقبل من المسير فى الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل ، وأنا ضيق الصدر ، إذلم يأتنى أحد من إخوانى ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين ، فقلت لغلامى : أحضرلى ما أتشغل به فأحضر لى طعاما وشرابا ، فتنغصت إذلم يكن معنى من يؤانسنى ولم أزل أتطلع من الطاقات وأراقب الطرقات ، وأقبل الليل فتذكرت جارية لبعض أولاد المهدي كنت أهواها ، وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى ، فقلت فى نفسى : لو كانت الليلة عندنا ، لثم سرورى وطالت ليلتى مما أنا فيه من الفكر والقلق ، وإذا بداق يدق الباب وهر يقول : أيدخل محبوب على الباب واقف ؟

فقلت فى نفسى : لعل غرس التمنى أثمر ، فقممت إلى الباب ، فإذا بصاحبتى وعليها مرط^(١) أخضر ، قد اتشحت به ، وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر ، وقد غرقت فى الطين إلى ركبته ، وابتل ما عليها من المزاريب وهى فى حال عجيب . فقلت لها : ياسيدتى ما الذى أتى بك فى مثل هذه الأرواح ؟ فقالت : قاصدك جاءنى ووصف كما عندك من الصبابة والشوق ، فلم يسعنى إلا الإجابة والإسراع نحوك . فعجبت من ذلك ، وكرهت أن أقول لها إنى لم أرسل إليك أحدا ، فقلت : الحمد لله على جمع الشمل بعدما قاسيت من ألم الصبر ، ولو كنت أبطأت على ساعة : كنت أحق بالسعى إليك ، فإنى كثير الصبابة نحوك . ثم قلت لغلامى : هات الماء ، فأقبل بسخانة فيها ماء حار حتى أصلح لها حالها ، ثم أمرته أن يصب الماء على رجليها ، وتولبت غسلهما ثم دعوت ببدلة من

(١) ميرط : كساء من صوف يؤتزر به .

أفخر الملبوس فألبستها إياها بعد أن نزعته ما كان عليها وجلسنا ، ثم استدعيت بالطعام فأبت ، فقلت : هل لك فى الشراب ؟ فقالت : نعم فتناولت أقداحا ، ثم قالت : من يغنى لى ؟ فقلت لها : أنا ياسيدتى ، فقالت : لا أحب ، فقلت : بعض حوارى ، قالت : لا أريد ، فقلت : غنى لنفسك ، قالت : ولا أنا ، قلت : فمن يغنيك ؟ قالت : التمس من يغنى لى ، فخرجت طاعة لها ، إلا أنى آيس من أن أحد أحدا فى مثل هذا الوقت ، فلم أزل حتى بلغت الشارع ، فإذا أنا بأعمى يخبط بعصا ، وهو يقول : لا جزى الله من كنت عندهم خيرا ، إن غنيت لم يسمعوا وإن سكنت استخفوا بى . فقلت : أمغن أنت ؟ قال : نعم ، قلت : فهل لك أن تتم ليلتك عندنا ، وتؤانسنا ؟ قال : إن شئت خذ بيدى ، فأخذت بيده وسرت إلى الدار ، وقلت لها : يا سيدتى أتيت بمغن أعمى نلتذ به ولايرانا ، فقالت : علىّ به فأدخلته وعزمت عليه فى الطعام ، فأكل أكلا لطيفا ، وغسل يده وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قال لى : من تكون ؟ قلت : إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال : لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمنادمتك ، فقلت : ياسيدى فرحت بمن يسرك ، فقال : غن يا إسحاق فأخذت العود على سبيل المحزون ، وقلت : السمع والطاعة ؛ فلما غنيت وانقضى الصوت ، قال : يا إسحاق قاربت أن تكون مغنيا ، فصغرت علىّ نفسى وألقيت العود من يدي ، فقال : ما عندك من يحسن الغناء ؟ قلت : عندى جارية قال : مرها فلتغن قلت : تغنى وأنت واثق بغنائها ، قال : نعم ، فغننت ، قال : ما صنعت شيئا فرمت العود من يدها مغضبة ، وقالت : الذى عندنا جدنا به ، فإن كان عندك شيء فتصدق به ، فقال : علىّ بعود لم تمسه يد ، فأمرت الخادم فجاء بعود جديد فضرب فى طريقة لا أعرفها واندفع يغنى هذه الأبيات :

سرى يقطع الظلماء والليل عاكف
وما راعنا إلا السلام وقولها
حبيب بأوقات الزيارة عارف
أيدخل محبوب على الباب واقف

قال : فنظرت إلى الحارية بشزرا ، وقالت : سرّ بيني وبينك ماوسعه
صدرك ساعة وأودعته لهذا الرجل ، فحلفت لها ثم اعتذرت إليها وأخذت
أقبل يديها ، وأدغدغ ثدييها ، وأعض خديها ، حتى ضحكت ثم التفت إلى
الأعمى وقلت : غن ياسهدي فأخذ العود وغنى هذه الأبيات :

ألا ربما زرت الملاح وربما
لمست بكفى البنان المخضبا
ودغدغت رمان الصدور ولم أزل
أعضض تفاح الحدود المكتبا

فقلت لها : ياسيدتى فمن أعلمه بما نحن فيه ؟ قالت : صدقت ثم
تجنبناه ، فقال : إني لحاقن^(١) . فقلت : يا غلام خذ الشمعة وامض بين يديه ،
فخرج وأبطأ فخرجنا فى طلبه ، فلم نجده ، وإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح
فى الخزانة ، فلا ندرى أفى السماء صعد أم فى الأرض هبط ، ثم علمت أنه
إبليس وأنه قاد لى ثم انصرف ، فتذكرت قول أبى نواس حيث قال :

عجبت من إبليس فى كبره
وخبث ما أضمر فى نيته
ناه على آدم فى سجدة
وصار قوادا لذريته

[٧٦] ونظير ذلك مما يستظرف لأبى نواس ، ماحكى عنه أنه قال :

ضجرت من ملازمة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، حتى أنى لم أجد فراغا
إلى نفسى ، فتوجه أمير المؤمنين إلى الصرح ليبيت فيه ثم يعود ، فوجدت
لروحى فرصة ، فدخلت دارى وأغلقت بابى وأحضرت شرابا وطلبت

(١) حَاقِن : من حقن بوله واشتد عليه .

نفسى الخلوة ، فعند المساء وإذا بالباب يطرق، فخرجت وإذا أنا بظبى من أولاد الأتراك^(١)، ما رأت عيني أحسن منه منظرا فسلم على، وقال لى : أتقبل ضيفا ؟ قلت : ياسيدى ومن لى بذلك ، فدخل بيتى فحار عقلى عند دخوله ، ثم أخرج من تحت ثيابه سلاحية شراب ونقل^(٢) وشيئا من الدجاج، ثم شرب وغنى شيئا لم أسمعه من غيره ، وقضيت مرادى منه مرارا، إلى أن مضى وقت من الليل ، وقد هام عقلى من الشراب ومن حسنه ومن تسيلم نفسه إلى بغير تقديم عوض .

ثم قال : ياسيدى أريد الانصراف ، فقلت له : ياسيدى متى خرجت أنت ، خرجت روحى من جسدى ، وكل شيء أملكه بين يديك ، وأنا أصير عبدك بعد هذا اليوم ، ولا أفارقك ، قال : أصحيح ماتقول ؟ قلت : نعم ، قال : أنا محتاج إلى مالك ، وإن كنت صادقا فيما ادعيت من محبتك لى ، قم واحلق لحيتك وشاربك واقعد مثلى أمرد ، قال فحكم على السكر والعشق ، فما قدرت أن أخالفه فأجبتة إلى ذلك على أنه يبيت عندى ، فعمد إلى موسى وبل لحيتى وفى الحال أنزلها وبقيت مثله أمرد ؛ ثم صار يضحك على ، وقال : يا أبا نواس كيف الشعر الذى ذكرت فيه آدم وإبليس فأنشدته قائلا :

عجبت من إبليس فى كبره	وخبث ما أضمر فى نيتيه
تاه على آدم فى سحده	وصار قوادا لذريتيه

(١) ظبى من أولاد الأتراك : يقصد به غلام جميل الصورة .

(٢) النقل : هو ما يؤكل على الشراب كالفسق والتفاح .

ثم ضحكك ضحكا عاليا وصك على ساحل قفاى صكا مزعجا
فاغتظت منه ؛ ثم قلت له : ويلك أتفعل بى هكذا ، ثم أردت التطلع إليه
فما وجدت أحدا يحيينى، فقلت : إنه الملعون إبليس ، انتهى.

[٧٧] وقال بعضهم :

قد جاءنى ليلا أبو مرة	إبليس يدعونى بلا ترجمان
وقال لى هل لك فى أمرد	يهز من أعطافه غصن بان
قلت نعم قال وفى خمرة	حبابها يحكى عقود الحمان
قلت نعم قال فثم أما	أنت رئيس الفسق هذا الزمان

[٧٨] وقال أبو نواس :

وليلة طال سهادى بها	فزارنى إبليس عند الرقاد
وقال لى هل لك فى قحبة	ليبة تطرد عنك الرقاد ^(١)
قلت نعم قال وفى قهوة	عتقها العاصر من عهد عاد
قلت نعم قال وفى مطرب	إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت نعم قال وفى شادن	قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت نعم قال وفى طفلة	فى وجتها للمحب انقياد
قلت نعم قال فثم أما	يا كعبة الفسق وركن الفساد

[٧٩] وقال زين الدين عمر بن الوردى^(٢) معارضا لذلك :

(١) قحبة : المرأة البغى .

(٢) زين الدين عمر بن الوردى : مؤرخ ، وشاعر . ولى قضاء منبج بالشام . له "نصيحة

الإخوان" المعروفة بـ "لامية ابن الوردى" . ت[٧٤٨هـ-١٣٤٨م] .

نمت وإبليس أتى	بحيله متدبسه
فقال ما قولك فى	حشيشه متخبسه
فقلت لا قال ولا	خمرة كرم مذهبه
فقلت لا قال ولا	ملحه مطيبه
فقلت لا قال ولا	أغيد بالبدر اشتبه ^(١)
فقلت لا قال ولا	آله لهر مطربه
فقلت لا قال فتم	ما أنت إلا حطبه

[٨٠] و[قيل] : حضر أبو نواس عند الرشيد ليلة أنس ، وكان أبو طوق حاضرا ، وكان أبو نواس مشغوبا بحسنه وجماله ، فلما انقضى المجلس : أخذ كل واحد مضجعا للنوم ، فخاف الخليفة من أبى نواس على أبى طوق ، فقال الخليفة لأبى طوق : نم أنت على السرير ، وقال لأبى نواس : أنا أنا وأنت أسفل السرير ، فقال : سمعاً وطاعة وهو بذلك غير راض فى نفسه ؛ وتغافل الخليفة عن أبى نواس ، وأظهر النوم ، ثم انتبه فوجد أبا نواس فوق السرير بحنب أبى طوق يضمه ويعانقه ، فقال : ما هذا يا أبا نواس ؟ فقال :

هزنى الشوق من أحل أبى طوق فتدحرجت من أسفل إلى فوق

فقال له : قاتلك الله ، انتهى من حلبة الكميت .

(١) أغيد : الغلام يتمايل فى مشيته .

[٨١] ومن غريب ما يحكى ماحكاه القاضى أبو الحسن التتوخى^(١)

فى كتاب الفرج بعد الشدة : أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد ، قال : رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية ، عظيم المال ، كثير الجاه ، مطاع فى البلد له ، جماعة وأولاد وممالك يركبون الخيل ويحملون السلاح ، ويفزون الروم ، وأنه سمح جواد ، كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه . فعظم ذلك على الرشيد . قال منارة : وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة فى بعض حججه فى سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم ، أولاده ؛ فدعاني وهو خال وقال : إني دعوتك لأمر يهمنى وقد منعنى النوم فانظر كيف يكون : ثم قص على خبر الأموى وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول ، وأزحت علتك فى الزاد والنفقة والآله ، ونضم إليك مائة ، واسلك البرية ، وهذا كتابى إلى نائب دمشق ، وهذه قيود فابدأ بالرجل فإن سمع وأطاع فقيده وجئني به ، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب ، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعدا لك ، واقبضا عليه وجئني به ، وأجلت لذهابك ستا وإليابك ستا ، ويوما لمقامك ، وهذا محمل تجعله فى شقة منه إذا قيدته ، وتقعده أنت فى الشقة الأخرى ، ولا تكل حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به فى الثالث عشر يوما من خروجك ؛ فإذا دخلت داره ، فتفقدوها وجميع ما فيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه ، وقدر نعمته ، والحال والمحل ، واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف من

(١) أبو الحسن التتوخى : القاضى ، الأديب ، الشاعر . تعلم على الصولى ، وأبى الفرج

الأصبهاني . تولى القضاء فى بغداد وتوفى بها ت [٣٨٤هـ - ٩٩٤] .

ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتيني به ، وإياك أن يشكلك عليك شيء من أمره ، انطلق .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوى المنازل، أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين ، والبول وتنفيس الناس قليلا إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طروقها ليلا ، فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد . فدخلت حتى أتيت باب الرجل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستاذن ودخلت بغير إذن ؛ فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني، فقال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم قال فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلسا رأيت فيه قوما جلوسا ، فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بي فقلت : أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولاده ، وهو في الحمام ، فقلت : استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله ، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها مساحت بأهلها مرجا كبيرا ، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه ، واشتد قلقي وخوفي من أن يتواري إلى أن رأيت شخصا بزي الحمام يمشى في صحن الدار ، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلماؤه ، فقلت : إنه الرجل فجاء وجلس وسلم علي سلاما خفيفا وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة حضرته ، فأخبرته بما وجب وماقضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدم يامنارة وكل معنا فقلت مالى إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودنى فاكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام ، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة ، فقال : يامنارة ساعدنا

على الأكل ، لا يزيد على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة ، فامتنعت عليه فما عاودنى ، فأكل هو ومن معه وكانوا تسعة من أولاده . فتأملت أكله فى نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن ، ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من يديه قد وضع على المائدة إلتهاً غيره حالا أعظم وأحسن منه ، وقد كان غلماناه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالى وغلمانى وعدلوا بهم إلى دار أخرى ، فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدى وليس بين يدى إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسى ، فقلت فى نفسى: هذا جبار عنيد ، فإن امتنع من الشخصوس ، لم أطق إشخاصه بنفسى ولا بمن معى ولا أحفظ إلا أن يلحقنى أمير البلد وجزعت جزعا شديدا ، ورأيت منه استخفافه وتهاونه بأمرى ، يدعونى باسمى ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ، ولا يسأل عما جئت ، ويأكل مطمئنا ، وأنا مفكر فى ذلك .

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبحور فتبخر ، وقام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال ، ورأيت صلاته حسنة فلما انتقل من المحراب أقبل على ، وقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ، ودفعته إليه ففضه وقراه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته ، فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، فلما تكاملوا ، ابتداء فحلف أيمانا غليظة فيها : الطلاق ، والعناق ، والحج ، والصدقة ، والوقف ، أن لا يجتمع اثنان فى موضع واحد ، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولا يظهروا إلى أن يكشف لهم أمرا يعتمدون عليه ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمصير إليه ، ولست أقيم بعد نظرى فيه ساعة

واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحريم ، خيرا ومالى حاجة أن يصحبني أحد منكم هات قيودك يامنارة فدعوت بها وكانت فى سفظ^(١) ومد يده فقيدته وأمرت غلمانى بحمله ، حتى صار فى المحمل وركبت فى الشق الآخر ، وسرت من وقتى ولم ألاق أمير البلد ولا غيره .

وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة ، فقال لى : أترى هذا ؟ قلت : نعم قال : إنه لى وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال : مثل ذلك ، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى ، فقال : مثل هذا لى ، فاشتد غيظى منه، وقلت : ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أهما أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولذك ، وأخرجك فريدا مقيدا مغلولا ، ماتدرى إلى ما يصير إليه أمرك، ولا كيف يكون ، وأنت فارغ القلب من هذا ، حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكير ، لقد كنت عندى شيخا فاضلا .

فقال لى محببا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخطأت فراستى فيك، لقد ظننت أنك رجل كامل العقل ، وأنت ما أحللت من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوك به ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام والله المستعان ، أما قولك فى أمير المؤمنين ، وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتي هذه ، فإنى على ثقة من الله عز وجل الذى بيده ناصية أمير المؤمنين

(١) السفظ : وعاء كالقفة أو الحوالب .

ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بأذن الله عز وجل ، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى وعرف سلامتى وصلاح نيتى سرحنى مكرما ، فإن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فى وتقولوا على الأقاويل ولم يستحل دمنى ويخرج من إيذائى وإزعاجى ويردنى مكرما ويقمنى ببلاده معظما مبجلا وإن كان قد سبق فى علم الله عز وجل أنه يبدو لى منه سوء ، وقد اقترب أجلى وكان سفك دمنى على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عنى ما استطاعوا ، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإنى أحسن الظن بالله الذى خلق ورزق وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا ، فإذا قد عرفت مبلغ فهمك ، فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة ، حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ثم أعرض عنى فما سمعت منه لفظة غير : القرآن والتسبيح ، أو طلب ماء ، أو حاجة ، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر ، والنحب^(١) قد استقبلتنى قبل ستة فراسخ من الكوفة يتحسسون خبرى ، فحين رأونى رجعوا عنى متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين ، فأنتهيت إلى الباب فى آخر النهار ، فحططت رحلى على الرشيد ، وقبلت الأرض بين يديه . ووقفت . فقال : هات ما عندك يامنارة وإياك أن تغفل عن لفظة واحدة ، فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثتنى به نفسى من امتناعه ، والغضب يظهر فى وجه أمير المؤمنين

(١) النحب : الشجر ، وكنى بها عن الحراسيس لأنهم يختبئون ورائها .

ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاته إلى وسوالة عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجله فقيدته ، فما زال وجه الرشيد يسفر ؛ فلما انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل ، فقال : صدق و الله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمري لقد أزعجناه ، وأذيناه ، ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وأتني به .

قال : فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد ، فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يحول في وجه الرشيد ، فدنا الأمور وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد ردا جميلا وأمره بالجلوس ، فجلس وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضل هيئة وأموراً حبينا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فاذا ذكر حاجتك ، فأجاب الأمور : جوابا جميلا وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة ، فقال : مقضية ، فما هي ؟ قال : يا أمير المؤمنين تردني إلى بلدي وأهلي وولدي ، قال : نفعل ذلك ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك ، فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شيء من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين عمالك منصفون وقد استغفيت بعدلهم عن مسألتى ، فأمرى مستقيمة ، وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : انصرف محفوظا إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك ، فودعه الأمور ، فلما ولى خارجا ، قال الرشيد : يامنارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما سيرته ، حتى إذا وصلت إلى مجلسه

الذى أخذته منه فودعه وانصرف. قال منارة : فمازلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطاني عطاء جزيلًا وانصرفت ، والله أعلم وهذه الحكاية على سبيل الاختصار^(١) .

[٨٢] وحكى : أن الخليفة هارون الرشيد قلق في بعض الليالي قلقًا شديدًا، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي ، وقال له : ياوزيرى إن صدرى ضيق ، ومرادى الليلة التفرج فى شوارع بغداد ، وننظر فى مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ، ونترى بزي التجار الأكياس ، فقال له الوزير : السمع والطاعة فقاموا فى الوقت والساعة ، وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار؛ الخليفة والوزير جعفر ومسرور السيف الأكبر ، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة فرأوا بالأمر المقدر شيخًا قاعدًا فى شختر^(٢) ، فتقدموا إليه وسلموا عليه ، وقالوا: يا شيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة فى مركبك وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما ، فقال لهم الشيخ : ومن يقدر على الفرجة والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة فى حراقة^(٣) صغيرة إلى الدجلة ومعه منادى ينأى معاشر الناس كافة : جيد وردئ ، شيخ وصبى ، خاص وعام وغلام ، كل من نزل فى مركب بالليل و شق الدجلة ضربت عنقه ، أو يشنق على صارى مركبه ، وكأنكم الساعة بالحراقة وهى مقبلة ، فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكى: ياشيخ خذ هذين الدينارين

(١) انظر : الفرج بعد الشدة (٦٣/٢) .

(٢) الشختر : سفينة صغيرة .

(٣) الحراقة : من السفن الحربية ، وجمعها حراقات .

وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقه ، فقال لهم الشيخ :
هاتوا الذهب والله المستعان فأخذ الذهب و عوم بهم قليلا ، وإذا بالحراقه
قد أقبلت من كبد الدجلة ، وفيها الشموع والمشاعل ، فقال لهم الشيخ :
أما قلت لكم يا ستار لا تكشف الأستار ، فقال الخليفة هارون الرشيد
والوزير جعفر البرمكى: ادخل بنا يا شيخ فى قبر من الأقبية حتى تمضى
هذه الحراقه ، فدخل إلى قبر ووضع عليهم ، منزرا أسود وصاروا يتفرجون
من تحت المنزر وإذا بالحراقه قد أقبلت ، والشمع يوقد فيها وإذا فى مقدم
الحراقه مشاعلى بيده مشعل من الذهب الأحمر ، يوقد فيه بالعود
القاقل^(١) وعلى المشاعلى قباء أطلس أحمر بطراز مزر كش أصفر ، وعلى
رأسه شاش موصلى ، وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة من
العود القاقل وهو يوقد به عوض الحطب ، ومشاعلى آخر فى مؤخر
الحراقه مثله ، ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة ، وكرسى منصوب من
الذهب الأحمر ، وعليه شاب حسن جالس كالقمر ، وعليه خلعة سوداء
بطرازين من الذهب الأصفر ، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر ، وعلى
رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهور ، وعشرون نديما ، فقال
الخليفة : يا جعفر قال : لبيك يا أمير المؤمنين قال : لعل أن يكون هذا أحد
أولادى إما المأمون ، أو محمد الأمين ، فلما وصلت الحراقه إليهم ، وإذا
بالمشاعلى ينادى : معاشر الناس كافة الخاص والعام ، والجيد والردىء ،
والعبد والغلام ، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا : إن كل من
تفرج فى الدجلة ، أوفتح طاقته ، حل ماله وضربت رقبتة ، ومن لا يصدق
يحرب

(١) العود القاقل : نبات هندى له رائحة عطرية .

قال : فتأمل الخليفة هارون الرشيد فى الشاب ، وهو جالس على كرسى من الذهب ، قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، قد زان المنصب ، فلما تأمله هارون الرشيد ، التفت إلى الوزير ، وقال : ياوزير ، قال له : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : والله ما أبقي شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذى بين يديه كأنه أنت يا جعفر لا محالة والخادم الذى على رأسه كأنه مسرور هذا ، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائى، وقد حار عقلى فى هذا الأمر ، فقال له الوزير : وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك ، ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين ، فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذى فيه الجماعة من تحت القبوة^(١)، وقال : الحمد لله على السلامة الذى لم يصادفنا ، فقال له الخليفة : ياشيخ وهذا الخليفة ينزل كل ليلة فى الدجلة ؟ قال : نعم ياسيدى، له على هذه الحالة سنة كاملة ، فقال له الخليفة : ياشيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد فى هذا المكان ، ونحن نعطيك خمسة دنائير ، فإننا قوم غرباء ، وقصدنا التنزة ، ونحن نازلون فى الفندق^(٢)، فقال الشيخ : السمع والطاعة .

ثم إن الخليفة وجعفرأ و مسرورا توجهوا من عند الشيخ المراكبى إلى القصر ، وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار ، وجلس كل واحد فى مرتبته ، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب وانعقد المجلس بالناس ، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد؛ قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره : يا جعفر انهض بنا للفرجة على الخليفة الثانى ، فضحك

(١) القبر : البناء على هيئة القبة .

(٢) الفندق : المكان المعد لنزول المسافرين .

جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا من شرعى الصدر ، وكان
خروجهم من باب السر ؛ فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب
الشعتر لهم فى الانتظار ، فنزلوا عنده فى المركب ، فلما استقروا مع
الشيخ المراكبى ، وإذا بالخليفة الثانى فى الحراقة وقد أقبلت عليهم فتأملوها
وإذا فيها مائتا مملوك غير الممالك الأولى ، والمشاعلى تنادى على
عادتهم.

فقال الخليفة : ياوزير هذا شىء لو سمعت به ماصدقت ، ولكن
رأيت هذا عيانا ، ثم إن الخليفة قال لصاحب الشعتر : ياشيخ هذه عشرة
دنانير فسر بنا فى مساواتهم ، فإنهم فى النور ونحن فى الظلام ننظرهم
ونتفرج عليهم وهم لا ينظروننا، فأخذ الشيخ العشر دنانير وأطلق الشعتر
فى مساواتهم وصار فى ظلام الحراقة ولم يزلوا سائرين فى أثرهم إلى آخر
البساتين ، وإذا بزريبة^(١) بطول الحراقة التصقت عليها. وإذا بغلامين واقفين
ومعهما بغلة مسرحة ملحمة ، فطلع الخليفة الثانى وركب البغلة وسار بين
الندماء وزعقت المشاعلى والحاوئشية ، واشتالت الغاشية . وطلع هارون
الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين الممالك وساروا أقدامهم
فلاحت من المشاعلى التفاتة فرأوا الثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار وهم
غرباء ، فانكروهم وغمزوا عليهم فمسكهم وأحضروهم بين يدى الخليفة
الثانى ، فلما نظرهم قال : كيف وصلتكم إلى هذا المكان وما الذى جاء
بكم فى مثل هذا الوقت ؟ قالوا : يامولانا اليوم كان قدومنا ونحن قوم

(١) زُرْبِيَّة : مأبسط واتكىء عليه .

غرباء تجار وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم ، وجاءوا هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين أيديكم ، وهذا خبرنا ، فقال لهم الخليفة الثانى : طيبوا قلوبكم فلا بأس لأنكم قوم غرباء ولو كنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة، ثم التفت إلى وزيره وقال : خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة ، فقال: سمعا وطاعة .

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ماحواه سلطان قصر قام من التراب وتعلق بأكناف السحاب ، بابه من خشب الساج^(١) مرصع بالذهب الوهاج ، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان وحصر عبدانية ، ومخدات إسكندرانية ، وستر مسبول ، وفرش تذهل العقول وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان :

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام
فيه المعائب والغرائب نوعت فتحيرت فى نعتها الأقلام

قال : فدخل الخليفة الثانى إلى القصر والجماعة فى خدمته إلى أن جلس على كرسى من الذهب مرصع بالدر والجواهر ، وعلى الكرسى بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقصر مزر كشة بالذهب الأحمر معلقة فى بكرة من الصندل رباطاتها من الحرير الأصفر ، هذا وقد جلس الندماء فى مراتبهم وصاحب سيف النعمة واقف بين يديه

(١) خشب السَّاج : من شجر مهدد أندونيسيا ، وهو جميل المنظر وأحد أجواد الأخشاب الصلبة المعروفة .

فمدوا السماط^(١) وأكلوا ورفعوا الخوان^(٢)، ولأيديهم غسلوا، وأحضرت آلة المدام ووَضعت الطاسات والأوانى وصفت الأباريق والكاسات والقناني، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب، فقال الخليفة الثاني: لحعفر مابال صاحبك لا يشرب، فقال: يامولاي له مدة ما شرب فقال الشاب: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك، على بشراب التفاح ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد، وقال: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا، ولا زالوا يشربون في انشراح وتعاطى أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم.

فقال الرشيد لوزيره: والله يا وزير ماعندنا آنية مثل هذه الآنية فياليت شعري من يكون هذا الشاب! فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب إلفانة فوجد الوزير يسارر الخليفة، فقال: المساررة عربدة، فقال الوزير: ما نم عربدة إلا أن رقيقى هذا يقول: سافرت غالب البلاد ونادمت الملوك وعاشت الأجناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولا مثل آنية هذا المدام إلا أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع من جملة المحزون.

فلما سمع الخليفة الثاني تبسم وانشرح وكان يده قضيب، فضرب به على مدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيًا من العاج

(١) السماط: ما يسط ليوضع على الخوان.

(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.

مُصَفِّحًا بِالذَّهَبِ الْوَهَّاجِ ، وَخَلْفَهُ جَارِيَةٌ قَدْ كَمَلَتْ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالَ
وَالْبَهَاءَ وَالْكَمَالَ فَنَصَبَ الْخَادِمَ الْكَرْسِيَّ وَجَلَسَتْ عَلَيْهِ الْجَارِيَةُ وَهِيَ
كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ ، وَبِيَدِهَا عُودٌ مِنْ صَنْعَةِ الْهِنُودِ ، وَشَدَّتْهُ وَحَنَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ
أَنْ ضَرَبَتْ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ طَرِيقَةً عَلَيْهِ فَأَذْهَلَتْ الْعُقُولَ وَعَادَتْ إِلَى الطَّرِيقَةِ
الْأُولَى وَجَعَلَتْ تَقُولُ :

لسان الهوى من مقلتي لك ناطق	يخبر عنى أنسى لك عاشق
ولى شاهد من طرف قلبى معذب	وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكرم الحب الذى قد أذابنى	وقلبى قريح والدموع سوابق
وما كنت أدرى قبل حبك ما الهوى	ولكن قضا الرحمن فى الخلق سابق

قال : فلما سمع الخليفة الثانى هذا الشعر من الجارية ، صرخ صرخة
عظيمة وشق البدلة التى كانت عليه إلى الذيل ، فأسبلت البشخانة ، وأتى
ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها وجلس على عادته ؛ فلما وصل القدح إليه
ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل
كرسيا من ذهب وخلفه جارية أحسن من الأولى ، وجلست على الكرسي ،
وبيدها عود يكمد الحسود ، وأنشدت تقول :

كيف اضطبارى ونار العشق فى كبدى والدمع من مقلتي طوفانه مدد
والله ما طاب لى عيش أسر به وكيف يفرح قلب حشوه كمد

قال : فصرخ الشاب صرخة عظيمة ، وشق ما عليه إلى الذيل
وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتى ببدة غيرها أحسن منها ، فلبسها
واستوى جالسا ، ودار المدام ، وانبسط الكلام ، فلما وصل القدح إليه
ضرب القضيب على المدورة ، ففتح الباب ، وخرج منه خادم على العادة ،

ومعه كرسى وخلفه جارية ، فجلست على الكرسى ومعه عود يذهل
الأسود ، فغنت ، وأنشدت تقول :

أقصروا هجركم وقلوا جفاكم	ففوادی وحقکم ماسلاکم
وارحموا مدنفاً كهيأ حزينا	ذا غرام متيماً فى هواکم
قد براه السقام من عظم وجد	يتمنى من الإله رضاکم
يا بدور محلکم فى فوادی	كيف أختار فى الأنام سواکم

قال : فصرخ الشاب ، وشق ماعليه من الثياب ، فأرخو عليه
البشخانة ، وأتوا ببدلة غيرها ، وعاد إلى حالته مع ندمائه ، ودارت الأقداح
وطاب الانشراح ؛ فلما وصل القداح إليه ضرب القضيبي على المدورة ،
ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيا ، وخلفه جارية فجلست على
الكرسى وأخذت العود وغنت تقول :

ترى ينصرم حال التهاجر والقلی	ويرجع ما قد انقضی لى أولا
أيام كنا والديار تلمنا	فى طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا	من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم منى يا عدولى سلوة	وأرى بقلبي ما يطيع العذلا ^(١)
فدع الملام وخلصى بصبابتى	القلب من أنس المحبة ما خلا
ياسادة نقضوا العهد وبدلوا	لاتحسبوا قلبى لبعء كموسلا

قال : فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ما عليه
من الثياب ووقع إلى الأرض مغشياً عليه ، وسقط منه القوى والحمل ،

(١) أتروم : أتريد .

فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة فتعوقت حبالها بالإرادة ،
فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع ،
فقال الرشيد : بعد النظر والتأكد لجعفر إنه شاب مليح إلا إنه لص قبيح ،
وما عند أحد منه خبر هل رأيت ما على جنبه من الأثر . وقد أسبلت
البشخانة عليه على العادة ، وأتى ببدلة غيرها ، فلبسها وقد أفاق من غشيته
فاستوى جالسا على العادة مع الندماء فحانت منه التفاتة فوجد جعفرا
والخليفة يتحدثان ، فقال لهما : ما الخبر يا فتیان ؟ فقال جعفر : يامولای
خير لاشك ولاخفاء ، إن رفيقى هذا من التجار الكبار ، وسافر جميع
الأمصار ، وصحب الملوك والأخيار ، وقال : إن الذى حصل من مولانا
الخليفة فى هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحدا فعل هذا الفعل فى هذه
الأقاليم ، لأنه شق كل بدلة بخمسمائة دينار وهذا شىء زائد فى العيار .
فقال الشاب : يا هذا المال مالى والقماش قماشى وهذا من بعض إنعامى
على الخدم والحواشى ، فإني كل بدلة شققتهأ هى لواحد من الندماء
الحضار وقد رسمت لهم أن العرض على كل بدلة خمسمائة دينار فأنشد
عند ذلك الوزير جعفر ، وقال :

بنت المكارم وسط كفك منزلا	فجميع ممالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها	يرما فأت لقفلهامفتاح

قال : لما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك رسم له بألف دينار
وبدلة ، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح ، فقال الرشيد :
يا جعفر اسأله عن الضرب الذى رأيناه على جنبه حتى ننظر مايقول فى
جوابه ، فقال الوزير : يامولای لاتعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل ،
فقال : وحياة رأسى وتربة العباس ، إن لم تسأله أحمدت منك الأنفاس ،

فعند ذلك إلتفت الشاب إلى الوزير ، وقال : مالك مع رفيقك وما الخبر ؟ فقال : خير يامولانا، فقال : سألتك بالله إلا أخبرتنى بخبره ولاتكنم عنى شيئاً من أمره فقال : يامولاي إنه أبصر على جنبيك أثر سياط ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، وقال : بالله العجب الخليفة يضرب وقصده يعلم ماالسبب ! فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال : اللهم فنعم اعلموا أن حديثي عجيب وأمرى غريب لو كتب بالأبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم تأوه وأن واشتكى وبكى وأنشد :

حديثي عجيب حاز كل العجائب	وحتى إله قد عرف بالمواهب
فان شتموا أن تسمعوا لى فانصتوا	ويطرب هذا الجمع من كل جانب
واصفوا إلى قولى ففيه إشارة	وإن كلامى صادق غير كاذب
لانى قتيل من غرام ولوعة	وقاتلتى فاقت جميع الكواعب
لها مقلّة كحلا وخد مورد	ويقتلنى منها قسى الحواحب
وقد حس قلبى أن فيكم إمانا	خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعى الوزير جعفر	حقيقة يدعى صاحباً وابن صاحب
وثالثكم مسرور سياف نعمة	فإن كان هذا القول حقاً بصائب
فقد نلت ماأرجو على كل حالة	وجاء سرور القلب من كل جانب

قال : فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين ، فضحك الشاب وقال : الذى أعرفكم به أنى ما أنا أمير المؤمنين ، وإنما سميت نفسى بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة واسمى : على بن محمد الجوهري ، وإن أبى كان من الأعيان ومات وخلف لى أموالا لاتأكلها النيران من ذهب، وفضة ، ولؤلؤ ، ومرجان ، وياقوت ، وجوهر ،

وزمرد ، وبهرمان ، وحمامات ، وغيطان ، وبساتين ، وفنادق ، وطواحين ،
وعبيد ، وجوار ، وغلمان .

فلما كان فى بعض الأيام ، وأنا جالس فى حانوتى وحولى الحشم
والخدم ، وإذا أنا بحارية قد أقبلت على بغلة وفى خدمتها ثلاث جوار
كأنهن الأقمار ، ونزلت على دكانى وجلست ، وقالت : أنت على بن
محمد الجوهري ؟ فقلت لها : مملوك وعبد رقبك ، فقالت : هل عندك
عقد جوهر يصلح لمثلى ، فقلت : ياستى الذى عندى يحضر بين يديك
فإن أعجبك شىء كان بسعد المملوك ، وإن لم يعجبك شىء منه فبسوء
حظى ، وكان عندى مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها
شىء منها ، وقالت : أريد أحسن مما رأيت . وكان عندى عقد صغير
شراؤه على والدى بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين
الكبار ، فقلت : ياسيدتى عندى عقد الفصوص والجواهر الذى لم يملكه
أحد من الأصاغر والأكابر ، فقالت : أرنى إياه ؛ فلما رآته قالت : هذا
الذى طول عمرى أتمناه ، ثم قالت : بكم ثمنه فى الأسعار ؟

فقلت : شراؤه على والدى بمائة ألف دينار . فقالت : ولك خمسة
آلاف زائدة ، فقلت لها : ياسيدتى العقد وصاحبه فى الرق بين يديك
ولا خلاف ، فقالت : لابد من الفائدة ولك الحميلة الزائدة ، وقامت عجلة ،
وركبت البغلة بسرعة وقالت : ياسيدى نور الدين باسم الله تكن صحبتنا
لنأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن ، فقممت وقفلت الدكان
وسرت معهن فى أمان إلى أن وصلنا الدار فوجدتها دارا عليها السعادة
لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه
الآيات :

ألا يسأدار لايدخلك حزن ولايفدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار أنت لكل ضيف إذا ماضاق بالضيف المكان

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرت بحلوسى إلى أن يأتى الصيرفى ،
فجلست على باب الدار ساعة لطيفة ، وإذا بحارية خرجت إلى : وقالت :
ياسيدى ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح ، فقامت إلى
الدهليز وجلست على الدكة ساعة ، وإذا بحارية خرجت إلى وقالت :
ياسيدى تقول لك سيدتى : أدخل واجلس على جانب الإيوان حتى تقبض
مالك ، فقامت فدخلت وجلست حيث أمرتنى ، وإذا بكرسى من الذهب
وعليه ستارة من الحرير الأحمر ، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من
تحتها الجارية التى اشترت منى العقد ، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة
القمر والعقد فى عنقها فاندھش عقلى وحار ذهنى ولبى^(١) من رؤية تلك
الجارية وحسنها .

فلما رأتنى قامت من على الكرسى وسعت نحوى ، وقالت : يانور
الدين هل رأيت جميلة مثلى ؟ فقلت : ياسيدتى الحسن كله فيك وهو من
بعض معانيك ، فقالت : ياعلى اعلم أنى أحبك وماصدقت بك إلا لما
صرت عندى ، ثم إنها طوقت على وعانقتها ، فقبلتها وقبلتنى ، ثم جذبتنى
وعلى صدرها رمتنى ؛ فلما علمت منى أنى أريد أن أهم بها ، قالت :
ياعلى أتريد أن تجتمع بى فى الحرام ، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى
بقبيح الكلام ، فإنى بكر عذراء ما دنا منى أحد ولست مجهولة فى البلد ،
تعلم من أنا ؟ فقلت : لا والله وحلفت لها يمينا ، فقالت : أنا الست دنيا

(١) لى الذهن : توقف وتردد من شدة الدهشة

بنت يحيى بن خالد البرمكى ، وأخى جعفر ؛ فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطرى عنها ، وقلت : ياسيدتى مالى ذنب فى التهجم عليك أنت التى أطمعتينى فى إحسانك والوصول إلى جنابك ، فقالت : لا بأس عليك ولا بد من الإحسان إليك ، فإن أمرى بيدي والقاضى ولى عقدى ، والقصد أن أكون لك وتكون لى ، ثم إنها دعت بالقاضى والشهود وبذلت المجهود .

فلما حضروا قالت لهم : هذا نور الدين على بن الجوهري قد طلب زواجى ، ودفع لى هذا العقد مهرى ، وأنا قد قبلت ورضيت ، ثم إن القاضى حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وكتب الكتاب ، فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضى شيئا ماله حساب ، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام ؛ فلما شعشت الخمرة فى رؤسنا ، أمرت جارية عودية أن تغنى فأنشأت تقول :

قلبي وآمالى يباب رجاكمو	لاأبتغى فى الكون غير رضاكمو
ياجيرة جاروا على ببعدهم	حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ياسادتى حاشاكمو	صبا معنى مفرما بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمميم	لايستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى اشتياقى فوق طول رضاكمو	فإذا شجاء حسنكم ناجاكمو

قال : فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجوارى يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوار ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول :

أقسم بليّن قوامك الميَّاس	إني لنار الهجر منك أقاسي ^(١)
فأرحم لصبّ في هواك متيم	يا بدر تم أنت خير الناس
أنعم بوصلك كم أبيت بليلة	أجلو جمالك في ضياء الكاس
ما بين ورد جمعت ألوانه	مع نرجس أيضا وحسن الآس ^(٢)

قال الشاب : ثم إني أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه
الآيات :

سبحان رب جميع الحسن أعطاك	حتى بقيت أنا من بعض أسراك
يا من لها ناظر تسبى الأنام به	خذى الأمان لنا من سحر عنك
فالماء والنار في خديك قد جمعا	والورد جورى نبت وسط خدك
أنت الغرام لقلبي والنسيم له	فما أمرك في قلبي وأحلاك

قال : فلما سمعت منى ما قلت فرحت فرحا شديدا ، ثم إنها صرفت
الجوارى وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان ونزعت
ما عليها من الثياب ، وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتها بتنا بكرا بعتم
ربها ففرحت بى وفرحت بها فرحا لم أجد فى عمرى ليلة أطيب منها وفيها
أنشدت أقول

يا ليل دم لى لأريد صباحا	يكفى بوجه معانقى مصباحا
طوقته طرق الحمام بساعدى	وجعلت كفى للنمام مباحا
هذا هو الفوز العظيم فمن لنا	متعانقين فلا نريد براحا

(١) الميَّاس من تميم الرجل : مشى وهو يتبعثر ويتمايل كالأسد .

(٢) حسن الأس : حسن الأصل .

فأقمت عندها شهرا كاملا ، وقد نسيت الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام ، قالت : يانور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك ، فقلت : سمعا وطاعة وحلفتني أنى لا أنتقل من موضعى . فأخذت جواربها وذهبت إلى الحمام ، فوالله يا إخوانى ما لحقت تخرج من رأس الزقاق وإلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأى عجوز ، وقالت : يانور الدين الست زبيدة^(١) تدعوك ، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك ، فقلت : والله على يمين أننى ما أقوم من مقامى حتى تأتى الست دنيا ، فقالت العجوز : يانور الدين لاتخل الست زبيدة تصير عدوتك : فقم كلمها وارجع فقممت من وقتى إليها والعجوز أمامى إلى أن أوصلتنى إلى الست زبيدة ؛ فلما وصلت إليها قالت : يانور الدين أنت معشوق الست دنيا ، فقلت : مملوكك وعبد رقتك ، فقالت : صدق الذى وصفك بالحسن والجمال ، فإناك فوق الوصف والمقال ولكن غن لى شيئا حتى أسمعك ، فقلت : السمع والطاعة ، فأتتنى بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول :

قلب المحب مع الأحباب متعرب	وجسمه بيد الأسقام منهوب
مافى الركائب من ذمت حملهم	إلا وكان له فى الظلمن محبوب
أستودع الله لى فى حيكم قمرا	يهواه قلبى وعن عيني محجوب
يرضى ويغضب ما أحلى تذلله	وكل مايفعل المحبوب محجوب

(١) زبيدة بنت جعفر : زوجة هارون الرشيد ، وابنة عمه وأم العليفة الأمين .سيدة جليلة اشتهرت بإحسانها توفيت فى بغداد .وعطفها على الأدباء ، والشعراء ، ومن ذوات العقل والرأى والفصاحة ، ت[٢١٦هـ-٨٣١م] . انظر : أعلام النساء (١٧/٢) .

فقلت لى : حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك ، فلقد كملت فى الحسن والظرف والمعنى ، فقم إلى مكانك قبل أن تحىء إليه الست دنيا فلم تحدثك فتغضب عليك ، فقبلت الأرض وخرجت المحوز أمامى إلى أن وصلتني إلى الباب الذى خرجت منه .

فدخلت وحثت إلى السرير لأجلس ، فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير ، فقعدت عند رجلها وصرت أكبها^(١) ففتحت عينيها فرأتني فجمعت رجلها ورفستني فرمتني من على السرير ، وقالت : يانور الدين خنت اليمين وكذبت وذبحت إلى الست زبيدة ووالله لولا خوفى من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها ، ثم قالت لبعدها : يا صواب قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب فلا حاجة لنا به ، فتقدم ذلك الخادم إلى وشرط ذيلى وعصب عيني ، وأراد أن يضرب رقبتى فقامت إليها الحوارى الكبار والصغار ، وقلن لها : يا ستاه ماهر بأول من أخطأ وما عرف خلقك وأنت ما تبغضينه وما فعل ذنبا يوجب أن تقتليه ، فقلت : والله لا بد أن أوثر فيه أثراً ، ثم إنها أمرت بضربى فضربت على أضلاعى الضرب الذى رأيتموه وأمرت بإخراجى فأخرجونى وأبعدونى عن القصر ورمونى ، ورجعوا وتركونى فلممت نفسى فمشيت قليلا إلى أن وصلت إلى منزلى وأحضرت جراحا وأريته الضرب ، فلاطفنى وسعى فى مصالحي؛ فلما صح جسمى دخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام وحثت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيها وبعته وجمعت ثمنه ، واشترت أربعمئة مملوك ما جمعهم أحد من الملوك يركب معى فى كل يوم مائتان وعملت

(١) كبس الشيء : شده وضغط عليه .

هذه المركب الحراقه بألف ومائتين من الذهب العين ، وسميت نفسى بالخليفة ورتبت من معى من الخدام كل واحد فى وظيفته ، وناديت كل من تفرج فى الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة ولى على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر ، ثم إنه بكى وأبكى واشتكى وأنشد يقول :

والله ما كنت طول الدهر ناسيها	ولا دنوت إلى من ليس يديها
كأنها البدر فى تكوين خلقتها	سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولا ذنب لى إلا محبتها	فكيف حال الذى قد بات ناعيها
وصيرتنى حزينا ساهيا دنفا	والقلب قد حار منى فى معانيها

قال : فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب ، تعجب غاية العجب ، وقال : سبحان من جعل لكل شىء سبيبا ، ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإنحاف ، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبيين .

ولما استقر بهم فى المنزل الجلوس غيروا ماكان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة وكذلك مسرور سياف النعمة والعطب. فقال الخليفة لجعفر المهاب : ياوزير على بالشاب فخرج إليه فى الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب ، فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة لأمر المؤمنين وخامى حوزة الدين ، فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم^(١) عليه فى

(١) الترسيم : حسن المشى .

حصر ؛ فلما دخل إلى الخليفة ، ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ، ورأى الشاب الخليفة عرفه فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه ، وقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول :

لازال بابك كعبة مقصودة وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى فى البلاد بأسرها هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك : تبسم الخليفة فى وجهه ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام ، وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه وقال له : يا نور الدين أريد أن تحدثنى بحديثك الليلة يا مسكين ، فإنه من أعجب الأمور ، فقال الشاب : الفعور يا أمير المؤمنين أعطنى منديل الأمان ليهدأ روعى ويطمئن قلبى ، فقال الخليفة : لك الأمان ، فشرع الشاب يتحدث بالذى جرى له من أوله إلى آخره ، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبى عاشق لا محالة فقال الخليفة : أتحب أن أردّها إليك يا مسكين ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشد :

إن رمت إحسانا فهذا وقته أو رمت معروفًا فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له : احضر أختك الست دنيا بنت الوزير يحيى ، فقال له : السمع والطاعة فأحضرها فى الوقت ، فلما مثلت بين يديه قال لها : أتعرفين هذا من ؟ فقالت : أين للنساء معرفة بالرجال ، فتبسم وقال : يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها ، وفهمنا باطنها وظاهرها ، والأمر لا يخفى وإن كان مستورا ،

فقلت: كان ذلك فى الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله مما جرى وأسأل من فىض الفضل العفو عني ؛ فضحك الخليفة ، وأحضر القاضى والشهود وعقد له ثانيا عليها وحصل له سعد السعود وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه وعاش بقية عمره فى أهنأ عيش ونعمة ، يحالس الخليفة فى الليل، والنهار توانسه الست دنيا ذات الفخار وهذا ما انتهى إلينا من التلخيص والله أعلم.

[٨٢] ويحكى : أن جعفر البرمكى نادم الرشيد ليلسة ، فقال : يا جعفر بلغنى أنك اشتريت الحارية الفلانية ولى مدة أنطلبها ؛ فإنها بديعة الجمال ولى شوق زائد إليها فبعنيها ، قال : ليس على فيها بيع ، قال : هبنيها ، قال : ولا أهبها ، فقال : الرشيد زبيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعنيها أو تهبنيها ، وقال جعفر : زوجتى طالق منى ثلاثا إن بعتهأ أو وهبتها، ثم أفاقا من نشوتهما وعلمأ أنهما وقعا فى أمر عظيم وعجزأ عن تدبير الحيلة .

فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبى يوسف^(١) ، فاطلبوه وكان قد انتصف الليل ؛ فلما طلب قام فرعا ، وقال : ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمر حدث فى الإسلام ، ثم خرج مسرعا وركب بغلته ، وقال لغلأمه : أصحب معك المخلاة واجعل فيها بعض شعير ، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدى الدابة شيأ منه تشتغل به إلى حين خروجى ، فإنها لم تستوف علفها فى هذا الليلة ، قال : سمعا وطاعة .

(١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، أبو يوسف : صاحب أبى حنيفة . كان قاضيا ، فقيها ، عالما ، حافظا ، ت[١٨٢هـ=٧٩٨م]. انظر : الإنتقاء (١٧٢) .

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريريه بجانبه وكان لا يجلس معه غيره ، وقال له : ما طلبناك إلا لأمر مهم ، وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة؛ فقال : يا أمير المؤمنين هذا من أسهل ما يكون ، يا جعفر بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما ، فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا ، فقال الرشيد : أحضر الجارية فى هذا الوقت فإنى شديد الشوق إليها فأحضرت فقال للقاضى أبى يوسف : أريد وطأها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مضى مدة الاستبراء ، فانظر لى الحيلة فى ذلك ، فقال أبو يوسف : إئتونى بمملوك من ممالك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق ، فأحضر مملوك ، فقال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجه منى ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها فى الحال من غير استبراء ، فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول ، فقال : أذنت لك ، فأوجب القاضى النكاح ثم قبله المملوك ، فقال له القاضى : يطلقها ، فقال له : هذه صارت لى زوجة ، وأنا لا أطلقها فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك ، وقال : قد اشتد الأمر أعظم مما كان .

فقال القاضى أبو يوسف : يا أمير المؤمنين رغبه بالمال ، فقال : يطلقها ولك مائة دينار ، قال : لا أفعل ، قال : مائتا دينار ، قال : لا أفعل ، إلى أن عرضوا عليه ألف دينار ، وهو يمتنع ، وقال للقاضى : الطلاق بيدى أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك ؟ قال : بل بيدك أنت ، قال : والله لا أفعل أبدا فاشتد غضب أمير المؤمنين ، فقال القاضى : يا أمير المؤمنين لا تحزع فإن الأمر هين أعتق الجارية ، ثم ملك هذا العبد للجارية ، قال : أعتقتها وملكته لها ، فقال لها القاضى : قولى قبلت ، فقالت : قبلت ، فقال القاضى : حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل فى ملكها فانفسخ النكاح ، فقام أمير

المؤمنين على قدميه ، وقال : مثلك من يكون قاضيا فى زمانى ، واستدعى
بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه ، وقال للقاضى : هل معك شىء توعيه
فتذكر مخللة البغلة ، فاستدعى بها فمكنت له ذهباً فأخذها وانصرف .

فلما أصبح قال : لخلاته انظروا إلى من تعلم العلم فليتعلمه هكذا ،
فإنى أعطيت هذا المال العظيم فى مسألتين أو ثلاث .

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن
منها دلال الوزير على قلب أمير المؤمنين ، وحلم الخليفة ، وزيادة علم
القاضى ؛ فرحم الله أرواحهم أجمعين ، ولكن مسألة الإستبراء لم تتخرج
إلا على مذهب أبى حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفى
المذهب ، والله أعلم ، انتهى من حلبة الكميت .

[٨٣] ومن كلام إبراهيم الموصلى رحمه الله تعالى :

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى	وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى	وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة	ويا سلوة الأيام موعداك الحشر
وإنسى لتعرونى لذكراك هزة	كما انتفض العصفور بلله القطر

[٨٤] ومن الحكايات اللطيفة : أن بعض الملوك قصد التفرج على
المجانين ؛ فلما دخل عليهم رأى فيهم شابا حسن الهيئة نظيف الصورة
يرى عليه آثار اللطف ، وتفوح منه شمائل الفطنة فدنا منه ، وسأله مسائل
فأجابته عن جميعها بأحسن جواب فتعجب منه عجبا شديدا ، ثم إن
المجنون قال : للملك قد سألتنى عن أشياء فأجبتك ، وإنى سألتك سؤالا
واحدا ، قال : وما هو ؟ قال : متى يجد النائم لذة النوم ؟ ففكر الملك

ساعة ، ثم قال : يجد لذة النوم حال نومه ، فقال المجنون : حالة النوم ليس له إحساس، فقال الملك: قبل الدخول فى النوم ، فقال المجنون : كيف توجد لذته قبل وجوده ، فقال الملك : بعد النوم ، فقال المجنون : أتوجد لذته وقد انقضى ، فتحير الملك وزاد إعجابه ، وقال لعمرى : إن هذا لا يحصل من عقلاء كثير ، فأولى أن يكون نديمى فى مثل هذا اليوم ، وأمر أن ينصب له تحت بإزاء شباك المجنون ، ثم استدعى بالشراب فحضر فتناول الكاس وشرب ، ثم ناول المجنون فقال : أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلى ، فانا أشربه لأصير مثل من ؟! فاتعظ الملك بكلامه ورمى القدح من يده ، وتاب من ساعته ، والله أعلم . وهذه الحكاية لها بقية أعرضنا عنها وهذه على سبيل الاختصار أيضا .

[٨٥] حُكى والله أعلم بغيره وأحكم : أن الرشيد أرق ذات ليلة

أرقا شديدا ، فاستدعى جعفرًا وقال : أريد منك أن تزيل ما بقلبي من الضجر ، فقال الوزير: يا أمير المؤمنين كيف يكون على قلبك ضجر ، وقد خلق الله أشياء كثيرة تزيل الهم عن المهموم والغم عن المغموم وأنت قادر عليها ، فقال الرشيد : وماهى يا جعفر ؟ فقال له : قم بنا الآن حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ، ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها ، والقمر وحسن طلعه لأنه وجه من تحب كما قيل :

كانما حسن السماء وزرقتها قد رقت فيها أفانين الصور
فكانما البدر حين لاح لنا فى بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد : يا جعفر ما تلتفت نفسى إلى شىء من ذلك فقال : يا أمير المؤمنين افتح شباك القصر الذى يطلع على البستان ، وتفرج على

حسن تلك الأشجار ، واسمع الناعورة^(١) التي كأنها آنين محب فارق
محبوبه ، وهي كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت تعبر عن حال المشوق وتعرب
ترقص عطف البان تيهاً لأنها تغنى له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين إلى أن يدركنا الصباح ، فقال : يا جعفر
ما تلتفت نفسى إلى شىء من ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين افتح الشباك
الذى يطلع على الدجلة حتى نتفرج على تلك المراكب والملاحين ، هذا
يصفق وهذا ينشد : مواليا ، وهذا يقول : دوبيت وهذا يعمل كيت
وكيت ، فقال الرشيد : ما تلتفت نفسى إلى شىء من ذلك .

قال جعفر : قم يا أمير المؤمنين حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص
وننظر إلى الخيل العربيات ونتفرج على حسن ألوانها ما بين أدهم كالليل إذا
أظلم ، وأشقر ، وأشهب ، وكميت ، وأحمر ، وأبيض ، وأخضر ، وأبلق ،
وأصفر ، وألوان تحير العقول ؛ فقال الرشيد : ما تلتفت نفسى إلى شىء من
ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين عندك فى قصرك ثلثمائة جارية ما بين:
جنكية إلى عودية إلى دفية إلى قانونية إلى زامرة إلى مغنية إلى راقصة إلى
سنطيرية أحضر الجميع وأحضر العقار المروق فلعل أن يزول ما قبلبك من
الضجر ، فقال : ما تهتم نفسى إلى شىء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير
المؤمنين ما بقى إلا ضرب عنق مملوكك جعفر فإنى قد عجزت عن إزالة
هم مولانا ، فقال : يا جعفر أما سمعت قول ابن عمى رسول الله ﷺ
فقال: من فم مولانا أحلى، فقال الرشيد قال : رسول الله ﷺ «فرح أمتى

(١) الناعورة : آلة لرفع الماء .

ففي ثلاث : أن يرى بعينه شيئاً ما رآه ، أو يسمع شيئاً ما سمعه ، أو يطأ مكاناً ما وطئه» . فتتفق يا جعفر أن يكون في بغداد مكان ما وطنناه أو شيء ماسمعناه أو موضع مارأيناه؟ فقال جعفر : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة . وأنظر أحداً من المسافرين أحضره بين يدي أمير المؤمنين لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته ، فقال الرشيد : قم وافعل . فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبي الحسن الخليلي الدمشقي المسامر .

قال : فلما رأى أمير المؤمنين سلم وأحسن وترجم فأبلغ ، ثم قال :
ياأمر المؤمنين وحامى حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم
النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أطال الله بقاءك ، وجعل الجنة مأواك
والنار مثوى لأعدائك لا خمدت لك نار ولا اغتبط لك جار ، ثم أنشد
يقول :

دَامَ لَكَ الْعِزُّ وَالْبَقَاءُ
 وَدُمْتَ مَادَامَتِ اللَّيَالِي
 النَّاسُ نَاسٌ بِكُلِّ أَرْضٍ
 مَا اخْتَلَفَ الصَّبْحُ وَالْمَسَاءُ
 بِمُدَّةٍ مَا لَهَا انْقِضَاءُ
 وَأَنْتَ مِنْ فِرْقَتِهِمْ سَمَاءُ

قال : فرد على الشيخ السلام ، وقال له : اجلس يا أبا الحسن ،
وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين
أحدثك بشيء سمعته بأذني أو بشيء رأيته بعيني ؟ قال الرشيد : يا شيخ أبو
الحسن الذي تراه العين أحسن من الذي تسمعه الأذن .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين افرغ لى عن ثلاثة أشياء منك؛ فقال: ما الثلاثة؟ فقال : ذهنك ، وسمعك ، وقلبك. فقال الرشيد : هات يا أبا الحسن .

فقال : يا أمير المؤمنين لى عادة أنى أسافر فى كل سنة إلى البصرة
للأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وأقعد عنده أحدثه الأسمار وأورد له
الأخبار وأنشد له الأشعار ولى عليه رسم ألف دينار أخذها وأعود إلى
بغداد، فاتفق لى فى سنة من السنين أنى سافرت إلى البصرة على عادتى
ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثانى
والثالث ؛ فركب إلى الصيد وتركنى فى منزله وأوصى أرباب دولته
بخدمتى ، وإكرامى إلى أن يعود وأوصى الطباخ الذى له أن لا يطعمنى إلا
شيئاً تشتهيه نفسى فاشتيت السمك ، فقلت للطباخ : تعمل من السمك
عدة ألوان فأكلت وطاب لى الأكل حتى ثقل على فوادى ، فقلت :
مايصرف عنى هذا إلا المشى ولى عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها
مكاناً وأريد اليوم أجعلها حجة وفرجة، ثم إنى نزلت أتمشى فى شوارع
البصرة فعطشت عطشاً شديداً وناهيك بعطش السمك ، فقلت فى نفسى :
إن تناولت شربة من السقاء لاتطيب نفسى لأنه يشرب منه أصحاب
الأمراض ، وكبرت نفسى على أن أحملها إلى شاطئ الدجلة ، وقلت :
مالى إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء ، فأتيت
إلى درب وفى ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار
صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب ، ولها باب مقنطر
مزخرف بمصاطب طولانية مفروش عليها حصر عبدانية والباب ساج
مصنوع بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضة ، وستر من الحرير الأصفر
المدر مکتوب عليه هذه الأبيات :

الأبادار لايدخلك حزن	ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار أنت لكل ضيف	إذا ما ضاق بالضيف المكان

قال : فقلت فى نفسى من هذه الدار أشرب الماء ، فأنتيت إلى الباب
فسمعت صوتا ضعيفا من فؤاد نحيف وقائلا يقول:

بالله ربكما عوجا على سكنى	وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى وقولا فى حديثكما	ما بال عبدك بالهجران تلتفه
فإن تبسم قولاً فى ملاطفة	ماضر لو برصال منك تسعفه
وإن بدا لكما فى وجهه غضب	فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال : فقلت يا حبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصا صورته على
قدر صوته ، واحتشمت ثم إنى قويت قلبى ورفعت الستر ودخلت الدهليز
إلى أن انتهيت إلى آخره ومددت طرفى ، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها
السعادة وزالت عنها الشقاوة ورأيت فى صدر المكان إيوانا وبركة
وشاذروانا ، وفى ذلك الإيون تخت من الساج ، وقوائمه من العاج مصفح
بالذهب الرواج ، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس ومسند مزركش،
وعليه جارية نائمة خماسية القد قائمة النهدي ، لا بالطويلة الشاهقة ولا
بالقصير اللاصقة؛ أشهر من علم تربيته العجم على أكتاف الخدم ، بعد
أسيل وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل إن أقبلت فتنت ، وإن
ولت قتلت ، كما قال فيها بعض واصفيها :

كما اشتته خلقت حتى إذا اعتدلت	فى قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكنها	طى القباطى فلا سمر ولا غور
كأنما أفرغت من ماء لؤلؤة	فى كل جارحة من حسننها قمر

لأن الجارية يا أمير المؤمنين قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها
جميع الأسقام وعند رأسها طيب وهو يحس يدها ، ويقول : ياست بدور

الضارب ضارب، والساكن ساكن ، ولا برد ، ولا حمى ولا شيء تشتكيه
من سهر الليل ، وجريان الدمع، لعل الست فى قلبها هوى من أحد ؛ فلما
سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول :

إذا همت بكنمان الهوى نطقت	مدامعى بالذى أخفى من الألم
فإن أبح أفتضح من غير منفعة	وإن كتمت فدمعى غير منكمم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده	من طول وجد ودمع غير منصرم

قال : فنهض الطبيب قائما على قدميه ، فناولته صرة فيها عشرون
دينارا ، ثم التفتت إلى ، وقالت : من أين يا شيخ ؟ فقلت لها : من بغداد
حملنى العطش إلى أن أتيت إلى هنا . فقالت : لعل أن يكون على يدك
فرجى، فأنا أكتب لك ورقة فتسأل عن بيت الأمير عمرو وتعطيها له فإن
رددت على الجواب ، فأنا أعطى لك خمسمائة دينار ، ثم استدعت بدواة
وورق وكتبت وهى تقول : أما بعد ، يعجز لسانى ويكل جنانى عن بث
الأشواق ولكن أسأل الكريم العلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق
والأمر الموافق وأنا القائلة حيث أقول :

سرورى من الدنيا لقاكم وقربكم	وحبكم فرض وما منكم بد
ولى شاهد دمعى إذا ما ذكرتكم	جرى فوق خدى لا يطاق له رد
إذا الريح من نحر الحبيب تنسمت	وجدت لمسراها على كبدى برد
فوالله ما أحبيت ما عشت غيركم	ولا كنت إلا ما حبيت لكم عبد
سلام عليكم ما أمر فراقكم	فلا كان منكم ما جرى آخر عهد

أما بعد ، فهذا كتاب ممن ليلها فى نحيب ، ونهارها فى تعذيب ،
لاتركن إلى عاذل ولا تصغى إلى قائل ، قد غلبتها أبدى الفراق ، ولو

شرحت بعض ماعندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق ، ولكن أسأل
الكريم الخلاق رافع السبع الطباق أن يمن علينا بالتلاق وأنشدت تقول :

أحبة قلبى وإن جرتمو	على فكل المنى أنتمو
رحلتم وفى القلب خلفتم	لهيما فهلا ترفقتمو
وأودعتمو يوم ودعتمو	بأحشاي نارا وأضرمتمو
وما كنتمو تعرفون الحفا	على شوم بختى تعلمتمو

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام منى عليكم عدد شوقى
إليكم، ما حنَّ الغريبُ إلى الأوطان ، وغرد حمام الأيك^(١) على البان ،
فرحم الله من قرأ كتابى ، وتعطف برد جوابى وأنشدت تقول :

أحبابنا ما رقنا دمعى لفرقتكم	يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لى من بعدكم جلد	ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمن فؤادى بالهوى كذبا	ولست أول من بانت غواشيه ^(٢)

قال : ثم إنها طوت الكتاب ، وختمته بعد أن نثرت فيه فتات المسك
والعبر وناولتنى إياه ، فأخذته وأتيت إلى دار الأمير عمرو ، فوجدته فى
الصيد والقنص ، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به أقبل وهو راكب
على حصان أشقر من الخيل الضمر^(٣) يسارى ملك كسرى وقيصر ، من

(١) الأبك : الشجر الكثير الملتف .

(٢) بانت غواشيه ، يعنى : ظهر ما فى قلبها من المشق وشدة الشوق .

(٣) الخيل الضمر : هى التى تربط ويكثر لها الماء والعلف حتى تسمن ثم يقلل لها الماء
والعلف مدة ويجعلونها تركض فى الميدان حتى تهزل ، ومدة التضمير عند العرب
أربعون يوماً .

أولاد الأبحر الذى كان لعنتر إن طلب لحق وإن طلب لم يلحق ، والأمير على ظهره كأنه البدر فى منزلته ، والمماليك قد أحدقوا به كما تحدد النجوم بالقمر ، وهو بخد أسيل ، وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل ، وله عذار^(١) أخضر فوق خد أحمر ، وثغر جوهر ، وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر :

قمر تكامل فى نهاية حسنه	مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه	والشمس تغرب فى شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما	حسن البرية كلها من عنده

قال أبو الحسن : فما أمهلتته دون أن قبلت ركابه ؛ فلما انظر إلى ترجل ، واعتنقنى وأخذ بيدي وأدخلنى الدار وأنشد يقول :

ما أظن الزمان يأتى بهذا غير أنسى رأيتـه فى منامى

قال : فلما جلس على حافة البركة أقبل على يحدثنى ساعة ، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا وإذا عليها من ألوان الطعام مآدرج وتطابير فى الأسحار ، وتناكح فى الأوكار من : قطا ، وسمان ، وأفراخ حمام ، وبط مسمن ، ودجاج محمر ، وأفراخ رضع ، وعلبكات السكر ، فقال : لى بسم الله يا شيخ أبو الحسن ، فقلت : لا والله يا مولاي ما أكلت لك طعاما ولا شربت لك مداما إلا أن قضيت لى جاحتى ، فقال : يا أبا الحسن كان هذا من الأول أين الكتاب الذى للست بدور ، فقلت : ياسيدى وماهى الست بدور ؟ فقال : التى جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها ،

(١) عذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

ووجدت عندها الطبيب وجرى لك معها ماهر كيت وكيت ، فقلت :
يامولاي أكنت حاضراً فقال : لو كنت حاضراً فلأى شيء كتبت الكتاب ،
فقلت : هل جاء أحد من عندها وأعلمك ، فقال : إنه لا يجسر أحد من
غلمانها يقابلني ، فقلت : ولا راح أحد من عندك إليها ، فقال : هي أحسن
وأحقر من أن يمضي إليها أحد من عندي ، فقلت : يا سيدى الغيب لا
يعلمه إلا الله تعالى والروحى مانزل إلا على رسول الله ﷺ ، فقال : يا عاقل
أما سمعت قول القائل :

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين

فقلت : صدقت يامولاي ، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ثم بصق
وداسه برجله ورماه فى البركة فصعب على ؛ فلما علم منى ذلك قال : مم
غيطك أقعد الليلة عندى كل واشرب وخذ منى الخمسمائة دينار التى
وعدتك بها الست بدور ، وأنا أحب إليك منها ، وأنشد يقول :

رأيت شاة وذئبا وهى ماسكة بأذنه وهو منقاد لها سارى
فقلت أعجوبة ثم التفت أرى ما بين نايبه ملقى نصف دينار
فقلت للشاة ماذا الإلف بينكما والذئب يسطر بأنياب وأظفار
تبسمت ثم قالت وهى ضاحكة بالتبر يكسر ذاك الضيفم الضارى^(١)

قال : فلما سمعت كلامه يا أمير المؤمنين ، تقدمت وأكلت بحسب
الكفاية والنهاية ، ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينا البواطي

(١) الضَيْفَمُ : الذى بعض ويفترس بأسنانه ، وجمعها ضباغم.

والسلاحيات ، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب ، فقال : يا أبا الحسن ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء ، فقلت : يقال الشراب بلا طرب ولا سماع الدن^(١) أولى به .

فقال لى : قم بسم الله فقمتم معه إلى مجلس وحضيرة^(٢) تنقط بالذهب واللازورد العجيب وهى مزخرفة ، قد عبت أزهارها ، وضحكت سلاحيتها ، وصفت بواطئها ، ورفعت أقداحها ، فجلس الأمير عمرو وأجلسنى بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل ، فنظرت إلى مجلس عجيب وحظيرة مليحة ، ثم قلت : يامولاي قد تقدم القول : إن الشراب بلا سماع الدن أولى به ؛ فصفق بكف على كف ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار ، الواحدة : تحمل عودا ، والثانية : تحمل دفا ، والثالثة : تحمل مزمارا ، ثم نقرت الدفية على دفها ، وأصلحت العودية عودها ، وزمرت الزامرة بمزمارها فخیل لى أن المجلس الذى نحن فيه يرقص بنا ، ثم إن الدفية غنت تقول :

أحبابنا إنسى من يوم فرقتكم على فراش الضنى مازلت مضطجعا
داويت قلبى بحسن الصبر بعدكم عسى يفیق من الأنسقام مانفعا

فوالله ياأمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها ، فلما فرغت الدفية ، ضربت العودية على عودها طرقا عديدة ، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول :

(١) الدن : الذباب .

(٢) حضيرة : جماعة القوم . قيل هى فى الأصل تطلق على الذين يحضرون المياه أى ينزلون عليها فيقيمون بها ولايرحلون عنها .

أمونس طرفى لا خلا منك ناظرى	وجامع شملى لا خلا منك محلسى
ويا ساكنا قلبى ومافيه غيره	يحل فما استوحشت فيه لمونسى
وبالله يا عمن الورى من ملاحه	تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلنى الرضا أغهظ به العدا	ويا موحشى من بعد ماكان مونسى
رضاك الذى إن نلته نلت رفعة	وألبنى فى الناس أشرف ملبس

قال : والله ياأمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب ثم التفتت العودية نحو الدفية ، وقالت لها : يافلانة أتحسنى أن تقولى مثل هذا ؟ فقالت الدفية : أنا أحفظ أبياتا ما أظن أنك تحفظين لهن وزنا ولا قافية ولا عروضاً ، فقالت العودية : هات ما عندك ، فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهى تقول :

كرر وردد ذكرهم فى مسمى	فهم الشفا لتألمى وتوجمى
أقصر بعذلك يا عذول فإن لى	قلبا لعذلك لا يفتق ولا يعى

فقالت لها العودية : أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض ، فقالت لها الدفية : هات فضربت العود طريقة من اثنين واثنين ، وأربعة وأربعة ، وثمانية وثمانية ، وستة عشر وستة عشر ، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

إن لم أسل وادى الأسيل بأدمعى	اعلم بأنى فى الصباية مدعى
يا سعدان جئت الغوير وعانيت	عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفى	واحذر بصيدك لحظ ذات الهرقع

قال : والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام بعضنا ورقص ، فلما فرغت الحارية قال لها سيدها ، غنى لى عن الذى بقلبى وحدى ، فعندها ساوت عودها وقالت :

ماكنت أول راسق صبا صبا	نحو التصايى وهو فى عشر الصبا
فعلام يعذلنى العذول على البكا	لولا الغرام لها غلدوت معذبا
حكم الهوى بحكمه فى مهجتى	ولقد غذا قلبى به متقلبا
يا للرجال غبا الهوى بحشاشتى	نارا فما تعجو على ذاك العجا
ولقد سبى قلبى غزال لورأت	بلقيس طلعت له لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لى	مهلا رويدا أين منى تهربا

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشيا عليه
 فقالت الحارية : يامولاي إنه قد نام سيدى ، فإن اخترت أن تنام فقم نم
 فى مرقدك ، وإن اخترت الشراب فدونك ونحن بين يديك إلى الصباح ،
 فقامت ونمت .

فلما أصبحت قامت وسألت عن الأمير عمرو ، فقالت بعض
 الجوارى: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص ، فأخذت شاشا لألبسه فرأيت
 تحته كيسا فيه ألف دينار فأخذته وأتيت إلى الست بدورو إذا بها واقفة
 خلف الباب تنتظر وهى تقول :

يا رسولى إلى الحبيب اعتذر لى	فلعل الحبيب يقبل عذرى
ثم قل للحبيب عنى بلطف	أى ذنب جرى فأوجب هجرى

فلما رأتى قالت : ياشيخ أقمح أم شعير ؟ فقلت : لا والله ما هو إلا
 زوان والله مارضى يقرأ مكتوبا ، ولا يرد جوابك ، فرمت إلى صرة فيها
 مائة دينار ، وقالت : اذهب يا أبا الحسن ماضى الليل وأتى النهار على
 شىء إلا وأزاله وغيره ، وبغير الله ما فى القلوب ، ثم إنها أغلقت الباب فى

وجهي ، ومضت وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبي فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياما ، وأخذت رسمى وعدت إلى بغداد .

ثم إنني في السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ماجرت العادة به ، ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيباني ، لأتمتع بذلك الوجه المليح والقدر الجيـد فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد ؛ فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول :

يا دار أين ترحل الســـــــكان وسرت بهم من بعدها الأظمان
بالأمس كان بك الضياء مع الهنا واليوم فـى عرصاتك الغربان

فسمعت بعض الغلمان ، فظهر لى وقال : من ذا الذى يـكى على ديارنا ، ويندب منازلنا كفى بنا ماعندنا ، فقلت له : يا عبد الخير إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلى ، فما فعل به الزمان ؟ فقال لى الغلام : يامولاي هو فى قيد الحياة ، وهو يطلب الموت فلا يجده ، فقلت له : بالله عليك خذ لى الطريق ، فقال لى الغلام : يامولاي من أقول ؟ فقلت : قل الشيخ أبو الحسن الخليلي الدمشقي المسامر ، قال : فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لى : بسم الله ادخل فدخلت فوجدت الأمير عمراً نائماً وعند رأسه طبيب وهو يحس يده ، ويقول له : يا مولاي الضارب ضارب ، والساكن ساكن ، ولا برد ولا حمى ولا تشتكى غير سهر الليل وجريان الدمع لا يكون المولى إلا مسحوراً ، فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول :

قال الطبيب لقومى حين جس يدى هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت فى صفتى عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً^(١) فيه بعض دنائير ، فأخذها الطيب وانصرف ، ثم
التفت الأمير عمرو إلىّ ، وقال : يا شيخ أبو الحسن أما تنظر إلى هذا الحال
الذى وقعت فيه ، فقلت له : حاشاك من الأسوء ماسبب ذلك ؟ قال : ما
أعرف له سببا إلا أن هجر الست بدور قد قتلنى ، وجهها أضنى فؤادى ،
فقلت : يا مولاي بالعام الماضى تركتك أميرا واليوم أتيت لقيتك أسيرا ،
فما السبب ؟ فقال الأمير عمرو : يا شيخ إنى فى ليلة من الليالى ركبت فى
الشط وقد شحنت مركبى من سائر الأزهار ، والفواكه ، والرياحين ،
والطعام ، والدمام ، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار وقد
غرقنا فى البسط وبقينا فى لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول وإذا قد أقبل
من صدر الشط مركب وهى تغرب بالطارات والدفوف وتضىء كضوء
الشمس ، وفيها وهج عظيم فقلت : للملاح قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينما
أحسن تعبئة مركبنا أو هذه المركب ؟ فمددت عيني فرأيت صاحبتى الست
بدور وهى بين جواربها وغلماها تلعب وتضحك وهى مثل اسمها اسم
على مسمى ؛ فلما وقعت عيني كأنما رمت فى قلبى جمره نار فقلت فى
نفسى : ما فارقت هذا الوجه المليح بذنب ثم إنى تذكرت العهد القديم
الذى كان بيننا فلم أقدر صبرا فمددت يدى وأخذت تفاحة ورميتها إلى
الست بدور ، فالتفت فرأتنى فقالت : للملاح ارجع بنا إلى البر نحن
خرجنا هذه الليلة تنشرح ، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا ؛

(١) كاغِد : القرطاس يوضع فيه الدنانير .

فلما سمعتها تشتمنى أضمرت^(١) النار فى قلبى ، ثم قلت : لنفسى أنت المطلوب فصرت الطالب فلم يهنا لى عيش فى هذه الليلة ، وقلت : للملاح ارجع إلى الشط ، ثم إنى نزلت ومضيت إلى منزلى وما ذقت طعم المنام .

فلما أصبحت لم يقر لى قرار وصرت أترقب أن يأتى أحد من عندها ثلاثة أيام ، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكرى لها فدعت عليهم وشتمتهم ، فكبت لها بعد ذلك ألف كتاب ، فلم ترد لى جوابا وقد رميت روحى على كل كبير فى البصرة فيدخلون عليها ، فلم تقبل ولم تزد إلا حفاء ولى مدة أنتظرك يا شيخ أبو الحسن ، حتى أبعث معك كتابا وأنا أحلف لك إن هى ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار ، فقلت له : اكتب فدعا بدواة وقرطاس ، وكتب فى أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ، ويسألك بالله أن تردى جوابه ، أما بعد ؛ فلنه يعجز لسانى ويكل جنانى مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر ، وبكى لبكائى صم الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك . ثم ختم الكتاب ، وناولنى إياه ، فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور ، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخى وبواب وخادم .

فقلت : لا إله إلا الله ، كان هذا الباب بالأمس خاليا من الأصحاب واليوم عليه خادم وبواب ، ثم إنى تقدمت إلى الخادم وقلت له : قم يا ولدى ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها : الشيخ أبو

(١) أضمرت النار : اشتعلت .

الحسن الخليع الدمشقى قد أتى ويطلب التمثل بين يديك فغاب الخادم ثم عاد مسرعا ، وقال : بسم الله ادخل فدخلت الدهليز فسمعت بدور هى تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره حتى يعود كما أريد وأشتهى

قال : فلما دخلت رأيته قاعده على حافة البركة وبين يديها جارية تروح عليها فتقدمت ، وقبلت يدها وجلست فنظرت ، وإذا عليها غلالة لازوردية^(١) وجميع جسدها بائن من تحت الغلة ، كأنه عمود مرمر ، وعلى الغلالة مكتوبة هذه الأبيات :

أقبلت فى غلالة زرقاء	لا زوردية كلون السماء
فأملت فى الغلالة ألقى	قمر الصيف فى ليالى الشتاء
ليتنى كنت للمليحة عقدا	أو برقعا للوجه مثل الرداء
أو قميصا من الحرير خفيفا	لاصقا للفؤاد والأحشاء
ضربتني بخنجر العشق حتى	صرت ملقى مختضبا بدمائى
تركتنى على الطريق ونادت	من يصلى على قتيل هوائى

ثم إنى لما فرغت من قراءة الأشعار ، قالت لجارتها : هات لى بدلة قماش ثم غيرت ماكان عليها وجلست ، ثم أمرت بإحضار المائدة ، وقالت : بسم الله كل يا أبا الحسن فقلت : لا والله لا أكلت لك طعاما ولا شربت عندك مداما حتى تقضى حاجتى ، فقالت : كان هذا من الأول ، لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا .

(١) غلالة لازوردية : شعار رقيق يلبس تحت الثوب .

فقلت لها : أنا ما رحت ، فقالت : تكون شيخا وتكذب ! أنت ما عبرت عنده ولقيت الطبيب وهو يقول له : كيت وكيت وجري لك معه كذا وكذا وهذا الكتاب فى طى عمامتك ، وبالأمانة قال لك إن رددت الجواب أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد لى الجواب أعطتك مائة دينار ، فقلت : ياستى من أعلمك بهذا ، فقلت : أليس القائل يقول :

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون

وأنا يا شيخ أبو الحسن أعشقت منه وأرى أكثر مما يراه ، فقلت : صدقت يامولاتى كان ذلك ، ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه وداسته ورمته فى البركة ، فلما رأيت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا بذاك وقرض الدين لا بد له من وفاء إلا أنه حصل لى بعض غيظ على الألف دينار التى تفوتنى ، فنظرت إلى وعرفت منى ذلك فقالت : يا شيخ أبو الحسن مم غيظك إن كان وعدك بألف دينار فبت الليلة عندى ، وكل ، واشرب ، والتذ ، واطرب ، وخذ لك غدا منى ألف دينار ، وامض فى وداعة الله .

فقلت : ياسيدتى يكاد الأمير عمرو أن يموت ، فقالت : دعنا من هذا الكلام . ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية ، فلما فرغنا ، قالت : يا شيخ أتعرف لعب الشطرنج ، قلت : ما ألعب إلا على الحكم والرضا . فقالت : نعم ، ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست^(١) الأولى فغلبتنى ، فأمرت الجوارى أن يرمونى فى البركة ، فمسكرونى ورمونى فى البركة وضحكت على ساعة ثم أخرجونى وقد

(١) الدُستُ : الجولة من لعب الشطرنج .

ابتلت جميع حوائجي ؛ فلما رأتني على تلك الحالة أمرت ببدة من القماش من أفخر الملبوس فلبستها ، فقالت : أتلعب أيضا على الحكم والرضا ؟ قلت : نعم فلعبنا فتغايرت عليها وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وأشغلتها ، وسرقت القطع إلى أن غلبتها ، وتحكمت فيها وقلت : أريد الألف دينار وجواب الكتاب ، فأعطتني الألف دينار وطلبت الدواة والقرطاس ، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها كتبت تقول :

ألا يا عمرو كم هذا الغناء	وكم هذا التحلـد والإذاء
كتبت إلى تشكو ما لا تلاقي	من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لا يزال بطول دهر	وداء ماله أبدا دواء
ولو ساعدتنا ياعمرؤ يوما	لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش صبا ومت كمدا حزينا	فواحدة بواحدة جزاء

فلما فرغت ، تناولتني الورقة قرأتها فقلت : ياستى بالله عليك لا تفعلى وارحمى الأمير عمراً أو اكبتى له غير هذا ، فقالت : ياشيخ أبو الحسن أنت رسول وإلا فضولى ؟ فقلت لها : رسول ، وفضولى ، وطفيلى ، ويعظ القطط ، ويحلف أنه ما يبيت إلا فى الوسط ، ويفنى بليت بكم .

قال : فضحكت من كلامى ، وقالت : حكمتك فى نفسى ، فقلت : ياستى بدور أين تلك المحبة التى كنت تحبينها للأمير عمرو ، فلو أبصرته ما عرفته من شدة ما يقاسى من الأسقام ، والآلام والأمراض ؛ فلما سمعت ذلك قالت : أخبرنى عن أقوى شيء به من المرض فقلت : ياسيدتى ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض فتفرغت عيناها بالدموع ، ثم قالت : يعز على ما وصفت لى عنه وروحى لروحه الفداء ، فالحمد لله

الذى جعل اجتماعنا على يدك . ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت
فى أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم إنها ابتدأت وتقول :

وصل الكتاب فلا عدت أناملا	عنيت به حتى تضروع طيبا ^(١)
ففضضته وقرأته فوجدته	لخفى أوجاع القلوب طيبا
فكان موسى قد أعيد لأمه	أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الأرض ، وتنهى أن شوقها شديد وغرامها ما عليه من
مزيد ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد وأقول:

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى	لمقامكم قعدت بى الأيام
والله إنى لروصفت صبايتى	ففى المداد وقلت الأقلام

ثم إنها نثرت فيها فتات المسك والطيب ، وطورتها وحقققتها ،
وناولتنى إياها فأخذتها وقمت مسرعا وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير
عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول :

ترى حرمت كتب المحبة بيننا	أسحر أم القرطاس أصبح غالبا
---------------------------	----------------------------

فاستأذنت عليه ودخلت ، فلما رآنى قال لى : أقمح أم شعير ، فقلت
له : قمح مغربل ليس فيه كدر ، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ؛ فلما فهم
معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال :

هجم السرور علىّ حتى أنه	من عظم ماقد سرنى أبكاني
يا عين قد صار البكا لك عادة	تبكين فى فرح وفى أحزان

(١) تضروع طيبا : انتشرت منه رائحة الطيب .

فلما فرغ من البكاء قال لى : يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر
يزوب لعل أن تكون صنعت هذا الكتاب من عندك ، فقلت : يا مولاي
والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها فبينما هو يخاطبني إذا هي
عبرت علينا وهي تخطر في قوامها وهي تنشد وتقول :

نزوركم لا نأخذكم بحفوتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائما على قدميه ورمى بروحه عليها
واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية ، فقامت على أن أخلى لهما المكان ، فقالت
الست بدور : إلى أين تروح يا شيخ ، قلت : أخلى لكما المكان ، لأنكما
ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة ، فقالت : لا تفارقني من الساعة إلى
الصباح فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا
الطعام المفطر ، وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له
بالماء فغسل يديه وغسلنا أيدينا وانتقلنا إلى مجلس الشراب وبتنا فى لذة
ورأيت الماوية تدب فى وجه الأمير عمرو^(١) ، فلما أصبحت قال : يا شيخ
أبا الحسن امض وأتينا للقاضى والشهود ، فلم يكن بأسرع مما أحضرتهم
، فقالت الست بدور للقاضى : اكتب كتابى على الأمير عمرو ، وقد وليت
الشيخ أبا الحسن عقد النكاح ، فخطب القاضى خطبة النكاح وعقد العقد
بينهما ، فرسم الأمير عمرو للقاضى بألف دينار وللشهود بمائتى دينار ،
وعمل الوليمة ، وطبخ الطعام وعمل الحلوات وجمع الناس ، ووضع بين
أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد ، وزفت الست بدور تلك الليلة على
الأمير عمرو .

(١) رأيت الماوية تدب فى وجه الأمير : كان الدم جرى فى عروى وجهه .

فلما وقفوا على المنصة ، قلت : ما تصلح إلا لة ولا يصلح إلا لها ، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها ، ثم تقدمت إلى الأمير عمرو وقلت له : يا مولاي ، المثل يقول : العصفور يتغلى والصيد يتغلى وأنتم تقولون وا طرباه ، وأنا أقول وا حزناه ، فقالت الست بدور : مامعنى كلامك هذا ؟ قلت : ياسيدتي الأمير عمرو وعدني بوعده والوعد على الكرماء دين ، فقالت الست بدور : صدق الشيخ أعطه الذى وعدته به ، فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه أعط الشيخ أبا الحسن ألفا وخمسمائة دينار ، ويستحق والله أكثر من ذلك ، فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولنى إياه ، واعطتنى الست بدور مثله ، ثم إنى ودعتهم وخرجت إلى أن أتيت إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبي ، وقعدت عنده على عادتي ، وأخذت رسمى الذى لى عليه فى كل سنة ، وعدت إلى بغداد ، فما رأيت سنة أبرك على منها حصل لى فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا جملة الحديث .

فتعجب الخليفة ، وقال : ماقصرت ياشيخ أبو الحسن خذ من جعفر ألف دينار، لأنك أنت الذى أزلت عنى ما بقلبي ، فقال جعفر : ومن عند أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذى أزال عنه ماكان يحده ، فقال أبو الحسن : صدق الوزير أبقاه الله تعالى ، ثم أنه قبض الألفى دينار ومضى إلى منزله والله أعلم .

[٨٦] قال : أبو القاسم عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة عبد المجيد بن عبدون^(١) : جعفر البرمكى هو : جعفر بن يحيى بن خالد

(١) أبو القاسم عبد الملك بن بدرون : أديب أندلسى من أهل شلب . اشتهر بكتابه شرح قصيدة ابن عبدون ، سماه "كمامة الزهر وفريدة الدهر" ، ت[٦٠٨هـ-١٢١١م] .-

بن برمك. والبرمك^(١) هو الذى يعمر بيت النور ، وهو بيت النار ، وكان برمك من مجوس بلخ ، وكان عظيم القدر فيهم وولده خالد ، فلما كبر صار وزيراً لأبى السفاح بعد أبى سلمة الخلال^(٢) ، وقتل هارون الرشيد ، جعفر سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يبلغه وزير من خليفة قبله، حتى كان يجلس معه فى حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان ، على ماذكره المخبرون ، حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده^(٣) .

[٨٧] فمن ذلك ، ماحكاه ابن النهدي ، [عن] عثم الرشيد وهو : إبراهيم المعروف بابن شكلة^(٤) ، وكانت شكلة أمة سوداء ، وقد ذكر أن إبراهيم كان أسود شديد السواد، وكان من الطبقة العليا فى صنعة العود .

انظر : هدية العارفين (١/٦٢٧) . وصاحب القصيدة المشروحة هو : عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون ، الفهرى اليابرى ، ذو الوزارتين : أديب الأندلس فى عصره، من وزراء بنى الأفطس . كان عالماً بالتاريخ والحديث ، والقصيدة فى رثاء بنى الأفطس ، ت[٥٢٩هـ-١١٣٥م] . انظر : كشف الظنون ص ١١١٩ .

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٣/٤٩٢) .

(٢) أبو سلمة الخلال : وزير السفاح ، وقائد عباسى . اغتيل بسبب ميله إلى البرامكة ت[١٣٢هـ-٧٥٠م] .

(٣) تقدمت ترجمة جعفر فقرة ٥٨ .

(٤) إبراهيم بن محمد المهدي ابن عبد الله المنصور العباسى ، ابن شكلة : أخو هارون الرشيد ، ولد ونشأ فى بغداد وولاه الرشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ثم أعاده إليها . ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، -

قال : قال لى جعفر يوما : يا إبراهيم إذا كان غدا فبكر لى ؛ فلما كان الغد مشيت إليه بكرة ، فجلسنا نتحدث ؛ فلما ارتفع النهار أحضر حماما فحجمنا ، ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ، ثم خلع إلينا ثياب المنادمة ؛ وقال جعفر لخدامة : لا يدخل علينا أحد إلا عبد القهرمانى ، فنسى الحاجب ما قال له ، فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى^(١) ، وكان رجلا من بنى هاشم ذا ملاحه وعلم وحلم ، وجلالة قدر ، وفخامة ذكر ، وصيانة وديانة ، فظن الحاجب أنه الذى أمره بإدخاله عليهما .

فلما رآه جعفر تغير لونه ، فقال له عبد الملك بن صالح لما رأيهم على تلك الحالة وظهر له أنهم احتشموه أراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم فى فعلهم فقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم ، فجاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ، ثم جلس للشراب ؛ فلما بلغ ثلاثا ، قال للسانى : لتخفف عنى ، فإنى ما شربته قط ، فتهلل وجه جعفر ، فقال له : هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟ قال : بلى ، إن أمير المؤمنين على غاضب فسله الرضا عنى . قال :

فأهدر دمه فجاءه مستسلما ، فسحنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله ، فاعتذر فعفى عنه . وأمه جارية سوداء اسمها شكلة ، نسبته إليها خصومه . ت [٢٤٤هـ - ٨٣٩م] .

(١) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى : أمير من بنى العباس ، كان فصيحاً ، خطيباً له مهابة ، ولأه الهادى إمرة الموصل [١٦٩هـ] وقام الرشيد بعزله [١٧١هـ] ثم ولأه المدينة ودمشق وأقام فيها أقل من سنة ، وبلغ الرشيد أنه يريد الخلافة فحبسه ببغداد وتوفى فيها [١٨٧هـ] .

قد رضى عنك أمير المؤمنين . قال : على أربعة آلاف دينار ، قال : هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين . قال : وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال : قد زوجه أمير المؤمنين بابنته عائشة . قال : وأحب أن تحقق الألوية على رأسه ، قال : نعم قد ولاه أمير المؤمنين مصر ، قال إبراهيم بن المهدي : فأنصرف عبد الملك بن صالح ، وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان .

فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى ، ومحمد بن واسع ، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وكتب سحر إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلى ؛ فلما سار إلى منزله ، ونزلت بنزوله ، التفت إلى وقال : لعل قلبك معلق بأمر عبد الملك بن صالح ، فأحببت معرفة خبره ؟ قلت : نعم . قال : إنى لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت قال الرشيد : أحسن والله ، ثم قال : ما صنعت ؟ فأخبرته عما سأل ، وبما أجبته فى ذلك ، فقال : أحسنت ، وخرج إبراهيم واليا على مصر فى يومه ، والله تعالى أعلم^(١) .

[٨٨] قال إبراهيم بن إسحاق : كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم بمنزلى ، وإذا ببابى يدق فخرج غلامى وعاد ، وقال لى : على الباب فتى جميل يستأذن فأذنت له ، فدخل شاب عليه أثر السقم ، فقال

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٦٥ .

لى: مدة أحاول لقاءك ، ولى إليك حاجة . فقلت : وماهى ؟ فأخرج
ثلثمائة دينار فوضعها بين يدى وقال : أسألك أن تقبلها منى وتصنع لى لحنا
فى بيتين قتلتهما ، فقلت أنشد نيهما فقال :

بالله يا طرفى الجانى على كبدى لتطفئن بدمعى لوعة الحزن
لا لا أبوحن حتى تنزلى سكنى فلا أراه ولو أدرجت فى كفى

قال : فصنعت لهما لحنا يشبه النوح ، ثم غنيته فأغمى عليه حتى أنى
ظننت أنه مات ، ثم أفاق وقال : أعدده فناشدته الله ، وقلت : أخشى أن
تموت ، فقال : ليت ذلك ومازال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته ،
فصعق صعقة أشد من الأولى ، فلم أشك فى موته ومازالت أنضح عليه من
ماء الورد ، حتى أفاق ، ثم جلس فحمدت الله على السلامة ووضعت
دنانيره بين يديه ، وقلت : خذ مالك وانصرف عنى ، فقال : لا حاجة لى
بها ولك مثليها إن أعدته فشرهت نفسى ، فقلت : أعيده ولكن بثلاثة
شروط أولها : تقيم عندى تاكل من طعامى حتى تنقوى نفسك ، الثانى :
أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك ، الثالث : أن تحدثنى بحديثك
ففعل ذلك، ثم قال : إنى رجل من أهل المدينة خرجت متنزها وقد سال
المطر فى العقيق مع إخوانى ، فرأيت فتاة مع فيئات كأنها غصن جلله
الندى تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فأظللن حتى فرغ
النهار ، فانصرفن وقد رمت بقلبي جراحا بطيئة الإندمال ، فعدت أننسم
أخبارها ، فلم أجد أحدا يرشدنى إليها فجعلت أتبعها فى الأسواق ، فلم
أقع لها على خير ومرضت أسى ، وحكى قصتى لذات قرابة لى ، فقالت :
لابأس عليك هذه أيام الربيع ما انقضت وستمطر السماء ، فتخرج حيثشذ
وأنا أخرج معك فافعل مرادك ، قال : فاطمأنت نفسى بذلك إلى أن سال

العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إختوتى وقرابتى ، فجلسنا فى مجلسنا بعينه ، فما لبثنا إلا النسوة كفرسى رهان ، فقلت لذات قرابتى :
قولى لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل : لقد أحسن من قال :

رمتى بسهم أقصد القلب واثنت وقد عاودت جرحا به وندوبا

قال : فمضت إليها ، وقالت لها : ذلك ، فقالت : قولى له وقد
أحسن من أجابه :

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجا يشفى القلوب قريبا

قال : فأمسكت عن الكلام خوفاً الفضيحة ، وقمت منصرفاً ،
فقامت لقيامى ، فتبعتهما قريبتى حتى عرفت منزلها ، ورجعت فأخذتني
وسرنا إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها ،
فلم أزل محتهداً فى لقائهما فلم أقدر وشكوت ذلك إلى أبى فجمع أهلنا
ومضى إلى أبيهما راغباً فى خطبتها ، فقال : لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها
لفعلت ، ولكنه أشهرها ، فما كنت لأحقق قول الناس .

قال إبراهيم : فأعدت عليه الصوت وعرفنى منزله ، ثم انصرف
وكانت بيننا عشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ، وحضرت على عادتي
فغنيته شعر الفتى ، فطرب وشرب أقداحاً ، وقال : ويلك لمن هذا الصوت؟
فحدثته حديث الفتى ، فأمرنى بالركوب إليه وأن أجعله على ثقة من بلوغ
أربه ؛ فمضيت إليه وأحضرتة ، فاستعاد الحديث فحدثه ، فقال : هى فى
ذمتى حتى أزوجهك إياها فطابت نفسه ، وأقام معنا؛ فلما أصبح ركب
جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاستظرفه وأمر أن يحضرا جميعاً واستعاد

الصوت وشرب عليه ، فأمر بكتب كتاب إلى عامل الحجاز بإحضار المرأة وأهلها ووالدها مبجلين إلى حضرته ، والإنفاق عليهم نفقة واسعة فلم يمحض إلا يسير حتى حضروا فأشار الرشيد بإيصال الرجل إليه فحضر وأمره بتزويج ابنته من الفتى ، وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ؛ ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث ما حدث ، فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين .

حكاية أجنبية

[٨٩] [قيل] : مما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان ، كان قد أهدى له غلام من النصارى لاتقع العيون على أحسن منه ، فلمحه الملك الناصر ، فقال له : أتى لك ؟ قال : هو من عند الله ، فقال : تتحفونا بالنعوم وتستأثرون بالأقمار ، فاعتذر إليه ، ثم احتفل فى هدية بعثها إليه مع الغلام ، وقال له : كن داخلا فى جملة الهدية ، ولولا الضرورة ماسمحت بك نفسى وكتب معه هذه الأبيات :

أمولاي هذا البدر سار لأفكم وللأفق أولى بالدور من الأرض
أراضيكم بالنفس وهى نفيسة ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

قال : فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكن عنده ، ثم بعد ذلك أهديت للوزير جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى^(١) ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية ، وكتب معها هذه الأبيات :

(١) ينهى ذلك إلى الناصر : أى يبلغه العبر .

أمولاي هذى الشمس والبدر أولا
قران لعمرى بالسعادة ناطق
تقدم كهلا يلتقى القمران
قدم معهما فسى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث
ومالك فى ملك البرية ثانى

قال : فتضاعفت مكاتته عنده ، ثم وشى به بعض أعدائه عند الناصر ؛
أن عنده بقية من حب الغلام وأنه لايزال يلهج^(١) بذكره حين تحركه
الشمول^(٢) فيقرع السن على تعذر الوصول إليه ، فقال الناصر للواشى ،
لا تحرك به لسانك وإلا طار رأسك ، وكب على لسان الغلام ورقة فيها :
يامولاي تعلم أنك كنت لى على الانفراد ولم أزل معك فى نعيم ، وأنا وإن
كنت عند السلطان مشاركا فى منزله محاذرا ما يبدو من سطوة الملك ،
فتحيل فى استدعائى منه . ثم بعثها مع غلام صغير ، وأوصاه أن يقول : هى
من عند فلان ، وأن الملك لم يكلمه قط ، فلما وقف عليها أبو عامر
واستخبر الخادم ، أحسن بالمكيدة فكتب على ظهر الورقة يقول :

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى
ولا أنا ممن يغلب الحب عقله
لدى سقوط العير فى غابة الأسد
ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا
وكيف ترد الروح إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب ، تعجب من فطنته ولم يعد إلى
سماع واشٍ فيه بعد ذلك ، ثم قال له : كيف خلصت من الشرك ؟ قال :
لأن عقلى بالهوى غير مشترك .

(١) يلهج : يولع .

(٢) الشمول : العمر .

٧- فصل

وهذا سبب قتل البرامكة وماوقع لهم مع الرشيد^(١)

[٩٠] والقصة فى ذلك على مارواه إبراهيم بن إسحاق عن أبى ثور زاهر بن صقلاب ، قال : بلغنى أنه كان لهارون الرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى ، فقال له يوما : لا يطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى ميمونة ، ولكن لا يجوز إلا إن كتبت لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقربها ، فاتفقا على ذلك ، وعقد له عليها ، ثم أحضرها فكانت تحضر لذلك المجلس إلا أنه زاد غرامها وعشقها فيه ، وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين له الحوارى كل ليلة ، فجاءت ميمونة لها وأرشتها بمال فزيتها له ، وأدخلتها عليه ، فظن أنها جارية فواقعها ؛ فلما أصبحوا ، قالت له : أنا ميمونة وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى ؛ فلما أيسست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة ، وإن لم تواظب لأكونن سببا فى سلب نعمتك ، وهل أنت إلا زوجى .

فقال لها جعفر : ويحك أهلكينى وأهلكت نفسك وكان كما قال ، ولم يزورها حتى ظهر أمرها للرشيد . فهذا كان سبب قتل البرامكة ، وهذا ابتداء الحديث .

(١) انظر : البداية والنهاية (١٨٩/١٠-١٩٤) ، تاريخ بغداد (١٥٢/٧) ، تاريخ الطبرى

حوادث سنة [١٨٧هـ] ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ .

[٩١] قال المبرد : قال أبو عبد الله المارستاني ، عن يحيى بن أكثم القاضي^(١) ، قال : سألت إسماعيل بن يحيى الهاشمي ، عن سبب زوال نعمة البرامكة ؟ قال : نعم أعرف صحة الخبر وباطن القصة ، كان سبب ذلك : أني كنت مع الرشيد يوماً من الأيام راكباً إلى الصيد فبينما نحن نسير ، إذ نظر إلى موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لي : يا إسماعيل لمن هذا؟ فقلت : هو لأخيك جعفر بن يحيى ، فالتفت يميناً وشمالاً إلى من معه في موكبه ، فإذا هو شرذمة يسيرة ، ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره ، فقال : يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقلت : يأسى قد مضى أخوك في طريق ولم يعلم بموضعك ، فقال : ما رأنا أهلاً أن يزينا بموكبه ويحملنا بجيشه؟ فقلت : العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ماتعداك ، وما سار إلا بين يديك واعتذرت بما حضر لي من الكلام .

ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ، ومواش كثيرة ، وعمارة حسنة ، وكان الطريق يدور عليها ، فدرنا حتى وردنا باب القرية ، فنظر

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي : قاض ، رفيع القدر ، عالي الشهرة ، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب ، اتصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة [٢٠٢هـ] ثم قضاء القضاة ببغداد ، وأضاف إليه تدبير الخلافة ، فكان وزراء الدولة لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء إلا بعد عرضه عليه . وله غزوات وغارات منها أن المأمون وجهه [٢١٦هـ] إلى بعض جهات الروم فعاد ظافراً ، وكان يُتهم بأمور شاعت عنه ، وتناقلها الناس ولكن ذلك من حسد الناس له ، وكفى بآبن حنبل لما ذكر ذلك أمامة ، قال : سبحان الله سبحان الله ، ومن يقول هذا ١٤ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وقال فيه : ما عرفت فيه بدعة ، ت [٢٤٢هـ - ٨٥٧م] . انظر : طبقات الحنابلة (١/٤١٠) ، وفيات الأعيان (٢/٢١٧) .

الرشيد إلى البيدر^(١) ، وإلى كثرة الغلال فيه ، والمواشى ، ويسار أهلها .
فالتفت إلى وقال : يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ قلت : لأخيك جعفر بن
يحيى ، فسكت ثم تنفس الصعداء ، ثم سرنا ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر
من الأخرى ، وكلما مر وسألنى عن ضيعة ، قلت : لجعفر بن يحيى ، حتى
سرنا ووصلنا إلى المدينة ؛ فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزله نظر إلى
من كان حواليه نظرة فعلموا ما أراد ففرقوا ، وبقيت أنا وهو ، فقال : يا
إسماعيل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال : انظر إلى البرامكة
أغنياهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم ، فقلت فى نفسى : بلية والله ، ثم
قلت : لماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نظرت لهؤلاء وغفلت عن هؤلاء لأنى
لا أعرف لأحد من أولادى ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد على
قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على هذا الطريق فى سائر
البلدان ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات
وأموالهم وكل ما يملكون لك ، فنظر إلى نظرة جبار عنيد ، ثم قال : ما
عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وأنهم هم الدولة ، وأن لانعمة لبنى
العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها ، فقلت : أمير المؤمنين أبصر من
غيره بخدمة ومواليه ، فقال : والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا
وكأنى أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يدا وإنى آمرك أن تكتم
هذا الأمر ، فإنه ما علم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شئ مما جرى ،
علمت أنه ما أنشاه إلا أنت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون
مثلى يفتشى سرى .

(١) البيدر : الموضع الذى يجمع فيه الحصيد .

قال : وكان هذا القول أول مظهر من أمر البرامكة ؛ ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى إيقاع الحيلة عليهم .

فلما كان من الغد بكرت إليه وجلست يمين يديه ، وكان فى محل يشرف على الدجلة من شرقى مدينة باب السلام ، وبأزائه منزل جعفر من الجانب الغربى ، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إلى وقال : يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب ، وأنا ماعلى باب دارى أحد ، فقلت : يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن لاتعلق نفسك بشيء من هذا ، وإن جعفر إنما هو عبدك ، وخادمك ، ووزيرك ، وصاحب جيوشك ، إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ، إنما باب من أبوابك ، فقال : يا إسماعيل انظر إلى دوابهم ألسنت ترى إعجازهم إلى قصرى وتروث بأزائنا ، ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه ، والله لا أصبر على ذلك ، ثم غضب غضبا شديدا وامتلا غيظا فأمسكت عن الكلام ، وقلت : والله هذا قضاء من الله سابق وحكم لا محالة واقع ، ثم استأذنته فى الانصراف ورجعت إلى منزلى ؛ فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد ، فتواريت عنه حتى مضى ، فدخل إليه وسلم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الإكرام ، وبش فى وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادما من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجهها ، وأكملهم ظرفا ، كاتبا حاسبا ليبيا ؛ فسر جعفر سرورا كاملا ، ووقع فى قلبه أجل موقع ، وكان دسيسا عليه وبلية لديه ، يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتا بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلة واحتجب من أجله عن الناس .

فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف ، وعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا ؛ فقلت : أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام ، قال : تكلم وكان الرشيد ولاء كورة خراسان كلها وما يضاف وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها وهم متاهبون للسفر ؛ فقلت : يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلك عندك ، فلما قلت ذلك نظر إلى مغضبا ، وقال : والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك ؛ أو قال صاحبك إلا بفضللى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا ، أما كفى أنى تركته لايهتم بأمر شىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولا زالت للأمور الحليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألتنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا ، فقلت : والله ياسيدى ما كان مما ظننت شىء ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف ، قال : فما هذا الفضول منك ، فقعدت بعدها هنيهة ثم ، قمت إلى منزلى ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حال تهمة ، وقلت فى نفسى : هذا الخليفة وهذا وزيره ، وأى شىء لى بالدخول بينهما ، ولا شك فى زوال نعمة البرامكة وإن أمورهم قد انثلت^(١).

(١) انثلت : اختلت .

قال : وحديثى خادم أم جعفر أن الخادم الذى وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بينى وبينه وما تكلم به من الكلام الغليظ . قال : فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلثه أيام متفكرا فى إيقاع الحيلة على البرامكة ، فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما فى قلبه وأطلعها على الكتاب الذى رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة ؛ فلما تملك الحجة عليه بالغت فى المكر بهم ، واجتهدت فى هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها ، فقال : أشيرى على برأيك الموافق الرشيد ، فإنى خائف أن يخرج الأمر من يدي إن تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها .

فقلت : يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثّل رجل سكران غريق فى بحر عميق ، فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هو أصعب عليك وأعظم من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتك ، فقال لها : قد كان ما كان فقولى أسمع منك . فقلت : إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك ، وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع ، فقال لها : ويحك وما هو ؟ فقلت : أنا أجل من أن أخاطبك به ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا ، فإنه يعرفك الخبر وكان الرشيد قد أحل جعفرا محلا لم يحله أخاه ولا أباه وأمره أن يدخل على الحريم فى السفر والحضر وأبرز إليه حواريه وأخواته وبناته ، لأنه كان بينهما رضاع سوى امرأته زبيدة ، فإنه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ولا هى أيضا تستقضىه حاجة ، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة ، وجدت سبيلا على البرامكة فحطت على جعفر ، وكان جعفر

يدخل الحريم فى غياب الرشيد ، ويقضى حوائجهم لأنهن لا يسترن منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ولم يعلم الرشيد ما حدث من جعفر .

قال : فخرج الرشيد واستدعى بأرجوان الخادم وأحضر السيف والنطع ، وقال : برئت من المنصور إن لم تصدقنى فى حديث جعفر لأقتلك ، فقال : الأمان يا أمير المؤمنين قال : نعم لك الأمان ، فقال : اعلم إن جعفرأ قد خانك فى أختك ميمونة ، وقد دخل بها منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاث بنين ، أحدهم له ست سنين ، والآخر له خمس سنين ، والثالث عاش سنتين ومات قريبا ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ ، وهى حامل بالرابع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك ، وأمرتني أن لا أمنعه فى أى وقت شاء ليلا أو نهارا ، قال : أمرتك أن لاتحجبه ، فحين حدثت هذه الحادثة لم لا أخبرتنى أول مرة ، ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته على الفور ودخل على زبيدة وقال لها : أرايت ماعاملنى به جعفر ، وما ارتكب من هتك سترى ونكس رأسى ، وفضحنى بين العرب والعجم ، فقالت : هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة جبار فى نفسه ، أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله ، وهى أحسن منه وجها ، وأنظف منه ثوبا ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلا قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب .

فخرج من عندها مكروبا فدعا بخادمه مسرور ، وكان قاسى القلب فظا غليظا ، قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال : يا مسرور إذا كانت الليلة بعد العتمة فأتنى بعشرة من الفعلاء أجلاذ ، ومعهم خادمان قال : نعم ،

فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلاء والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشيء ولم يعاتبها على ما فعلت وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ، ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها ، وقد علمت أنها بعد قتل أرجوان لاحق به ؛ فلما علم أنه استوثق بها ، دعا بالفعلاء ومعهم المعاول والزنايل فحفروا وسط تلك المقصورة ، حتى بلغوا الماء ، وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة ، ثم قال : ردو التراب عليه ففعلوا وسووا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وجلس فى مرضعه والفعلاء والخادمان بين يديه ، ثم قال : يامسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى وسط الدجلة ، ورجع من وقته ، فوقف بين يديه فقال : يا مسرور فعلت ما أمرتك به ؟ قال : وفيت القوم أجورهم ، فدفع إليه مفتاح البيت وقال احفظه حتى أسألك عنه ، وامض الآن فانصب فى وسط المحل القبة التركية ، ففعل ذلك ووافاة قبل الصبح ، ولم يعلم أحد ما يريد .

فلما جلس فى مجلسه وكان يوم الخميس يوم مركب جعفر ، قال : يا مسرور لاتباعد عنى ، ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ، ودخل جعفر بن يحيى البرامكى فسلم عليه فرد عليه السلام أحسن رد ، ورحب به وضحك فى وجهه ، فجلس فى مرتبته وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أمير المؤمنين ، ثم حدثه ساعة وضاحكه ؛ فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحي ، فقرأها عليه وأمر ونهى ، ومنع ونفذ

الأمر ، وقضى حوائج الناس ؛ ثم استأذنه جعفر فى الخروج إلى خراسان فى يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد : كم مضى من النهار ؟ قال : ثلاث ساعات ونصف ، وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ، ونظر فى نجمه ، فقال : يا أخى هذا يوم نحوسك ، وهذه ساعة نحس ولا أرى إلا أنه يحدث فيها حدث ولكن تصلى الجمعة وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهر اوان ، وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار ، فإنه أصلح من اليوم . فما رضى جعفر بما قاله الرشيد ، حتى أخذ الإصطرلاب^(١) من يد المنجم ، وقام وأخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه ، وقال : والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجما أشد احتراقا ، ولا أضيئ مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ، ثم قام وانصرف إلى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويحجلونه إلى أن وصل إلى قصره فى جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس ؛ فلم يستقر به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسرورا ، وقال له : امض إلى جعفر واتنى به الساعة ، وقل له : وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحد يدخل معه من غلمانه بل يدخله وحده ، فإذا دخل فى صحن الدار فعمل به إلى القبة التركية التى أمرتك بنصبها فاضرب عنقه ، وأتنى برأسه ولا ترقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ، ولا تراجعنى فى أمره ، وإن لم تفعل أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسه جملة ، وفى دون هذا كفاية ، وأنت أعلم ، وتبادر قبل أن يبلغه الخبر من غيرك .

(١) الإصطرلاب : هو ميزان الشمس وهى كلمة يونانية .

فمضى مسرور ، واستأذن على جعفر فدخل عليه وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح ، فقال : سيدى أجب أمير المؤمنين ، قال : فانزعج وارتاع منه ، وقال : ويلك يا مسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ قال : وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها ؛ فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه .

فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفى الثانى أوقف الغلمان ، فلما دخل من الثالث إلتفت فلم ير أحدا من غلمانه ولا الخادم الفرد ؛ فنقدم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع ، فلما صار بإزاء تلك القبة المضروبة فى صحن الدار مال به إليها ، وأنزله عن دابته ، وأدخله القبة فلم ير فيها أحدا ، وفى رواية رأى فيها سيفا ونطعا فحس بالبلاء ، وقال لمسرور: يا أخى ما الخبر ؟ فقال له مسرور : أنا الساعة أخوك ، وفى منزلك تقول لى : ويلك ، أتدرى ما القضية وما كان الله ليملكك ولا ليغفلك ، فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك ، وحمل رأسك إليه الساعة ؛ فبكى جعفر وجعل يقبل يدي مسرور ورجليه ، ويقول : يا أخى يامسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية ، وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعى ومحلّى من أمير المؤمنين ، وما يوحىه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكون بلغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار منى لك أحضرها لك الساعة ، قبل أن أقوم من موضعى هذا ، وخلنى أهيم على وجهى ، فقال : لاسبيل إلى ذلك أبدا ، قال : فاحملنى إليه وأوقفنى بين يديه ، فلعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة ، فيصفح عنى ، قال : مالى سبيل إلى ذلك أبدا ، ولا يمكننى مراجعته ، وقد علمت أنه لا سبيل إلى الحياة أبدا ، قال : فتوقف عنى ساعة

وارجع إليه ، وقيل له: قد فرغت مما أمرتني به واسمع مايقول ، وعد فافعل ماتريد فإن فعلت ذلك وحصلت لى السلامة ، فإننى أشهد الله وملائكته إنى أشاطرك فى نعمتى مما ملكته يدي ، وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا ، ولم يزل به وهو يكي حتى طمع فى الحياة . قال له مسرور : إنما يكون ذلك وحل سيفه ومنطقته واخذهما ووكل به اربعين غلاما من السودان يحفظونه ؛ ومضى مسرور ووقف بين يدي الرشيد وهو جالس ، يقطر غضبا وفى يده القضيب الولع ينكت به فى الأرض .

فلما رآه قال له : ثكلتك أمك مافعلت فى أمر جعفر ، فقال : ياأمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه ، فقال : فأين رأسه ، فقال: فى القبة ، قال: فأتنى برأسه الساعة فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة ، فلم يمهله أن يصلى الثانية حتى سل سيفه الذى أخذه منه وضرب عنقه ، وأخذ رأسه بلحيته فطرحه بين يدي أمير المؤمنين ، وهو يشخب^(١) دما فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديداً ، وجعل ينكت فى الأرض أثر كل كلمة ، ويقرع أسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول يا جعفر : ألم أحلك محل نفسى ، يا جعفر : ما كافأتنى ولاعرفت حقى ، ولا حفظت عهدى ، ولا ذكرت نعمتى ، ولا نظرت فى عواقب الأمور ، ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلب الأيام ، واختلاف أحوالها ، يا جعفر : ختنتى فى أهلى ، وفضحتنى بين العرب والعجم ، يا جعفر : أسأت إلى وإلى نفسك ، وتفكرت فى عاقبة أمرك .

(١) يشخب : يسيل .

قال مسرور : وأنا واقف بين يديه وهو ينكت في الأرض في كل كلمة ، ولم يزل كذلك إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فدعا بماء فتوضأ للصلاة وخرج للجامع فصلى بالناس جماعة ، ثم إلتفت بوجهه لقصور جعفر ودوره ، وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مافيه ووجه مسرورا إلى المعسكر ، فأخذوا جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك .

فلما أصبح يوم السبت فإذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان ، وترك من بقى منهم لا يرجع إلى وطنه وشتت شملهم في البلاد ولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز ، وحبس أباه يحيى ، وأخاه الفضل في مطمورة وأمر بحشت جعفر فصلبت على الحسر ببغداد ، ثم بعث إلى خراسان أن يوطن بلادها ، وأمر الناس فردوا مضاربهم ، ودخل المعسكر واستقرت له الأمور .

وأحضر على بن عيسى بن ماهان^(١) فولاه خراسان ، فوجه إلى مدينة النبي ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أخته ميمونة فأدخلها عليه في بيته فلما رآهما أعجب بهما وكانا في نهاية من الحسن والحمال ، فاستنقظهما فوجد لفتهما مدنية وفصاحتها هاشمية وفي ألفاظهما عذوبة وبلاغة ،

(١) على بن عيسى بن مهان : من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين وهو الذي حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولأه إمارة الحبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن حسين في الري فقتل ، وانهزم أصحابه ، ت [١٩٥هـ - ٨١٠م] . انظر : النجوم الزاهرة (٢/ ١٤٩) ، الكامل لابن الأثير (٦/ ٧٩) ، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٦) .

فقال لكبيرهما : ما اسمك يا قرة عيني ؟ قال : الحسن ، وقال للصغير : ما اسمك يا حبيبي ؟ قال : الحسين ، فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال : يعز علي حسنكما وجمالكما لارحم الله من ظلمكما ، ولم يد يا ما يراد بهما ، ثم قال : يامسرور ما فعلت بالمفتاح الذي دفعته لك وأمرتك بحفظه ؟ قال : هو حاضر يا أمير المؤمنين ، قال : فإتني به ، ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم ، وأمرهم أن يحفروا في البيت حفرة عميقة ، ودعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما في تلك الحفرة ، رحمهم الله تعالى جميعا ، وهو مع ذلك يبكي بكاء شديدا حتى ظننت أنه رحمهما ، ثم مسح عينيه من الدموع ، وأمر أن لا تذكر البرامكة في مجلس ، ولا يستعان بمن بقي منهم في المدينة أبدا ، فخرجوا على وجوههم في البلاد شاردين متكرين ، وقطع الله دابرهم .

[٩٢] قال : لما كان بعد مدة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت مصلاه ، فيها خطاب وأيات من الشعر فبحث عنها ، فقبل : إن صاحب السر^(١) عملها ، فبعث إليه فسأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين وحدثها في صحن الدار ولا أعلم من طرحها ، فأخذتها وطرحتها تحت مصلاتك .

فقبل : إن ذلك من زبيدة ، لتهلك من بقي من البرامكة ، فعملت الرقعة للرشيد وحركته وزادت في غيظه ، فاستدعى في الوقت بالفضل بن يحيى^(٢) ،

(١) صاحب السر : أحد أعوانة العليفة .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي : وزير الرشيد ، وأخوه في الرضاة . سجنه الرشيد وعذبه إثر نكبة جعفر البرمكي ، ومات في سجن الرشيد بالرقعة [١٩٣هـ] .

وضربه سيّاطاً حتى كاد أن يهلكه، وزاد في حديدته وأغلاله ، ثم استدعى يحيى^(١) وكان شيخاً كبيراً وزاد في حديدته وأغلاله أيضاً ، وكان قد نشأ في النعيم ، فتذكر فقد جعفر وتشتت الأهل ، فكسب كتاباً إلى الرشيد يستعطفه ، ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل ، وهو: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوبقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأنساخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدّثان ، فصار إلى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة"^(٢) ، وشرب كأس الموت مترعة^(٣) ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر بعد الكرى ، فنهاره فكر ونومه سهر وساعة شهر وليله دهر ، قد عاين الموت مراراً وشارف الهلاك جهاراً ؛ يا أمير المؤمنين قد أصابتنى مصيبتا الحال والمال ، أما المال : فإن ذلك منك ولك ، وكان في يدي

(١) يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل : الوزير السري الجواد ، سيد بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد ومعلمهم ، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل . أمره المهدي [١٦٣هـ] أن يلازم بعد أن بلغ من عمره أربعة عشر عاماً ويكون كاتباً له . ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى وقلده أمره ، فبدأ يعلو شأنه . واشتهر يحيى بحجوده وحسن سياسته . واستمر إلى أن نكس الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه إلى أن مات . ت [١٩٠هـ = ٨٠٥م] . انظر : وفات الأعيان (٢/٢٤٣) .

(٢) الدعة : الرغد في العيش .

(٣) مترعة : مملوءة ، وهي كناية عن شدة ما يلاقى من العذاب .

عارية^(١) منك ولا بأس برد العواري إلى أهلها . وأما المصيبة : بجعفر فبحرمة وجراسته ، وعاقبته بما استخف من أمرك وكان جزاؤه فوق ما استحق . وأما الفقير : فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتي وارحم ضعفى ووهن قوتى وهب لى رضاك ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة^(٢) ، ولست أعتذر ولكن أقر وقد رجوت أن أفوز برضاك ، فتقبل عذرى ، وصدق نيتى وظاهر طاعنى وتلويح حجتى ، ففى ذلك ما يكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه ، ثم أنشأ يقول :

قل للخليفة ذى الصنا	نعم والعطايا الفاشية ^(٣)
وابن الخلائف من قريـ	ش والملك العالیه
رأس الأمور وخير من	ساس الأمور الماضیه
إن البرامكة الذين	رموا لديك بداهیه
عنتهمو لك سخطه	لم تبقي منهم باقیه
فكانهم مما بهم	أعجاز نخل خاویه
صفى الوجوه عليهم	خلع المذلة بادیه
مستضعفون ومطردون	بكل أرض قاصیه
بعد الإمارة والوزا	رة والأمور السامیه
ومنازل كانوا بها	فوق المنازل عالیه
أضحوا وجل مناهم	منك الرضا والعافیه

(١) العارية: ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده إليك، وجمعها عواري .

(٢) الإقالة : العفو والصفح .

(٣) الفاشية : العديدة المنتشرة .

يكفيك ويحك ما ييه^(١)
ح عترتي ونسائيته^(٢)
ذلي وذلي مكانيه
قبل الممات علانيه
والدموع الحاربه
يا سوأتى وشقائيه
ن على جميع رجاليه
ما للزمان وماليه
ياذا الفروع الزاكيه
عردى علينا ثانيه

يا من يريد لى الردى
يكفيك أنى مستبىا
يكفيك ما أبصرتيه
فلقد رأيت الموت من
وبكاء فاطمة الكبيرة
ومقالها بتفجع
من لى وقد غلب الزما
يا لهف نفسى لهفها
أر ما سمعت مقالتي
باعطفة الملك الرضا

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهرها هذه الأبيات :

كتتم ملوكا عاتيه
وكفرتمو نعمائيه
من فرقته وعصانيه
ما ختموه علانيه
عند الأمور الباديه

با آل برمك إنكم
فعضيتمرو وطغيتمرو
هذى عقوبة من عصى
أجرى القضاء عليكم
من ترك نصيح إمامكم

ثم أردفه بقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل: ١١٢].

(١) الردى : الهلاك .

(٢) العترة : الذرية والعشيرة .

فلما قرأها يحيى وهو بالسجن ، أخذته الحمى لوقته وساعته وكان
ينام على التراب وآيس من الحياة ، وعلم أنه ليس له مخلص مما هو فيه من
السجن انتهى .

[٩٣] [وقيل] ليحيى بن خالد بن برمك : أيها الوزير أخبرنا
بأحسن ما رأيت فى أيام سعادتك ؟ قال : ركبت يوما فى بعض الأيام فى
سفينة أريد التنزه ، فلما خرجت برجلي لأصعد فاتكات على لوح من
الواحها ، وكان بإصبعى خاتم فطار فسه من يدى ، وكان ياقوتاً أحمر
قيمته ألف مثقال من الذهب فتطيرت^(١) من ذلك . ثم عدت إلى منزلى وإذا
بالطباخ قد أتى بذلك الفص بعينه وقال أيها الوزير لقيت هذا الفص فى بطن
حوت ؛ وذلك لأنى اشتريت حيتانا للمطبخ فشقت بطنها فرأيت هذا
الفص ، فقلت : لا يصح هذا إلا للوزير أعزه الله تعالى ، فقال : الحمد لله
هذا بلوغ الغاية .

[٩٤] [وقيل] له أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن ؟ قال : اشتريت
لحماً فى قدر طباخ وأنا فى السجن ففرمت ألف دينار فى شهوتى ، حتى
أتيت بقدر ولحم مقطع فى قسبة فارسية والخل وسائر حوائجها فى قسبة
أخرى وتركوا عندى ما أحتاج إليه ، وأتيت بنار فأوقدت تحت القدر
ونفخت ولحيتى فى الأرض حتى كادت روحى تخرج . فلما أنضجت
تركتها تفور وتغلى وقت الخبز وعمدت لأنزلها فانفلقت وانكسرت القدر
على الأرض فبقيت ألتقط اللحم ، وأمسح منه التراب وآكله وذهب المرق
الذى كنت أشتهيه وهذا أعظم ما مرى انتهى .

(١) تطير : تشاءم

[٩٥] ثم [قيل] : إن الرشيد نذر الحج ، فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه في رمضان ، فكانت تضرب له السراقات المكلفة بالدياج مفروشة بالحرير يخرج من سرادق إلى سرادق ، والناس محلقون به حتى وصل إلى الحرم وحج ؛ فاتفق أن الوفاة دنت من يحيى وهو في السجن ، فكتب رقعة وأوصى ولده الفضل أن يوصلها إلى الرشيد ، وكتب فيها هذه الأبيات :

ستعلم في الحساب إذا التقينا	غدا يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن أناس	من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا	تنبه للنميمة يا نوم ^(١)
تروم الخلد في دار المنايا	وكم قد رام غيرك ما تروم ^(٢)
إلى ديان يوم الدين نمضى	عند الله تحتصع الخصوم

قال : فلما قدم الرشيد أنفذها إليه الفضل ، فلما قرأها علم بموته ، فقال : مات والله يحيى ، ومات الجود والكرم والسخاء ، والله لو كان حيا لفرجت عنه ، ثم أمر بإطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان أخيه جعفر رحمة الله عليهم أجمعين .

[٩٦] قال بعضهم في البرامكة شعرا :

إن البرامكة الكرام تعلموا	فعل الكرام فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا	لم يهدموا مما بنوه أساسا

(١) المنايا : الموت .

(٢) تروم : تريد .

وإذا هم صنعوا الصنائع في الررى
فعلام تسقيني وأنت سقيتي
أنستني متفضلا أفلا ترى
جعلوا لها طول البقاء لباسا
من مر هجرك من جناحك كاسا
أن انقطاعك يوحش الإناسا

[٩٧] وسئل ، إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ؟
فقال : أما الفضل ففعله يرضيك . وأما جعفر فقوله يرضيك . وأما محمد
فيفعل ما يجد . وفي يحيى يقول القائل :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا
فقلت شراء قال لابل وراثه
ولكنني عبد ليحيى بن خالد
توارثني من والد بعد والد
وفي الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة
فليس بسعال إذا سئل حاجة
رأيت بها عشب السحابة ينبت
ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت^(١)
وفي محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما
وما بال ركن المجد أمسى مهتما
تبدلتما عزا بنذل موبد
فقالا أصبنا فى ابن يحيى محمد
وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أمتنا كى نعزى بفقد
مسافة يوم ثم نلوه فى غد

[٩٨] وذكر الحافظ السيوطي - نفعنا الله به - فى رسالته مشتهى
العقول فى منتهى النقول : أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد أن لا

(١) السعال ، عند سؤال الحاجة : كناية عن الإعراض والصدود .

يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلا وللبرامكة عليه كرم
نما كماء السماء .

وتكرم جعفر بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيرا في
ولايته كلها من غير مَنْ ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض حتى صار يضرب
بهم المثل الأكبر بقولهم تبرمك فلان .

ومن كرم جعفر إنه تكرم في يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر
ألف درهم والدرهم ثلاثة أنصاف فضة ، ومن كرمه أنه تكرم على من
هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تأديبه وتعذيبه .

[٩٩] [قيل] : أوقع بهم من الأمر ما أوقع الرشيد صار أمرهم إلى ما
سيوصف من الفقر والذل والإهانة ، فمن ذلك : ما قاله محمد بن غسان
صاحب ولاية الكوفة وقاضيهما ، قال : دخلت على أمي في يوم عيد أضحي
فرأيت عندها عجوز في أطمار^(١) رثة وإذا لها بيان ولسان ، فقلت لأمي :
من هذه ؟ قالت : هذه خالتك عتاب^(٢) أم جعفر البرمكي ابن يحيى فسلمت
عليها ، وقلت لها : أصار بك الدهر إلى ما أرى ! قالت : نعم يا بني إن
الذي كنا فيه كان عارية ارتجعها الدهر منا .

(١) أطمار : الثوب البالي .

(٢) عتاب ، وقيل : فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة : سيدة جليلة ذات نفوذ
وسلطان ، واحترام لدى الراعي والرعية ، كان الرشيد يشاررها مظهرا لإكرامها
والتبرك برأيها . انظر : أعلام النساء (١/١٩٦) .

قال : فقلت : حدثني ببعض شأنك ، قالت : خذه جملة لقد مضى على عيد أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين ، وعلى رأسى أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني عاق لى ، وقد جفتكم اليوم أطلب جلدى شاة ، أجعل أحدهما شعارا والآخر دثارا . قال : فغنى ذلك وأبكاني فوهبت لها بعض دنائير كانت عندى ، والله أعلم .

[١٠٠] ومن قول يحيى بن خالد لابنه جعفر : يا بني مادام قلمك يعرف^(١) فامطره معروفا .

[١٠١] ومن كلام جعفر : إذا أحببت إنسانا من غير سبب فارج خيرا ، وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شرا .

[١٠٢] وقال يحيى بن سلام الأبرش ، قال : حدثنى أبى قال : خرج الرشيد للصيد يوما بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بنى برمك فرأى لرحا مكتوبا عليه هذه الأبيات :

يا منزل لعب الزمان بأهله	فأبادهم بفسق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى	كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفرع من رآك وطالما	كنا إليك من المخاوف نضرع
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم	وبقى الذين حياتهم لا تنفع

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعى وقال : أتعرف شيئا من أخبار البرامكة تحدثنى به ؟ فقال الأصمعى : ولى الأمان ، قال ولك الأمان .

(١) عرف القلم : كثر مداده .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ؛ وذلك أنه خرج يوما للصيد والقنص وهو فى مركبه إذ رأى أعرابيا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض فى سيره ، قال : هذا يقصدنى ، فقلت : ومن أعلمك ؟ قال : لا يكلمه أحد غيرى . فلما دنا الأعرابى ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والجَم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة ظن أنه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : اخفض عليك ما تقول ، فقال: السلام عليك أيها الأمير ، قال : الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابى فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب ؟ قال : من قضاة ، قال : من أدناها أم من أقصاها ؟ قال : من أقصاها ، قال الأصمعى : فالتفت إلى الفضل ، وقال : كم من العراق إلى أرض قضاة ؟ فقلت : ثمانمائة فرسخ، فقال : يا أخا العرب مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء ، قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم فى البلاد . قال : من هم ؟ قال : البرامكة ، قال الفضل : يا أخا العرب البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ؛ ولكل منهم خاصة وعامة ، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك ؟ قال : أجل ، قال : أطولهم باعا وأسمحهم كفا ، قال : من هو ؟ قال : الفضل بن يحيى بن خالد ، فقال الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر إذا جلس للناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والناظرون للعلم ، أعالم أنت؟ قال : لا ، قال : أفاديب أنت ؟ قال : لا ، قال : أعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال : لا ،

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟ قال : لا ، فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك ؛ مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرفتكَ عنه من الجلالة ، بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟ قال : والله يا أمير ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف ، ويتبين من الشعر قتلتهما فيه ، فقال الفضل : يا أخا العرب أنشدنى البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلفائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالى ، ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً ، قال : أفتفعل أيها الأمير ؟ قال : فإنى أقول :

الم تر أن. الحود من عهد آدم تحدر حتى صار يمتصه الفضل
ولو أن أما مسها جرع طفلها غذته باسم الفضل لاغذى الطفل

قال : أحسنت يا أخا العرب فإن قال : لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر وأخذ الحائزة عليهما فأنشدنى غيرهما فما تقول ؟ قال . أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته أو صاك وهو يحود بالحباء^(١)
بينه أن ترعاهما فرعتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل متحنا : هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدنى غيرهما ما تقول ؟ وقد رمتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك ؟ قال إذن أقول :

(١) الحَوَّاء : النفس . قبل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة لكون النفس موطناً للحاجات ، الجمع حَوَّاءات.

ملت جهابذة فضل وزن نائله ومثل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان : البيتان أيضا
أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلا ؟ قال ، أقول :

وللفضل صولات على مال نفسه يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله لصلى على مال الأمير وأذنا

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان
مسروقان أنشدني غيرهما ما تقول إذن ؟ قال : أقول :

ولو قيل للمعروف نادى أخا العلا لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج لأصبح من جدواك قد نفذ الرمل^(١)

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان
مسروقان أيضا أنشدني غيرهما ما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلا اثنان صب وبازل وإنى لذلك الصب والبازل الفضل
على أن لى مثلا كما ذكر الورى وليس لفضل فى سماحته مثل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدني غيرهما
ما تقول ؟ قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماعة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل

(١) تلج الرمل : تجمع .

وقام به المعروف شرقا ومغربا ولم يك للمعروف بعد ولا قبل
قال أحسنت : يا أخا العرب فإن قال : لقد ضحرتنا من الفضل
والمفضل. أنشدني بيتين على الكنية لأعلى الاسم ما تقول ؟ قال : إذن
أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى وياملكا خد الملوك له نعل
إليك تسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنا غير
الاسم والكنية والقافية ، قال : والله لئن زادنى الفضل وامتحتنى بعد هذا
لأقولن أربعة أبيات ماسبقنى إليها عربى ولا أعجمى ، ولئن زادنى بعدها
لأجمعن قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاة
حاسرا ولا أبالى ، فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابى : يا أخا العرب
أسمعنى الأبيات الأربعة ، قال أقول :

ولائمة لامتك يا فضل فى الندى فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحر
أتنهين فضلا عن عطاياه للغنى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر
كأن نوال الفضل فى كل بلدة تحدر هذا المزن فى مهمه قفر^(١)
كأن وفود الناس فى كل وجهه إلى الفضل لاقرأ عنده ليلة القدر

قال : فأمسك الفضل على فيه وسقط على وجهه ضاحكا ، ثم رفع
رأسه وقال : يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ماشئت ، فقال:
سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟ قال : نعم ، قال له : فأقلنى ، قال :

(١) المزن : المطر. القفر : الأرض العلاء لا ماء فيها ولا كلاً

أقالك الله ، اذكر حاجتك . قال : عشرة آلاف درهم ، قال الفضل :
ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، تُعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة
آلاف وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزير الفضل وقال : يا
مولاي هذا إسراف ، يأتيك جلف^(١) من أحلاف العرب بأبيات استرقها من
أشعار العرب فتحزبه بهذا المال ! فقال : استحقه بحضوره إلينا من أرض
قضاة ، قال الوزير : أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهما من
كنانتك وركبته فى كبد قوسك و أومأت به إلى الأعرابي فإن رد عن نفسه
بيت من الشعر ، وإلا استعطفت مالك ويكون له فى بعضه كفاية فأخذ
الفضل سهما وركبه فى كبد قوسه و أوما به إلى الأعرابي ، وقال : رد
سهمي بيت من الشعر فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والنوتر والندى وسهمك سهم العز فارم به فقرى

قال فضحك الفضل وأنشأ يقول

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته فلا مسعدى بخلى ولا متلفى بذلى
أرونى بخيلا نال مجدا يخله وهاتوا كريحا مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره؛
ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته ، فأخذ الأعرابي المال وانصرف
وهو يركى ، فقال له الفضل : مم بكأوك يا أعرابي استقلالا بالمال الذى

(١) الحلف : الغليظ الحافى .

أعطيناك ؟ قال : لا ولكنى أبكى على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ،
وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فُقِدُ مال ولا فرس يموت ولا بعير^(١)
ولكن الرزية فُقِدَ حسر يموت لموته خلق كثير

وتوجه الأعرابي بالمال مسرورا رحمة الله عليهم أجمعين

[١٠٣] ويحكى : أن الرشيد قال لأبى نواس : بعنى ذقنك ، قال :
بكم؟ قال: بألف دينار ، قال : بعثك ، فقال الرشيد لخازن داره : ادفع له
ألف دينار فدفعها فأخذها وربطها ، وقال : يا أمير المؤمنين خذ ما
اشتريت ، قال : لا ، ولكن جعلتها وديعة عندك ، قال : فمضى أبو نواس
واشتغل بأمره ولهوه وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين ، قال : فبينما
هو متفكر فى شىء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين فلم يقدر أن يتكلم
دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة فوجده فى جمع كثير من خواص
المملكة وأعران الدولة ، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير
المؤمنين ، فتحدثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرورة مزعجة أزعجت
الحاضرين ، فضحكوا جميعا وضحك أمير المؤمنين ، وقال له : فى ذقنك
يا معرص^(٢) ، فقال له فى الحال : الله أعلم هى ذقن من . فقال أمير
المؤمنين : قد وهبتها لك يا ملعون ، فأخذها وانصرف وكسب الألف
دينار بهذه الحيلة ، والله أعلم انتهى .

(١) الرزية ، مفرد رزايا : المصيبة العظيمة .

(٢) عَرَصَ الرجل : اضطرب .

[١٠٤] و[قيل] : كان نصر بن مقبل عاملا على الرقة^(١) ، فأتى
برجل من الظرفاء وحده ينكح شاة ، فقال : ماحملك على هذا ؟ فقال :
أيها الأمير إنها والله ملك يميني وقد قال الله تعالى ﴿أَوْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾
[النساء: ٣] فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحد ، فإن ماتت تصلب . قالوا :
أيها الأمير إنها بهيمة ، قال : وإن كانت بهيمة ، فإن الحدود لا تعطل ،
وإن عطلتها فبئس الرأى أنا . فانتهى إلى الرشيد خبره - ولم يكن رآه قبل -
فدعا به .

فلما حضر بين يديه قال : من أنت ؟ قال : مولى الكلب ، فضحك
منه ، ثم قال : كيف بصرك بالحكم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين البهائم
عندي والناس سواء ، ولو وجب حد على بهيمة وكانت أمى أو أختى
لحديتهما ، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم ، فأمر الرشيد أن لا يستعان به
على عمل فلم يزل معطلا إلى أن مات والله أعلم .

[١٠٥] ويحكى : أن هارون الرشيد أمر بقتل أبى نواس ، فقال :
أتقتلنى شهرة لقتلى ؟ فقال : لا بل أنت مستحق للقتل ، قال : فبم
استحققت القتل ؟ قال ، بقولك :

ألا فاسقنى خمرًا وقل هي الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

فقال : يا أمير المؤمنين أفتعلم أنه سقانى وشربت ؟ فقال له أمير
المؤمنين : أظن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين أفقتلنى على الظن وقد قال

(١) الرقة : مدينة فى شمال سوريا على الفرات ، أسسها السلوقيون . جعلها هارون
الرشيد عاصمته الصيفية وبنى فيها قصر السلام ، فمرفت بمدينة الرشيد . دمرتها
غزوات المغول .

الله تعالى ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] . فقال له الرشيد : قد قلت أيضا ماتستحق به القتل ، فقال : وماهو ؟ فقال له : قولك :

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار
فقال : يا أمير المؤمنين هل جاءنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أتقتلني
على الصدق ؟ فقال له الرشيد : أولست القائل :

يا أحمد المرتضى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات
فقال له : يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلا ؟ قال لا أعلم ، قال :
أفتقتلني على ما لم تعلم . فقال له أمير المؤمنين : دع هذا كله فقد اعترفت
في مواضع كثيرة من شعرك بأننا ، قال أبو نواس : قد علم الله هذا قبل
علم أمير المؤمنين بقوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَم تَر أَنَّهُمْ فِي
كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فقال الرشيد :
خلوا عنه؛ ومن هذا أخذ الصنفى الحلبي فقال :

نحن الذى جاء الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن
[١٠٦] وعن محمد بن نافع قال : رأيت أبا نواس في النوم بعد
موته، فقلت : يا أبا نواس ، فقال : لات حين كنية ، فقلت : الحسن بن
هاني قال : نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قتلها فى
علتى قبل موتى هى تحت الرسادة .

فسألت أهله فقلت : هل قال أخى شعرا ؟ قالوا : لا نعلم إلا أنه دعا
بدواة وقرطاس ، وكسب شيئا لاندري ماهو ، فدخلت ورفعت وسادة ،
وإذا أنا برفعة مكتوب فيها :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فمن الذى يدعو ويرجو المحرم
مالى إليك وسيلة إلا الرحا
وجميل عفوك ثم إنى مسلم

وهذه حكاية العجمى والكردى وما جرى بينهما على يد القاضى بسبب الجراب

[١٠٧] قيل : إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة ، فاستدعى بوزيره
جعفر البرمكى ، فلما حضر عنده قال له : يا جعفر إنى قلقك وضاق
صدرى وأريد منك شيئا يشرح خاطرى ، فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين
إن لى صديقا اسمه على العجمى ، وعنده من جميع الحكايات والأخبار ؛
فقال : على به ، فقال سمعا وطاعة ، ثم إن جعفرا خرج من عند الخليفة
فى طلب على العجمى فأرسل خلفه ؛ فلما حضر قال : أجب أمير
المؤمنين ، قال : سمعا وطاعة ، فأتى الخليفة فسلم وترحم ، فقال له :
اجلس فجلس ، فقال له الخليفة : اسمع يا على إننى الليلة ضيق الصدر وقد
سمعت عنك أن فى ذهنك حكايات وأخبارا وأريد منك أن تسمعنى مايزيل
همى وفكرى ، فقال : يا أمير المؤمنين تريد أن أحكى لك شيئا سمعته ،
أو رأيته ؟ فقال : إن كنت رأيت شيئا فاحكه . فقال : سمعا وطاعة .

اعلم يا أمير المؤمنين : أنى سافرت فى بعض السنين من بلدى إلى
هذه المدينة وهى بغداد وصحبنى غلام ظريف ومعه جراب نظيف ،
فأودعنى إياه فينما أنا أبيع وأشتري ، وإذا أنا برجل كردى ظالم معتد هجم
على وأخذ الجراب منى ، وقال : هذا الجراب جرابى وكل ما فيه قماشى

وثيايى ، فقلت : يامعشر الناس قد اعترانى الوسواس ، فقال الناس جميعا : امضوا إلى القاضى وأنا بحكمه راضى ، فدخلنا عليه وتمثلنا بين يديه .

فقال القاضى : فى أى شىء جئتما ؟ فقال الكردي : نحن خصمان ، قال : أيكما المدعى ؟ فتقدم الكردي ، وقال : أيد الله مولانا القاضى هذا الحراب جرابى وكل مافيه قماشى وثيايى ، وقد ضاع منى ووجدته مع هذا الرجل . فقال القاضى : ومتى ضاع منك ؟ فقال الكردي : ضاع منى بالأمس ، فقال القاضى : إن كنت عرفته فصف لى مافيه ؟ فقال الكردي : إن فى جرابى هذا مرودين من لحين ، وأكحلا للعنين ، ومنديلا لليدين ، ومشربتين مذهبتين ، وشمعدانين ، ومكبتين ، وطبقين ، وإبريقين ، وصينية ، وطشتين ، وقدرة ، ودستين ، ومغرفة وملعقتين ، ومسلة ، ومقلمة ، وملبتين وقعبا ، وقصعتين ، ومخدة ، ونطعين ، وجبة ، وفروتين ، وبقرة ، وعجلتين ، وعنزا ، وشاتين ، ونعجة وخروفين ، وقطين أبلقين ، وجملا ، وناقتين ، وبقرة ، وثورين ، ولبوة وسبعين ، ودبة وثعلبين ، ومرتبة وسريرين ، وطبقة وقاعتين ، ورواقا ومقعدين ، ومطبخا بياين ، وجماعة ، أكراد يشهدون أن الحراب جرابى .

فقال القاضى : فما تقول أنت يا على ؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين وقد بهتتى كلامه ، فقلت : أعز الله مولانا القاضى ؛ أنا ما فى جرابى إلا دويرة خراب ، وأخرى بلا باب ، ومقصورة للكلاب ، وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون بالكعاب ، وفيه عساكر وأطناب ، ومدينة بصرى وبغداد ، وقصر كنعان بن شداد ، وكور وحداد ، وشبكة وصياد ، وعصا وأوتاد ، وبنات وأولاد ، وألف قواد يشهدون أن الحراب جرابى .

فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب ، وقال : يا سيدى
القاضى جرابى هذا معروف وكل مافيه موصوف فى جرابى هذا حصون ،
وقلاع ، وقرى ، وضياع ، وطابق للصراع ، ووحوش وضياع ، ورجال
يلعبون الطابة والرقاع ، وإن فى جرابى هذا حجرة ومهرين ، وفحلا
وحصانين ، ورمحين طويلين ، وسبعة وأربعين ، وسكينا وخنجرين ، وبحرا
وخليجين ، وكمرأ وخوختين ، وعشارى ومركبين ، وصارى وقريتين ،
وكورا ودكانين ، ومنقلة ونردين ، وعجوزا وقحبتين ، وقوادا وشاطرين ،
ومختا وعلقين ، وأعمى وبصيرين ، وأعرج ومكسحين ، وعياراً وأزعرين ،
وجامعا ومدرستين ، وديرا وكنيستين ، وقسيا وشماسين ، وبتركا وراهبين ،
وقاضيا وشاهدين يشهدون أن الحراب جرابى .

فقال القاضى : ما تقول أنت يا على ؟ فبادرت يا أمير المؤمنين ، وقد
امتلاأت غيظا وزدت فى الحمق ، وقلت : أيد الله مولانا القاضى إن فى
جرابى هذا زرد خانات صفاح ، وخزائن سلاح ، وألف كبش نطاح فى
عشرين مراح ، وأربعين كلبا نباح ، وبساتين وكروم غناب وتين وتفاح ،
وصورا وأشباح ، وقناني وأقداح ، وعرائس ملاح ، ومغانى وأنفراح ،
وهرجا وصياح ، وعبداء وفلاح ، وأخاه نجاح ، ورفيقه صباح ، ومعهم
سيوف ورماح ، وقسى ونشاب ، وأصدقاء وأحباب ، وخلان وأصحاب ،
ومجلس للعتاب وندمان للشراب ، وطنبور مع رباب ، ونايات وقناني
مصفوفات ، وصبيان ودائيات ، وأخوات معلمات ، وبنات مجليات ،
وجوارى مغنيات ، وجوارى حبشيات ، وثلاثة هنديات ، وأربعة بدويات ،
 وخمسة روميات ، وستة تركيات ، وسبعة عجميات ، وثمانية قفجيات ،
 وتسعة كرجيات ، وعشر كلبات ، والدجلة والفرات ، وشبكة وصياد ،

وقداحة وزناد ، وإرم ذات العماد ، وألف جواد ، وقصر شداد بن عاد
وخانات مع حمامات ، وقدم ونجار وخشبة مع مسمار ، وتاجر مع
عطار ، وبزار مع بيطار ، وعبد أسود بمزمار ، ومقدم وركبدار ، ومدن
وأمصار ، ومائه ألف دينار ، وبواب وكستدار ورأس نوبة ، وعلم دار
والكوفة مع الأنبار ، وعشرين صندوقا ملآنة قماشا ، ودكان نحاس
وحاصل معاش ، وبرجان للحمام ، وغزة وعسقلان ، ومن دمياط إلى
أسوان ، وإيوان كسرى ، وملك سليمان ، ومن كوش نعمان إلى أرض
خراسان ، وبلخ وأصبهان ، ومن الهند إلى بلاد السودان ، وفيه أطال الله
عمر مولانا القاضي : قماش وغلائل ، وعراضى وموسى بحد ماضى يحلق
ذفن مولانا القاضي إن حكم إن الحراب ماهو جرابى .

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال : ما أراكما
إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام ؛ لأن ماوصف الواصفون
ولاسمع السامعون ماوصفتما فى هذا الحراب ، ما هذا إلا بحر ليس له قرار ،
ثم أمر القاضي بفتح الحراب ففتح الكردى فإذا فيه خبز ولیمون وجبن
وزيتون ، ثم إنى رميت الحراب أمام القاضي والكردى ومضيت إلى حال
سبيلى .

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه ، وقد
زال همه وغمه وأحسن جائزة على المعجى وانصرف والله أعلم .

٨- فصل

معن بن زائدة الشيباني^(١)

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولا حرج .

[١٠٨] و[قيل] : كان عاملاً بالبصرة فحضر على بابهِ شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهياً له ، فقال : يوماً لبعض الخدام إذا دخل الأمير البستان فعرفني ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكذب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القناة؛ فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت مكتوب :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فليس إلى معن سواك رسول

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال : كيف قلت : فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر^(٢) ، فأخذها وانصرف فوضع معن الخشبة تحت بساطه ؛ فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ينظر فيها ودعا بالرجل ، فأمر له بمائة ألف درهم ؛ فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك . فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج من البلد بما كان معه ؛ فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ، فقال معن :

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني ، أبو الوليد : من أشهر أجداد العرب ، وأحد الشعان العظماء . أدرك العصر الأموي والعباسي . أخباره كثيرة ، وللشعراء فيه أماديح ومراث من عيون الشعر ، ت[١٥١هـ = ٧٦٨م] . انظر : وفیات الأعيان (١٠٨/٢) ، خزائن البغدادی (١٨٢/١) .

(٢) بدر ، مفرداً بذرة : عشرة آلاف درهم .

والله هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار إلا أعطيته له . وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم يجد في دياره	من المال إلا ذكره وجمائله
تراه ما جتته متهللا	كأنك تعطيه الذي أنت آمله
هو البحر من أي النواحي أتيت	ولجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه	أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو أن ما في كفه غير نفسه	لجاد بها فليتنق الله سائله

ومن قول معن :

دعيني أحب الأموال حتى أعف الأكرمين عن اللئام

[١٠٩] ويروى : أن معن بن زائدة ، خرج في جماعة يتصيدون فاعترضهم قطع ظباء فتفرقوا في طلبه ، وانفرد معن خلف ظبي ؛ فلما ظفر به نزل فذبحه ، فرأى شخصا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه ، وقال له : من أين أتيت ؟ قال : أتيت من أرض قضاة^(١) ، وإن لي بها أرضا لها عدة سنين محدبة وقد أخصبت في هذه السنة ، فزرعتها قثاء فطرحت في غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور ، ومعروفه المأثور ، وإحسانه المذكور ، فقال له : كم أملت منه ؟ قال : ألف دينار ، فقال : إن قال لك كثير ، قال : خمسمائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال :

(١) قضاة : قبيلة عربية جنوبية من حمير من من قحطان اليمن .

ثلاثمائة دينار، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائتي دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : خمسين ديناراً ، قال : إن قال لك كثير ، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فإن قال لك كثير ، قال : أدخل قوائم حمارى فى حرامه وأرجع إلى أهلى خائباً ، فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقاء فادخل به على . فأتى بعد ساعة ، فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه وهر متصدر فى دست مملكته ، والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه

فلما سلم عليه قال له الأمير معن : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملت الأمير وأتيته بقاء فى غير أوانها ، قال : فكم أملت فينا ؟ قال : ألف دينار ، قال : كثير ، قال : خمسمائة دينار ، قال : كثير ، قال : ثلاثمائة دينار ، قال : كثير ، قال : مائتي دينار ، قال : كثير ، قال : والله لقد كان ذلك الرجل الذى قابلنى على مشؤما ، ثم قال : خمسين دينار ، قال : كثير ، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فضحك معن وسكت ، فعلم الأعرابى أنه صاحبه .

فقال : يا سيدى إن لم تعطنى الثلاثين ، فالحمار مربوط بالباب وها أنا مع معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على قفاه ، ثم استدعى بوكيله وقال له : أعطه ألف دينار ، وخمسمائة دينار ، وثلاثمائة دينار ، ومائتي دينار ، ومائة دينار ، وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً ودع الحمار مربوطاً مكانه فبهت الأعرابى ، وتسلم ألف دينار ومائة وثمانين ديناراً فرحمة الله عليهم أجمعين .

[١١٠] وقيل : كان معن بن زائدة فى بعض صيوده ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث حواري قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته ، فصولها من ذهب ، فقالت إحداهن : ويلكن لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركب فى السهام نصول تبر	ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح	وأكفان لمن سكن اللعودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه	عمت مكارمه الأقارب والعدا
صيفت نصول سهامه من عسجد	كى لا يفوته التفارب والندى ^(١)

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العدا بأسهم	من الذهب الإبريز صيفت نصولها
لينفقها المحروح عند انقطاعه	ويشترى الأكفان منها قتيلا

[١١١] وكان مع كرمه صاحب شهامة ، فمن ذلك : أنه سعى رجل فى إفساد دولة المهدي وكان من الكوفة فعلم به المهدي فهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حيناً معتفياً ، ثم ظهر فى بغداد فبينما هو فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من الكوفة فعرفه ، فأخذ

(١) عَسَجَد : الذهب .

بمجامع طوقه ونادى هذا طلبه أمير المؤمنين ، فبينما الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع حوله خلق كثير ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجزنى أجازك الله ، فوقف فقال للرجل الذى تعلق به : ما تريد منه ؟ قال : هذا طلبه أمير المؤمنين ، أهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فقال له معن : دعه ، ثم قال : يا غلام أردفه فأردفه وكر راجعا إلى داره ، فصاح الرجل معن حال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين ، ولم يزل صارخا إلى أن أتى قصر المهدي فأمر المهدي بإحضار معن ، فأتته الرسل فدعا معن أولاده ومعاليكه وقال : لا تسلموا الرجل وواحد منكم يعيش ، ثم سار إلى المهدي فدخل وسلم ، فلم يرد عليه ، ثم قال : يا معن أتجزى علينا عدونا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدي : ونعم أيضا ، واشتد غضبه فقال معن : يا أمير المؤمنين بالأمس بعثنى إلى اليمن مقدم الجيش فقتلت فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف رجل ، ولى على مثل هذا أيام كثيرة فما رأيتمنى أهلا أن أجير رجلا واحدا استجار بى ، ودخل منزلى ؛ فسكن غضب المهدي وقال : قد أجزنا من أجزت يا أبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم منها موقع الرضا ، فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفا ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم ، قال : عجلها يا أمير المؤمنين ، فإن خير البر عاجله ، فأحضر معن الرجل وقال له : خذ صلة أمير المؤمنين ، وقبل يده وإياك ومخالفة خلفاء الله فى أرضه ، فما كل مرة تسلم الحرة . فأرسلها الناس مثلا وأخذ الرجل المال واستغفر الله ، انتهى .

[١١٢] و[قيل]: كان معن لا يغيظ أحدا ولا أحد يغيظه ، فقال بعض الشعراء: أنا أغيظه لكم ولو كان قلبه من حجر ، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغيظه دفع مثلها .

فعمد الرجل إلى حمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارج والشعر من داخل والذباب يقع عليه ، ويقوم ولبس برجليه نعلين من جلد الحمل ، وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدي معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه في وجهه وقال :

أنا والله لا أبدي سلاما على معن المسمى بالأمير
فقال له معن : السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك . فقال الشاعر :

ولا أنزل بلادا أنت فيها ولو حزت الشام مع الثغور^(١)

فقال له : البلاد بلاد الله ، إن نزلت فمرحبا بك وإن رحلت كان الله في عونك . فقال الشاعر :

وأرحل عن بلادك ألف شهر أجد السير في أعلا القفور
فقال له : مصحوبا بالسلامة . فقال الشاعر :

(١) الثغور ، مفردا ثغر : الموضع المحاذي للعدو . ويقصد : الشام مع الثغور ، أى الشام وما حولها .

أتذكر إذ قميصك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير
فقال له : أعرف ذلك ولا أنكره . فقال الشاعر :

وتأوى كل مصطبة وسوق بلا عبد لديك ولا وزير
فقال له : مانسيت ذلك يا أخوا العرب . فقال الشاعر :

ونومك في الشتاء بلا رداء وأكلك دائما خبز الشعير
فقال : الحمد لله على كل حال . فقال الشاعر :

وفي يمينك عكاز قوي تذود به الكلاب عن الهرير
فقال له : ماخفي عليك خبرها إذ هي كعصى موسى . فقال الشاعر :

فسبحان الذي أعطاك ملكا وعلمك القعود على السرير
فقال له : بفضل الله لا بفضلك . فقال الشاعر :

فعجل بما ابن ناقصة بمال فإني قد عزمت على المسير
فأمر له بألف دينار . فقال الشاعر :

قليل ما أمرت به فإني لأطمع منك بالشيء الكثير
فأمر له بألف دينار أخرى . فقال الشاعر :

فثلث إذ ملكت الملك رزقا بلا عقل ولا جاه خطير
فأمر له بثلاثمائة دينار . فقال الشاعر :

ولا أدب كسبت به المعالي ولا خلق ولا رأى منير

فأمر له بأربعمائة دينار . فقال الشاعر :

فمنك الجود والإفضال حقا وفيض يديك كالبحر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار ، ومازال يطلب منه الزيادة حتى استكمل ألفى دينار ؛ فأخذها وانصرف متعجبا من حلم معن وعدم انتقامه منه ، ثم قال فى نفسه : مثل هذا لا ينبغي أن يهجرى بل يمدح ، واغتسل ولبس ثيابه ورجع إليه ، فسلم عليه ومدحه واعتذر له بأن الحامل له على محوه المائة بعير التى صار الرهان عليها فى نظير إغاضته فأمر له بمائة بعير يدفعها فى نظير الرهان وبمائة بعير أخرى لنفسه فأخذها وانصرف ، والله أعلم .

خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله^(١)

[١١٣] ومما وضع في بطون الدفاتر : واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، مارواه خادام أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى : خذ معك فلانا وفلانا وسماهما لى أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادام ، واذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغنى أن شيحا يحضر ليلًا إلى آثار دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ويكى عليهم ، ثم ينصرف ؛ فامض أنت وعلىّ ودينار حتى تردوا تلك الخرائب ، فاستتروا خلف بعض الحدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتونى به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسى وجعل يبكى ويتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفر	ونادى مناد للخليفة يا يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى	عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

(١) عبد الله بن هارون الرشيد ، المأمون : من كبار خلفاء الدولة العباسية ، عنى بالأدب والعلوم ، وأنشأ "بيت الحكمة" فى بغداد فازدهرت فى عهده الترجمة والنقل ، ناصر المعتزلة ، وامتنح الناس فى خلق القرآن . قتل أخاه الأمين . ت[٢١٨هـ = ٨٨٣م] . انظر : تاريخ بغداد (١٠/١٨٣) ، المسعودى (٢/٢٤٧) .

مع آيات أطالها ، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعا شديدا وقال : دعونى حتى أوصى بوصية فلانى لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ، ثم سرنا به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت وبما استوجبت منك البرامكة ماتفعله فى خرائب دورهم ؟ قال الخادم : ونحن نسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أبادى خضراء عندى ، أفأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ، قال : قل فقال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر ابن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال .

فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسى ورؤوس أهلى وبتنى الذى ولدت فيه ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلثين امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ، ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلا عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى ؛ لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد .

فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار

فى خديه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون فى وسط كل خادم منطقة^(١) من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم محمرة^(٢) من ذهب ، فى كل محمرة قطعة من عود كهيئة الفهر^(٣) ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطانى ، فوضعه بين يدى الغلام وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضى : تكلم وزوج ابنتى عائشة من ابن أخى هذا، فخطب القاضى خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالشار بينادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كفى ، ونظرت وإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنى عشر ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار ؛ فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يضعون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول ، حتى بقيت وحدى لا أحسر على أخذ الصينية فغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كفى والصينية فى يدى، فقمت وجعلت أتلفت إلى ورائى مخافة أن أ منع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظنى فقال للخادم : ائتنى بهذا الرجل ، فأتيته فقال : مالى أراك تلتفت يمينا وشمالا ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى^(٤)

(١) المنطقة: شقة تشد على الوسط فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض

(٢) محمرة : ما يجعل فيه العود والبحور .

(٣) الفهر : هو حجر رقيق ناعم يسحق به العود الذى جعلوه فى المحمرة .

(٤) موسى بن يحيى بن معاذ البرمكى : أمير السند من رجال الدولة العباسية ، كان من

غسان بن عباد فى أرض الهند ، وقبل رجوع غسان إلى العراق [٢١٦هـ] كتب إليه -

فأتاه به ، فقال له : يا ابني إن هذا الرجل غريب ، فخذ به إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى ولده على يدي ، وأدخلني إلى دار من دور فأكرمني غاية الإكرام وأقامت عنده يومى وليلتي فى ألد عيش وأتم سرور .

فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له : الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمت اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين فأقبضه إليك وأكرمه ، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام . ثم لما كان من الغد سلمنى أخوه أحمد . ثم لم أزل فى أيدي القوم يتداولونى مدة عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء .

فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خدام ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم اخرج إلى عيالك بسلام فقلت : وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى : مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فلانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ؛ فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند^(١) والعود ونفحات المسك ، وإذا بصياني وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق

المأمون بتولية موسى ثغر السند . ت[٢٢١هـ = ٨٣٦م] . انظر : نوزة العواطر (٦٢/١) .

(١) الندّ : عود يتبهر به .

وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمين البرامكة أنا أم رجل غريب .

فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل أححف بي عمرو بن مسعدة ، وألزمي في هاتين الضيعتين من الخراج مالا يفي دخلهما به ؛ فلما تحامل على الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرابات دورهم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليّ وأبكي على إحسانهم .

فقال المأمون : علي بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته في ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رد إليه كل ما أخذته منه في مدته وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلاً نحيب^(١) الرجل فلما رأى المأمون كثرة بكائه ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك ، فما يبكيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنيع البرامكة لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، قال إبراهيم بن ميمون ، فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف وإحسانهم فاذكر ، انتهى .

[١١٤] وقال إسحاق : دخلت يوما على المأمون في زمن الورد ، فقال لي : يا إسحاق هل قلت شيئا في الورد ؟ قلت : أقول بسعادة أمير

(١) نَحَبَ : رفع صوته بالبكاء .

المؤمنين وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء ،
فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهرا متفكر ، فلم يفتح على شيء ، فلما
أصبحت غدوت إلى دار الخلافة وإذا غلام الفضل بن مروان على باب
المأمون ومعه سبع وردات على صينية فضة ينتظر الإذن في الدخول بها
عليه ، فسألته المهلة بها قليلا فامتنع ، فسألته ثانيا وقلت : أمهل قليلا ولك
بكل وردة دينار ، فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير وأحييت أن
لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر وخرجت أقصد الأزقة لعلی أسمع شيئا
من أحد أو ينبعث خاطري ، ولو بيت واحد ؛ فبينما أنا كذلك ، وإذا أنا
برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول :

أزهي وأبهى فالصبح يطيب	اشرب على ورد الخدود فإنه
حمراء جاد بها عليك حبيب	ما الورد أحسن من توردد وجنة
ذهب بقالب فضة مضروب	صبغ المدام بياضها فكأنه

فلما سمعته نزلت عن دابتي ودخلت مسجدا بالقرب منه وطلبت ،
فلما أقبل سألته أن يملئها على فاعتل وقال : إن أردت فاعطني بكل بيت
عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ، ثم عدت أنا وغلام الفضل بن
مروان وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة ؛ فلما حسيت العود قال :
لجواريه اسكن فقد جاء إسحاق فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت
الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ، ثم أخرج إلى بدرة فيها
عشرة آلاف درهم فأعدت الأبيات ، فأخرج إلى بدرة أخرى ، فأعدت
الثالثة فأخرج إلى بدرة ثالثة ، فأخذت في غير الشعر ، فخرج إلى خادم
وقال: يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدننا على البدرة ، ولو
إلى الليل، انتهى من حلبة الكمي .

[١١٥] ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوما ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فقال لى : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز . قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك ، فقلت فى نفسى : مع هذه الرصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى .

فلما تركوه فى دارى أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو فقال : أنا من دمشق فقلت : جزى الله دمشق خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ فقال : وعمن تسأل ، قلت : أو تعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقعت لى معه قضية ، فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه ، فقلت : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها وقد خرجوا علينا ، حتى أن الوالى خرج فى زنبيل^(١) من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ؛ فبينما أنا هارب فى بعض الدور وإذا بجماعة يعدون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ومررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره ، فقلت : يا هذا أغثنى أغاثك الله ، قال : لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت ، فقالت لى زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال : دونكم الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك

(١) زنبيل : الحِراب .

المقصورة وامراته فيها فقالوا : ها هو هنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرحف ما تحملني رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لابس عليك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى .

فقلت : جزاك الله خيرا ، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لى مكانا من داره ولم يحوجنى إلى شىء ولم يفتر عن تفقد أحوالى ، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أفد منهم على خبر ، فأخذ على الموائيق بالرجوع إليه ؛ فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفنى ولا يعرف من أنا . فقال لى : علام تعزم ؟ فقلت : عزممت على التوجه إلى بغداد ، قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، فقلت له : إنك قد تفضلت على هذه المدة ؛ لك على عهد الله إننى لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا بغلام أسود ، وقال له : انعل الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي ، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب .

فلما كان يوم خروج القافلة جاء فى السحر ، فقال : يا فلان قم فلان القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركبا ، ثم قمت فلماذا هو وامراته

يحملان بقجة^(١) من أفخر اللباس ، وخفين حديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ، ثم قدم لى غلاما وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون ، وأعلمنى بما فى الصرتين : أنه خمسة آلاف درهم وشد لى الفرس الذى أنعله بسرجه ولحامه وقال لى : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامراته يحذران إلى من التقصير فى أمرى ، وأركب معى من يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأوفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أقدر أتفرغ ، إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ؛ فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذى أنا فيه قد غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تمالك أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ قال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلى وبعث أمير المؤمنين بجيوش ، فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبغى من ينصرف إليهم بخبرى وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن

(١) بقجة : صرة الثياب .

ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأه وقمت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت : يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدادا فى الليل وفك قيوده وأزال ما كان عليه من الأنكال ، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سهر من أحضر إليه غلامه ؛ فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال : على بفرسى الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا قال : ذلك الرجل وأحضر لى بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله فى الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبى عظيم عند أمير المؤمنين وخطبى حسيم ، وإن أنت احتجيت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابى فأرادوا قتلى ، فقال : انج بنفسك ، ودعنى أدبر أمرى فقال : والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، وكذا فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قتلت وقتته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتحتهد فى إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى فى مكان يشق به وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهه له كفنا ، قال : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا و رسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، وإذا هو جالس

وعليه كآبه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول ، فقال : لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ولكن اسمع ، حديثي معه : كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعا ، وعرفته أني أريد أن أفنى له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت : أنا وسيدى ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين إما أن يصفح عني ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفى يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك لاجزاءك الله خيرا عن نفسك إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير ؛ هلا عرفتني خبره فكنت أكافئه عنك ، ولا أقصر بوفائي له ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي ، فإن احتجت إلى حضوره حضر ، فقال المأمون : وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه واتتني به حتى أتولى مكافأته عنك ، قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك إن أمير المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ؛ فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحده ، حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستغنى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ، ولجامها وعشرة أبقال بالآلتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة ممالك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالروصية به ، وأطلق خراجها وأمر بمكاتبتها بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى

المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك ، والله أعلم .

[١١٦] ويحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجها إلى بيتى ، فأحسست بالبول ، فعدت لزقاق وقمت لأتمسح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس دياجا ، فقلت : إن لهذا سببا وبقيت متحيرا فى أمره فحملنى السكر على أن أجلس فيه فجلست ؛ فلما أحس بى الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط فإذا أنا بأربع جوار يقلن لى : انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة ، حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة ، لم أر مثلها إلا فى دار الخلافة ، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت فى ناحية من الجدران ، وإذا برصائف يتمشين وفى أيديهن الشمع ، وبعض محامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ؛ فنهضت وقالت : مرحبا بك من زائر وجلست ، ثم سألتنى عن خبرى ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى وغرنى الوقت ، وحرقتى البول فعدت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيل معلقا ، فحملنى السكر على أن جلست فيه فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه ، قالت : لاضير وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزاز^(١) ببغداد ، فقالت : هل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا ضعيفا ، قالت : فذاكرنا شيئا ، قلت : إن للداخل حشمة ، ولكن تبدئين أنت ، قالت : صدقت فأنشدتنى شعرا لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أفاديلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مم أعجب من حسنها

(١) بزاز : بالع ثياب .

أم من حسن روايتها، ثم قالت : أذهب ما كان فيك من الحصر ؟ قلت :
أى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا، فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء
ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت : والله ما ظننت أن يوجد فى أبناء
السوق مثل هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر فجعلت تقطع وتضع قدامى
وفى المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند
السلطان ، ودعت بالشراب فشربت قدحا ، ثمناولتني قدحا ، ثم قالت :
هذا أوان المذاكرة والأخبار ، فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغنى أن كذا
وكذا وكان رجل يقال له : كذا حتى أتيت على عدة أخبار حسان ،
فسرت بذلك وقالت كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا،
وإنما هذه أحاديث ملوك ! فقلت : كان لى جار يحادث الملوك وينادهم،
وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت ، فقالت : لعمرى لقد
أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة وأخذنا فى المذاكرة ، إذا سك
ابتدأت هى ، وإذا سككت ابتدأت أنا، حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود
يعبق وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار شوقا إليها .

فقلت : إنك من أطرف الرجال وضىء الوجه ، بارع فى الأدب وما
بقى إلا شىء واحد ، قلت : وما هو ؟ قالت : لو كنت تترنم ببعض
الأشعار؟ قلت : والله لقدىما كنت ألفت به ولم أرزقه ، وأعرضت عنه وفى
قلبي منه حرارة ، وكنت أحب فى مثل هذا المجلس شيئا منه لتكمل ليلتى .
قالت : كأنك عرضت ، فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل
وأنتِ جديرة بذلك ، فأمرت بعود فحضر وغنت بصوت ما سمعت بحسنه
مع حسن أدبها ، وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت : هل تعرف
هذا الصوت ومن غنى به ؟ قلت : لا ، قالت : الشعر لفلان ، والغناء

لإسحاق ، قلت : و إسحاق هذا -جُعِلْتُ فداك- بهذه الصفة ؟ قالت : بخ
بخ إسحاق بارع فى هذا الشأن ، فقلت : سبحان الله ، أعطى هذا الرجل
مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ، ثم لم تنزل
على ذلك ؛ حتى إذا كان الفجر أقبلت عحوز كأنها دابة لها ، وقالت : إن
الوقت قد حضر فنهضت عند قولها . فقالت : لتستر ما كنا فيه ، فإن
المجالس بالأمانات .

قلت : جُعِلْتُ فداك لم أكن أحتاج إلى وصية فى ذلك ، فودعتها
وجارية بين يدى إلى باب الدار ، ففتح لى فخرجت ، ورحت إلى دارى
فصليت الصبح ونمت ، فانتهى رسول المأمون إلى فسرت إليه ، وأقمت
عنده نهارى .

فلما كان العشاء تفكرت ما كنت فيه البارحة ، وهذا شىء لا يصبر
عنه إلا جاهل ، فخرجت وجئت إلى الزنبيل فوجدته على عادته ، فجلست
فيه ورفعت إلى موضعى البارحة ، وإذا هى قد طلعت فقالت : لقد عاودت ،
فقلت : ولا أظن إلا أننى قد ثقلت وأخذنا فى المحادثة مثل تلك الليلة
السالفة فى المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها ، إلى الفجر فانصرفت
إلى منزلى ، فصليت الصبح ونمت فانتهى رسول أمير المؤمنين إلى فمضيت
إليه وأقمت نهارى عنده .

فلما كانت العشية وجه إلى خطابا ، وقال : أقسمت عليك لتجلسن
حتى أجيء وأحضر ، فما كان حتى أن غاب وحالت وساوسى ؛ فلما
تذكرت ما كنت فيه هان على ما يخصنى من أمير المؤمنين ، فوثبت
مبادرا وخرجت جاريا حتى أتيت الزنبيل ، فجلست فيه فرفعت إلى

مجلسي . فقالت : صديقنا ، قلت : إى والله ؛ قالت: أ جعلتها دار إقامة ؟ قلت : جُعِلْتُ فداك ؛ حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم فى حل من دمي . ثم جلسنا على ذلك الحال ، فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لابد أن يسألنى فلا يقنع إلا بشرح القصة .

فقلت : إنى أراك ممن يعجب بالغناء ولى ابن عم أحسن منى وجها ، وأظرف قدا ، و أكثر أدبا ، وأطيب أرجا ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق ، فقالت : طفيلى وتقترح ! قلت لها : أنت المحكمة ، ثم قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت ، فلم أصل إلى دارى إلا ورسل المأمون قد هجموا على وحملونى حملا عنيفا فوجدته قاعدا على كرسي وهو مغتاض .

فقال : يا إسحاق أخرجوا عن الطاعة ؟ قلت : لا والله ، قال : فما قصتك أصدقنى ؟ قلت : نعم فى خلوة ؛ فأوماً إلى من بين يديه ، فتنحوا فحدثته الحديث وقلت له : وعدتها بك ، قال : أحسنت ، فأخذنا فى لذتنا ذلك اليوم والمأمون معلق القلب بها ، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول له : تجنب واحذر أن تنادبنى باسمى بحضرتها وغن وأنا لك تبع ، وهو يقول : نعم . ثم سرنا إلى الزنبيل -فوجدناهما- اثنين فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود فحضرت وأقبلت وسلمت .

فلما رآها المأمون بهت فى حسننها وجمالها ، وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ -فشربنا- وهى مقبلة عليه مسرورة به ، وهو أكثر فأخذت العود وغنت صوتا ، ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار وأشارت إلى ؟ قلت : نعم ، قالت : والله إنكما لقريبان ، فلما

شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب فصاح وقال : يا إسحاق قلت : لييك يا أمير المؤمنين ، قال : غن هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغت من الصوت قال : انظر من رب هذه الدار ، فبادرت العجوزة ، وقالت : للحسن بن سهل^(١) ، فقال : على به فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له المأمون : ألك ابنه ؟ قال : نعم ، قال : ما اسمها ؟ قال : بوران^(٢) ، قال : أمتزوجة ؟ قال : لا والله ، قال : فإني أخطبها منك ، قال : هي جاريتك وأمرها إليك ، قال : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفا تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا ، قال : نعم ؛ ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا توقف على هذا الحديث أحدا ، فسترته إلى أن مات المأمون . فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لى فى تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار و بوران بالليل والله مارأيت أحدا من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهما وعقلا ، والله تعالى أعلم انتهى من حلبة الكميت .

[١١٧] وقيل : كان المأمون يوما ، يأكل مع أبيه الرشيد فلما فرغ جعلت جارية تصب الماء على يدي الرشيد ، فنظر إليها المأمون وأشار

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى ، أبو محمد : وزير المأمون بعد أخيه الفضل ، ووالد بوران التى تزوجها المأمون . ت[٢٣٥هـ] . انظر : وفيات الأعيان (١١٧/٢) .
(٢) بوران بنت الحسن بن سهل : من أحمل النساء أدا وأخلاقا ، بنى بها المأمون فى شهر رمضان سنة [٢١٠هـ] وأنفق على عرسها أموالا جمّة ، ت[٢٧١هـ] . انظر : أعلام النساء (١/١٥٩) .

إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها وأبطأت في الصب بقدر النظر إلى المأمون، فقال لها الرشيد : لأى شيء صغى الإبريق فى يدك ، فوالله لئن لم تصدقيني الحق لأضربن عنقك ؟ فقالت : ياسيدى نظر إلى عبد الله المأمون وأشار كأنه يقبلنى ، فأنكرت ذلك بعينى ، فنظر الرشيد إلى المأمون فسقط مغشيا عليه كأنه ميت مما داخله من الخوف والفزع ، فأخذه وضمه إلى صدره وقال : يا عبد الله أتحبها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، فقال : هى لك ، خذ بيدها وادخل بها فى هذه القبة ففعل .

فلما خرج إلى الرشيد قال له : هل قلت فى هذا شيئا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أنشد يقول :

طلبى كنيست بطرفى	عن الضمير إليه
قبلته من بعيد	فاعتل من شفتيه
ورد أخبرت رد	بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكاني	حتى قدرت عليه

[١١٨] وعن أبى عبد الله التميمى أنه قال : كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ؛ فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، ويدها قربة قد ملأتها من النهر ورفعتها عن كتفها ، وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها^(١) فصاحت

(١) وكاؤها : الحامل الذى تشد عليه القربة .

برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاما قد غلبني فورها لاطاقة لى بفيها . قال :
 فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القرية من يدها ، فقال لها المأمون :
 يا جارية من أى العرب أنت ؟ فقالت : أنا من بنى كلاب ، قال : وما
 حملك أن تكونى من الكلاب ؟ قالت : والله لست من الكلاب وإنما أنا
 من قوم كرام غير لثام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى
 من أى الناس أنت ؟ قال : أو عندكم علم بالأنساب ؟ قالت : نعم ، قال :
 أنا من مضر الحمراء ، قالت : من أى مضر ؟ قال : من أكرمها نسبا
 وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضر وتخشاه ، قالت : أظنك
 من كنانة ، قال : أنا من كنانة ، قالت : من أى كنانة ؟ قال : من أكرمها
 مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخشاه ،
 قالت : والله أنت من بنى هاشم ، قال : أنا من بنى هاشم ، قالت : من أى
 هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخشاه ،
 قال : فعند ذلك قبلت الأرض ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 وخليفة رسول رب العالمين ، قال : فعجب المأمون منها وطرب طربا
 شديدا ، ثم قال : لأتزوجن بها لأنها من أكبر الغنائم ، ثم وقف حتى
 تلاحقته العسكر فنزل وأرسل خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وهى
 والدة العباس ، والله أعلم .

[١١٩] ومن محاسن الأخلاق ، ما حكى عن القاضى يحيى بن
 أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عند المأمون ، فعطش فامتنع أن يصيح
 بغلام يسيقه وأنا نائم فينغص على نومي ، فرأيت أنه وقد قام يتمشى على
 أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة
 خطوة ، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش ،

الذى أنا عليه رُحطا خطوات لطيفه لئلا ينبهنى حتى وصل إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل وقد قام يبول فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلما تحركت وثب قائما وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ؛ ثم جاء إلى وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك ؟ قلت : بخير مبيت جعلنى الله فداك .

قال : قد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصبح بالغلام فأزعجك ، فقلت : يا أمير المؤمنين لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار وانصرف .

[١٢٠] وحدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلما من المأمون دخلت عليه يوما ، وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده ويستحسنه ، ثم دعا برجل صائغ ، وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا ، وعرفه كيف يعمل به ؛ فأخذ الصائغ وانصرف ، ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره، فاستدعى بالصائغ فأتى به وهو يرعد وقد انتقع لونه ، فقال المأمون: ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراصة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ثم التفت إليه وأعاد القول ؟ فقال : الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : لك الأمان ، فأخرج الفص أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين سقط من يدي على السندال فصار كما ترى . فقال المأمون : لا بأس عليك اصنع به أربع خواتم ، وألطف له فى الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفص على أربع.

فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتدرون كم قيمة هذا الفص ؟
قلنا: لا ، قال : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا انتهى .

[١٢١] ومن حلمه أيضا قال يحيى : كنت أنا والمأمون يوما فى
بستان ندور فيه فمشينا فى البستان من أوله إلى آخره وكنت مما يلى
الشمس والمأمون مما يلى الظل، فكان يجذبني أن أكون فى الظل وهو فى
الشمس فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لى: والله يا يحيى لتكونن فى
مكاني ولاكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت
نصيبك منها .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيلك من هول المطلع
لفعلت ، ولم يزل بى حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس،
ووضع يده على عاتقى وقال : بحياتى إليك إلا ما وضعت يدك على عاتقى
مثل ما فعلت فإنه لاخير فى صحبة من لاينصف .

[١٢٢] و[قيل] من حلمه أيضا : أنه كان له خادم يسرق طاساته
التي يتروضا فيها ، فقال له المأمون : إذا سرقت شيئا فأنتى بما تسرقه
فأشتره منك ، فقال له الخادم : اشتر منى هذه وأشار إلى التي يسن يديه ،
فقال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قال: على شرط إنك لاتسرقها ، قال :
نعم. فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئا لما رأى من حلمه
والله أعلم .

[١٢٣] وروى بعض أهل الأدب : أن فتى من أهل الكوفة قد فاق
أهل زمانه فى الأدب والبيان والفصاحة باللسان ، ناقدا فى صناعته ، حافظا
للأقدار ، راو للأشعار ، خبيرا بسير الملوك فى الأيام السالفة ، بصيرا

بالبحث عن أمورهم فى الأيام الآتية ، حاذقا فى التصنيف ، فائقا فى التأليف ، صبيح الوجه ، مقبول المشاهد حلو الشمائل وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق وحال دونه حائل وقدر سابق ؛ فبقى حيناً من الدهر وقد برز فى القدر والمال والجاه من كان عنده فى الصناعة متأخراً ، فضاق صدره وعيل صبره وصلت مقاليدته . فخرج إلى بغداد واكثرى^(١) فى بعض خاناتها منزلاً ، وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكة أو ملكة ، وتربص لذلك أن يسرى وجهها إلى أن عزم أمير المؤمنين المأمون أن يشرب يوماً هو وصنوه^(٢) المعتصم

فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجوارى منفردين عن سائر الندماء ، فظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم الذى عزمنا عليه ، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل فى ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية ، ومن آخر منطقة وخفا وسيفا ، ومن آخر برذونا ، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب ، واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحراً وتطيب ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنى رسول أمير المؤمنين ، واستأذن لى عليه فسعى الحاجب عدوا حتى أخبر المعتصم ، فأذن له ؛ فلما دخل عليه وتمثل بين يديه قال له : سيدى إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا ، قال المعتصم : لا والله ما

(١) اكترى : استأجر .

(٢) صنوه : الأخ الشقيق .

نسيت ذلك ، ولكن تربصت ساعة ونمت نومة لأتقوى بذلك على انتصابي سائر النهار ، فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير فإنه أمرنى أن لا أفارقك حتى آتية بك ، فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع فى التأهب ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه ، والمعتصم لا ينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل للطافته وهيبته ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم ، وأقبل عليه بكلية ولم يتمكن من سؤاله شهوة لا استماع حديثه ، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشى بين يديه والحجاب لا ينكرون منه شيئا ويظنون أنه من خدم المعتصم حتى نزل المعتصم ، وأخذ الفتى بركابه ودخل المجلس .

فلما استقر المعتصم فى مجلسه وجلس الفتى بين يديه ، وهو منهك فى نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه ، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رفيق لا يعرف من هو ، فقال المأمون : أخى قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس ، وقد أحسن أخى إذ جعل لنا ثالثا ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة ، وإلى ما لا بد منه . ثم خرج من ساعته فرحا وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتباره قده وعقله .

فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع فى نفس المأمون نهض قائما وقبل يد المأمون وعاد إلى مجلسه ، وأخذ فى نوادره وحديثه ومضحكاته ، وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر وهو مع ذلك يروهم المأمون أنه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه ،

حتى غلب على قلب المأمون وأظهر الحسد لأخيه فى صحبته مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة فنصبت بأنواع الطعام فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ولمجلس الشراب انتقلوا وأمر المأمون بإحضار الحوارى من غير ستارة فحضرن وأخذن فى الغناء ، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به وبالفناء ومتى قيل وفيمن قيل فعز فى عين المأمون حتى ملأ عينه وتزايد حسده لأخيه فى صحبة مثله ، فمس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا ، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه ويتواصفان أمره وحاله إذا خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما ، حتى قال المأمون : لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا ، فوالله ما رأيت رجلا قط أكثر منه أدبا ، ولا أنظف هيئة ، ولا أشرف من شمائله ؟ فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو وإنه جاءنى مبكرا برسالة أمير المؤمنين ، فقال المأمون : سألتك بالله يا أخى أهو كذلك ؟ فقال إى والله الذى لا إله إلا هو ، فقال المأمون : طفيلي ورب الكعبة وغضب وأمر الحوارى بالنهوض فنهضن ، وأقبل الفتى راجعا .

فلما نظر إلى خلو المجلس من الحوارى وإلى تغير وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس ، وأقبل بوجه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق كأنى بك قد أخذت فى نوع الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التى لا تحمل المزاح وما هكذا وعدتنى ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا ، لأنه دائما أبدا يعرضنى لمثل هذا وأشباهه ، ويغرى بى ويوقعنى فى كل ورطة ، ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتنى من ملاعبتك التى لا تحتمل وتودى إلى مواخضة أمير المؤمنين ،

ولم يزل يأتى بهذا وأمثاله حتى شك المأمون فى أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخى بحياتى عليك ألا ما أعلمتنى حقيقة أمره ؟ فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حمائك وولايتك إن كنت أعرفه أو رأيته قط إلا فى يومى هذا ، فقال الفتى : كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهرى الطويل وفى مواضع كذا وكذا ، وإن هذا فعله معى أبدا فضحك المأمون تعجبا ، وقال : ادخل فدخل وأمره بالجلوس فجلس ثم قال : لك الأمان إن صدقتنى فصدقه الحديث على وجهه ، فأعجب من حسن منطقته ولطف مدخله ودقيق تصرفه ، وأمر بإعادة الحوارى إلى مجلسهن فطربوا سائر يومهم .

فقال له المأمون : أخبرنى بأعجب ما لحقك فى قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظما ولا تكتم عنى شيئا ، فقال : نعم ثم أنشأ يقول :

بيننا أنا راقداً فى البيت مكتئب	مفكر فى حصول الكد والقرت
وليس فى البيت لى شىء ألم به	وبى من الجوع ما يدنى إلى الموت
إذا بصوت يباب الدار أسمع	والأذن مصغية منى إلى الصوت
ناديت من ذا الذى أرحوه لى فرجا	نادى أنا فرج زن لى كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين فخرجت ، فإذا هو صاحب الخان يطالبنى بالكراء^(١) فوعده أن يرجع إلى مرة أخرى ، فمضى ومضيت على وجهى لا أعلم أين أتوجه فسألت كل من لقيته من

(١) الكراء : إيجار البيت .

صديق لى كنت أستاذس به ، فخطر على بالى بيتان من الشعر فى ذلك
وهما :

غريب الدار ليس له صديق جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين على جارية كأنها البدر ليلة كماله وهى
تقول:

ترفق يا غريب فكل حر يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها صبرت لها أتيح لها الطريق^(١)

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فافتك فوالله ما هى إلا مواساة من
قوت ورمت إلى صدرى بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم فرجعت من
فورى فوجدت صاحب الكراء قائما على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم
واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة وهذا الأمر الذى كلفنى وحملنى
على ما فعلت وأنشأ يقول :

لسم آت فعلا غير مستحسن جهلا بفعل الأحسن الأملح
لكنسى فى حالة أوجبت ضرورة إتيان مستفبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه ، وأمر له بحائة ألف درهم يصلح
بها شأنه، وألحقه بمراتب الخاصة ، ورفعت منزلته عنده وصار أقرب الناس
إليه ، وآخر خارج من عنده ، وأول داخل إليه ، وسمى طفيلى المعتصم
وأنشد للمأمون يوما يقول :

(١) ملمة : شدة .

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأيتك العين أهواي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذلك عن ديني ودنياي
وصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبتها على الستارة ، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حاله أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الحارية ، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها وقد مات ولم يخلف ولدا سوى تلك الحارية وما مات حتى تضعع حاله ؛ فأعلم المأمون بذلك فأمر بحطبتها للفتى ودفع المهر من عنده ، وصار الفتى والحارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما ، والله أعلم.

[١٢٤] و[قل] : سرق شاب سرقة فأتى به إلى المأمون ، فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يده فأنشد الشاب يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعينها بعفوك أن تلقى نكالا يشينها
فلا خير في الدنيا ولا راحة بها إذا ما شمال فارقها يمينها

وكانت أم الشاب واقفة على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحدى ناشدتك الله إلا رحمتي ، وهدأت لرعتي وحدث بالعفو عن استحق العقوبة فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعالى ، فقالت : يا أمير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا الحد ذنبا من الذنوب التي تستغفر منها، فرق لها المأمون وعفا عنه .

[١٢٥] وفي حياة الحيوان^(١) قال : رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر : أن المأمون أشرف يوما من قصره فرأى رجلا قائما ويده فحمة وهو يكتب بها على حائط قصره فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب واثني به ، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا وقبض عليه ، وقال : ما كتبت فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم متى يعيش في أركانك اليوم
يوما يعيش فيك اليوم من فرحي أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له : أحب أمير المؤمنين ، فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه ، فقال الخادم : لا بد من ذلك ، ثم ذهب به . فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلمه بما كتب قال له المأمون : ويلك ما حملك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى ، والحلل ، والطعام ، والشراب ، والفرش ، والأواني ، والأمتعة ، والجواري ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه ، وصفى ويعجز عنه فهمي ، وإنسى يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن ، وأنا في غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكرا في أمري ، وقلت في نفسي : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بشمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه يرجي سواها فهو يهوى انتقالها

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الباء (٢٣٢/١) .

فقال المأمون يا غلام أعطه ألف درهم ، ثم قال : هـى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته ، وأنشدوا فى معنى ذلك :
إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا فعما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكة

[١٢٦] ويحكى : أنه تنبأ^(١) رجل فى أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكرم القاضى : يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ ، وإلى دعواه فركبا فى الليل مستترين ومعهما خادم ، حتى صار إلى بابه وكان مستترا بثوبه فاستأذنا عليه ، فخرج إليهما فقال : من أنتما ؟ فقالا : رجلان يريدان أن يسلمنا على يدك ، قال : ادخلا ، فدخلوا وجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره ، فقال المأمون : إلى من بعثت ؟ قال : إلى الناس كافة ، قال : أفبوحى إليك أم ترى فى المنام أم ينفث فى قلبك ؟ قال : بل أناجى وأكلم ، قال : ومن يأتيك ؟ قال : جبريل ، قال : فمتى كان عندك ؟ قال : الساعة قبل أن تأتيانى بساعة ، قال : فما أوحى إليك ؟ قال : أوحى إلى أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك والذى يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى ، فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبئ ، انتهى .

(١) تنبأ أى ؛ ادعى النبوة كذبا .

[١٢٧] و[قيل]^(١) : دخل أبو نؤاس على القاضي يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه ، فقال الغلام : هذا مر عليّ وقبلني كرها ففتن به القاضي فأنشد يقول :

إذا كنت للتعويض والبوس كارها فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ من تحت طرة وتشهر منها فوق خديك عقربا
فلما سمع الغلام ، أنشأ يقول :

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا فأعقبني بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها إذا كان قاضي المسلمين يلوط
[١٢٨] ويحكى^(٢) : أنه كان عند المأمون يوما فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط : يا يحيى من ذا الذي يقول :

قاض يرى الحد في الزنا ولا يرى علي من يملوط من باس
فقال له : الذي يقول :

ما أرى الحور ينقضى وعلى الأمة وال منكم بنى العباس

[١٢٩] ويقال : إن المأمون شرب يوما ومعه القاضي يحيى بن أكثم، فمال الساقى على القاضي حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقي

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٤٠١ .

(٢) قلت : ونحن نربأ بالقاضي يحيى بن أكثم عن مثل هذه الحكايات التي دُست عليه حسدا ، وحقدا ونكرها ؛ كما أنكرها الإمام أحمد بن حنبل ، حيث قال : ما عرفت فيه بدعة . وكفى بشهادة إمام أهل السنة له . تقدمت ترجمته فقرة [٩١] .

عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتي شعر وقال :
لمغنيته خذى العود وغنى على رأسه ، فغنت وقالت :

ناديته وهو حى لا حراك له مزمّل فى ثياب من رياحين
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى فقلت خذ قال كفى لا يواتينى

فاستيقظ يحيى لركة العود والجارية تغنى البيتين فقام وقال :

يا سيدى وأمير الناس كلهم قد حار فى حكمه من كان يسقىنى
سقانى الراح لم يمزج سلاقتها حتى بقيت سليب العقل لا الدين

[١٣٠] قال الواقدي^(١) : كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه
الخلافة بالرى^(٢)، وأقام مالكةا سنة وأحد عشر شهرا وأثنى عشر يوما وله
أخبار كثيرة .

فمما حكاها قال : لما دخل المأمون الرى فى طلبى أثقل على الطلب
وجعل لمن دل على وأتاه بى مائة ألف درهم فخفت على نفسى وتحيرت
فى أمرى ، فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدري أين
أتوجه فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم
إنالله وأنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعت على أثرى يعلموا بى فرأيت فى

(١) محمد بن عمر بن واقد انسهمى ، أبو عبد الله الواقدي : الحافظ ، صاحب المغازى
والسير من أقدم المؤرخين فى الإسلام ، ت [٢٠٧هـ] . انظر : تذكرة الحفاظ
(١/٣١٧) .

(٢) الرى : مدينة فى شمال إيران ، بضاحية طهران ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام،
وازدهرت فى عهد العباسيين وكانت من العواصم الإسلامية التجارية والثقافية . ولد
فيها هارون الرشيد . عثر بها المغول [٦١٧هـ] .

صدر الزقاق عبداً أسوداً قائماً على باب داره، فتقدمت إليه وقلت له :
عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ، قال : نعم وفتح الباب فدخلت إلى
بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد ، ثم إنه أغلق الباب على
ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالة فى حقى ، وأنه عرفنى ومضى
ليدلهم على فبقيت مثل الحبة فى المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف .

فبينما أنا كذلك إذا أقبل معه حمال حامل كل ما احتاج إليه من
لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إلى وقال : جعلنى
الله فداك أنا رجل حمام ، وأنا أعرف إنك تنفر منى لما أتولاه من معيشتى
فشانك بما لم تقع عليه يدى ، وكان لى حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت
قدرا ما ظننت أنى أكلت مثلها قدرا ؛ فلما قضيت أربى قال لى : هل لك
أن تشرب شيئاً فإنه يسلى الهم ، ويزيل الغم ، ويهد للنفس الفرح ؟ قلت :
ما أكره ذلك رغبة فى مؤانسته ، فأتى بقطر ، ميز جديد ، وأحضر لى نقلا
وفاكهة فى أوان جدد من فخار ثم قال بعد ذلك : إن أذنت لى - جعلت
فداك - أن أقعد بناحية منك وآتى بشراب فأشرب مسرورا بك ؛ فقلت :
افعل ، ففعل وشرب ثلاثا ، ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عبداً مصلحاً ،
ثم قال : يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ولكن قد وجب على
مرؤتك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغنى لنفسك ، والعبد
يسمع فافعل فقلت له : ومن أين لك أنى أحسن الغناء ؟ فقال متعجبا :
سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت : إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس ،
الذى جعل المأمون لمن يدل عليك مائة ألف درهم ؛ فلما قال ذلك
عظمت مرؤته عندى وعلمت أن نخوته أجل مما بذل فتناولت العود
فأصلحته وقد مر بخاطرى ذكر أهلى وولدى فقلت :

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال : يا سيدى اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به ، قلت : نعم ، فقال :
غن لى :

إن الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فهو يملك حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة فلعلها أن تنحلى فلعلها

فحسن عندى اقتراحه وشربت ، ثم قال غن لى :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تياسن فالله ملك يوسف خزائنه بعد الخلاص من السجن
ففرح وشربت ، وقال غن لى :

إذا الحادثات بلغن النهى وكساد لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التامى يكون الفرج

فغنيته وحسن فى نفسى اقتضاؤه ، وأنست به واستظرفته ثم قال : إن
رأيت يا سيدى أن تأذن لى أن أغنى ما خطر ببالى وإن كنت من غير أهل
هذه الصناعة ، فقلت : يكون ذلك زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود
ثم قال : دستور ، ثم ضرب عليه وغنى ويقول :

شكرونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سرعيا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فقلت : والله ذهب عني كل ما كان عندي من الفزع ، وسألته يغني

فغني يقول :

تعميرنا أنا قليل عدادنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
وأنا لقوم لانرى الموت سبة	إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد أجاد وذهب عني كل ما كان من الفزع والجزع واستأنست به ، وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه وعالجنى النوم قبل أوانه ، فمنت ولم أستيقظ إلا بعد المغرب ، وجال فكري في هذا الحمام وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه ، وإشارته إلى تخصيصه بالرفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهي وأيقظته ، وأخذت خريطة كانت صحبتني فيها دنائير ومصاغ له قيمة ، فدفعتها إليه وقلت له : أنت في وديعة الله وحفظه فإنني ماض عنك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة^(١) في بعض مهماتك ، ولك عندي إذا أمنت المزيد ، فأعادها عليّ مبادراً ، وقال : يا سيدي الصعلوك من لا قيمة له عند أهل الرياسات ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفاخذ علي ما وهبني الله من قربك وحلولك في منزلي ثمناً ؟ لا والله ، فالححت عليه ، فأخذ موسى له ييده ، وقال : والله إن راجعتني لأنحرن نفسي ، فحشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلني حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار قال : يا سيدي إن هذا الموضوع أخفى لك من غيره وليس عندي في مؤنتك ثقل ، فأقم عندي

(١) الخريطة : وعاء من الجلد .

إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من تلك الخريطة ، فلم يفعل وكان آكل يوم يفعل بى مثل ما فعل فى اليوم الأول .

قال : فأقمت أياماً فى أطيب عيش وأهنأه ، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه ، فتركنى ومضى يحدد لنا حالنا ، فلبست ثيابى وتزينت بزي النساء : بالخف والنقاب ، وخرجت . فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف والفرع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر ، وإذا هو قدرش ورجل قائم فأبصرنى بعض من كان فى خدمتى من الجند ، فتعلق بى وقال : طلبة أمير المؤمنين فدفعته فى صدره فوقع فى الزلق^(١) ، وصار عبرة وتبادر الناس إليه ، فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فرجحت بابا وامرأة واقفة فقلت : يا سيدة النساء احقنى دمي فإنى رجل خائف ، فقالت : ادخل فدخلت فأطلعتنى إلى غرفة وفرشت لى ، وقدمت لى طعاما وقالت : ليهدا روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق فخرجت ، وفتحت الباب ، فإذا هو صاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ^(٢) الرأس ودمه يسيل على ثيابه فقالت له : ما دهاك ؟ قال : إن حديثى عجيب وأمرى غريب ظفرت بالغنى ، وقد انفلت من يدى . قالت : وكيف ؟ قال : إبراهيم بن المهدي لقبيته فتعلقت به فدفعنى فأصابنى ما ترين من حالى ، ولو حملته إلى أمير المؤمنين ، لأخذت منه مائة ألف درهم . قال : فأخرجت له حراقا وذرورا وفرشت له بعد كبس جرحه ، فنام قليلا وطلعت . وقالت لى : أظنك

(١) الزلق : أرض ملساء لا تثبت عليها قدم .

(٢) مشدوخ : مكسورة .

صاحب القصة؟ قلت: نعم ، فقالت لى : إني خائفة عليك ، ثم جددت لى الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام . ثم قالت لى : إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك ، فینم عليك ، فانج بنفسك ، فسألته إلهالى إلى الليل .

فلما دخل الليل ، لبست زى النساء وخرجت من عندها ، وأتيت إلى بيت مولاة لنا ؛ فلما رأتنى بككت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتى، وخرجت كأنها تريد كرامتى فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام بالضيافة فظننت خيرا ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلى بغيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتنى إليه ؛ فرأيت الموت عيانا وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين . فجلس مجلسا عاما وأمر بإدخالى عليه .

فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة ، فقال لى : لا سلمك الله ، ولا حفظك ، ولا رعاك . فقلت: يا أمير المؤمنين إن ولى الشار محكم فى القصاص، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ، ما يأمن معه عادية الدهر وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذى عفر، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك وأنشدت أقول :

ذنبى إلهك عظيم	وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا	فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فعالى	من الكرام فكنه

قال : فرفع رأسه إلى فقلت مبتدرا :

أتيت ذنباً عظيماً وأنت للعفو أهل
فلإن عفوت فمن وإن جزيت فعذل

قال : فرق المأمون ، واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله ، ثم أقبل على أخيه ، أبي إسحاق محمد المعتصم ، وابنه العباس^(١) ، وجميع من حضر من خاصته ، وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشار الكل بقتلى ، إلا أنهم اختلفوا في القتل. فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما تقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن قتله فقد وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو . فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل بخط في الأرض بأصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومي همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيني سهمي

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عم : فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أقوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكن أقول شعرا :

إن الذى خلق المكارم حازها فى صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة وتظلل تكلوهم بقلب خاشع

(١) العباس بن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد : أمير عباسي . ولاء أبوه الحزيرة والثغور والمواصم [٢١٣هـ] ولما مات المأمون ، وولى المعتصم امتنع كثير من القواد والرؤساء من متبايعته ونادوا باسم ابن أخيه العباس بن المأمون ، فدعاه المعتصم إليه وأخذ يبعته ، فخرج العباس وسكن الناس وأقام إلى أن خرج المعتصم إلى الثغور ، فاتفق العباس مع بعض القواد على قتله ، فعلم المعتصم فقبض عليه وعلى أصحابه ، وسجنه إلى أن مات [٢٢٣هـ-٨٣٨م] . انظر : الأعلام (٢/٢٦٢) .

ما إن عصيتك والغواة تمدنى
وعفوت عمن لم يكن عن مثله
أسبابها إلا بنيسة طائع
عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أشبالا كأفراخ القطا
وحسين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب اليوم عليك^(١) ، قد عفوت عنك ، ورددت
عليك مالك وضياعك فأنشدت أقول :

رددت مالى ولم تبخل على به
أمنت منك وقد خولتني نعمما
وقبل رذك مالى قد حقنت دمي
نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمي أبغى رضاك به
والمال حتى أسل النعل من قدمي
وإن جحدتك ما أوليت من نعم
إني إلى اللوم أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاما كالدر ، وهذا منه ؛ وأمر لى
بمالي ، وخلع على وقال : يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك ،
فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن فعلت ما أنت أهله ودفعت ما
خفت أنا بما رجوت ، فقال المأمون : لقد مات حقدى بحياة عذرك ،
وقد عفوت عنك ؛ ثم سجد المأمون طويلا ؛ ثم رفع رأسه ؛ ثم قال : يا
عم أتدرى لم سجدت ؟ قلت له : شكر الله تعالى على ما أوقعك على
وملكك إياى فى يدك تفعل بى ما تشاء ، فقال : أخطأت ولكن أشكر الله
تعالى على ما ألهمنى من العفو عنك من قبل نفسى ، ثم قال : وأعظم من
عفوى عنك أننى لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين فحدثنى بما كان من
أمرك ، فشرحت له ما جرى لى مع الحمام ، والجندي وزوجته ، والمولاة
التي أسلمتني ، فأمر المأمون بإحضارها وهي فى دارها تنتظر الجائزة .

(١) لا تثريب عليك : أى لا لوم عليك .

فلما حضرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت من تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك ؟ قالت : رغبة فى المال ، قال : هل لك من ولد أو زوج ؟ قالت : لا ، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها فى السجن ، ثم أحضر الجندى وامراته ، والحمام فسأل الجندى عن السبب الذى حملة على ما فعل ؟ قال : رغبة فى المال ، فقال : إنك أولى بأن تكون حماما من أن تكون خداما ، ووكل من يلزمه الجلوس فى مكان الحمام ليتعلم الحمامة^(١) وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات ، وسلم للحمام دار الجندى وما فيها وخلع عليه وأثبت برزقه فى الديوان وزيادة ألف دينار فى كل سنة ؛ ولم يزل كذلك إلى أن مات ، والله أعلم .

[١٣١] وعن محمد بن عبد الله التميمي قال : حدثنا أحمد بن محمد الحريرى ، قال : كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي من الأموال ، ما لا يسعه الديوان ، ولا تأكله النيران لكثرت ، وكانت آدب نساء بنى هاشم وأفصحهن لسانا ، وأقولهن شعرا ، فدخلت على المأمون يوما وكانت تحبه غاية الحب سرا ، وكان المأمون جالسا فى إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يتدعه أحد من الخلفاء قبله ، وكان قد تأنق فى بنائه وكان فيه من كل صورة فى البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة ، وقد فرش بيساط من الديباج الأصفر وأسبل عليه ستورا من الحرير الصينى وقد أقام فيه

(١) الجِجَامَة : المداواة والمعالجة بالمِخْحَم ، قال الأزهري : المحجم بالكسر هو الآلة التى يجمع فيها الدم عند جذبه من الإنسان .

أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير وقد لبسن الوشى^(١) بطرر وشعور وإصداغ
وهن بقدر واحد ، لاتزيد الواحد منهن على الأخرى ؛ أقام مائتين عن يمينه ،
ومائتين عن يساره .

فقال : يا حمنة هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا
الإيوان ، مع فرشه ، ومثل هؤلاء الحوارى مع زينتهن ؟ فقالت : يا أمير
المؤمنين متعك الله به ، وعمره بك ، فلقد أوتيت ملكا عظيما تستأهله
لترفهك وشرفك ، فإن أجبتَ خادمتك حمنة؛ أجلستك فى مجلس لم
تجلس فى مثله قط ، وأصادتك صيدا لم تصد مثله قط ، وأسقتك شرابا لم
تشرب مثله قط ، وكان عنده يحيى بن أكثم . فقال لها : يا حمنة قد
أجبتُك إلى مأسألتينى ، ولكن لاينفعنى ولايهنأ لى ذلك إلا بمشهد من
يحيى بن أكثم، فإنه لايطيب لى مجلس إلا به . فقالت : نعم يا أمير
المؤمنين ثم ضربت يدها فى جيبها فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر
محشوة مسكا أذفر ، فدفعتها إلى يحيى وقالت : يا يحيى إن الأجير لا يعمل
حتى يستوفى أجرته ، وهذه أجرتك منى فككن مستحشا لى أمير المؤمنين
غدا عند الزوال فى المسير إلى منزل خادمته ، فقال : حبا وكرامة . ثم
خرجت من عنده فهيات ما تحتاج إليه للمأمون وغيره .

فلما كان من الغد جلس المأمون فى مجلس السلام . فلما زالت
الشمس وصارت فى كبد السماء ، قال يحيى : ياأمير المؤمنين الحاجة التى
عرضت عليك بالأمس ، ففطن المأمون لذلك وقام من مجلسه ولبس ثياب

(١) الوشى : الثوب المنعم المنقوش .

التجار ولبس يحيى مثل ذلك ، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين وركباهما حتى أتيا دار حَمْنَة ، فدقا الباب دقا خفيفا ، فسمعتنه فأقبلت بنفسها حتى فتحت الباب ، وأقبلا يمشيان جميعا حتى انتهوا إلى بيت فى بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش وإذا فى صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدُر وصنوف الجواهر وهى :

ما سرنى أن فوادى ولا	أن لسانى بالمدام حلا
وأن لى ملك بنى هاشم	يحىء إلىى أولا أولا
إن لم أشاهدك أياما لكى	تأتى إلىى يبنى كذا مقبلا
يا سائلى روى بلا علة	أنت المعافى وأنا المبتلى

فقال المأمون : يا يحيى ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت ، وإذا فرشه أرمنى محفور منقوش بالآلآت ، وإذا فوق الأرمنى مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش ، وفى البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف فى أوانى الذهب والفضة ، وتفوح منه روائح لا يدرى ماهى من طيبها ؛ ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت.

فقالا : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ثم دعت لهما بمائدة من الجزع اليمانى قوائمها منها قطعة واحدة فوضعت وقدمت عليها الألوان الغريبة ، فقال المأمون : ما طعمت مثل هذا الطعام قط ، ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما ، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية والبلور فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام ، فهى تحكى الهواء لرقتها ، والياقوت لحررتها والزنجيل لحدتها ، ووضعت بين

أيديهما مع أقداح وأنطال^(١) تشاكل ذلك ؛ فقال المأمون : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ثم أخرجت جاريتين عليهما ثياب الرشى الكوفى المنسوج بالذهب وعلى رؤوسهما مقانع رشيدية وتيحان من الذهب مكللة بالجوهر ، فجلستا وفى حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة ، فحركتا الأوتار وغتتا بصوت شجى مليح من أنواع الأغاني وغرائب الأصوات .

فقال المأمون : هذه الجنة بما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر ، فقال يحيى : وقد بقى لنا يا أمير المؤمنين شرط آخر ، فقال : وما هو يا يحيى ؟ قال : الصيد يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت يا يحيى ، ثم قال : يا حمئة ما فعل الصيد ؟ فقالت : قوما إليه فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستانا لم يريا مثله ، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه ، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت ، والقمرى ، والهزار ، والطواويس فكانت الأطيوار تغنى من رؤوس الأشجار ، وتغرد بالسر والأجهار ، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخطود ومباسم ساطعات الأنوار ، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتهما وأحسن ، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف ، وفى وسطهن مناطق الذهب الأحمر ، وتقدمت إليهن وقالت لهن : إذا رأيتم المأمون ويحيى تعادين ما بين الأشجار .

فلما دخل المأمون ويحيى البستان فعلمن ما كانت أمرتهن فتضاعف السرور على المأمون وأعجب المأمون بذلك عجبا شديدا ؛ ثم قال ليحيى :

(١) أنطال ، مفردا النِطَل : وعاء يكال به العمر واللبن ، ونحوهما .

هذا الصيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيك فيه ! فقال المأمون : لو كان لنا كلب لاصطدنا هؤلاء ، فقال يحيى : أنا كلبك يا أمير المؤمنين فعدا المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية ، فقالت حمنة : سألتك بحق أجدادك ألا ما خلعت عن الحوارى لا لبخل أبخل بهن عليك ، وقد فهمت المعنى فيه ، وقد كانت حمنة تغار على المأمون ، فغلى عن الحوارى وقال ليحيى : دونك والصيد إذن أنت محل .

فقال يحيى : لو كان لى كلب لاصطدت من هؤلاء فقال المأمون : أنا كلبك فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض ، وعدا خلفهن فأخذ منهن خمسة ، فقالت حمنة : يا يحيى لك الخمسة ولاغيرة لى عليك ، وإنما أغار على المأمون لحاجتى إليه ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت الهوى الغالب فى حماليق عينيها ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويحك إياها إن رأيت ذلك ، فقال المأمون : أنا برىء من رسول الله ﷺ ومتنف من جدى العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها ، ثم قال : يا يحيى أخطب خطبة النكاح ، فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار وأقطعها مائة من متخبات الضياع ؛ فحمدت حمنة الله سرورا بما ظفرت من تزويج المأمون إياها ؛ وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار ، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه فى تلك الليلة فواقعها فحملت بالعباس ابنه انتهى .

[١٣٢] وحكى : أن المأمون كان مشغورا بحب جارية يقال لها : نسيم ، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال ، وكان لا يفارقها فى الحضر ولا فى السفر ؛ ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها

وأعرض عنها ، فاغتمت ولم تجد حيلة فى استعطافه ، وكانت لها جاريه رومية أحسن منها فى العقل والأدب ، وكتمت أمرها عن المأمون . فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف فقصده^(١) فحصل له الشفاء ، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا ، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة هدية ومعها جام بلور^(٢) وغطته بمنديل ديقى مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغى صحة	ألسك الله به العافية
فاشرب بهذا الجام يا سيدي	مستمتعا بهذه الجارية
واجعل لمن أهداكها زورة	تحظى بها فى الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية ، ثم بعث لها يقول :
نعم وفى هذه الليلة ثم رضى على نسيم وواصلها بعد ذلك .

[١٣٣] وحكى : أن المأمون مر يوما على زبيدة أم الأمين فراها تحرك شفيتها بشيء لا يفهمه فقال لها : يا أماه أتدعين على لكونى قتلت ابنك وسلبته ملكه ، قالت : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : فما الذى قلتيه؟

قالت : يعفنى أمير المؤمنين فآلح عليها ، وقال : لا بد أن تقولى قالت له : قلت : قبح الله اللجاجة^(٣) ، قال : وكيف ذلك ، قالت : لأنى لعبت يوما مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبنى

(١) فَصَدَّ المَرِيضُ : شَقَّ عِرْقَهُ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ .

(٢) جام بلور : كَأْسٌ مِنَ الْبُلُورِ .

(٣) اللَّجَاجَةُ : التَّمَادَى فِي الْعِنَادِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَزْجُورِ عَنْهُ .

فأمرنى أن أتجرد من أثوابى وأطوف القصر عريانة ، فاستغفيتها ، وبذلت له أموالا لا تحصى فلم يعف عني ، فتجردت من أثوابى وطففت القصر عريانة ، وأنا حقدة عليه ؛ ثم عاودنا اللعب فغلبته ، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة ، فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لى عن خراج مصر والعراق فأبيت ، وقلت : والله لتطأنها فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ ، فلم أر جارية أقبح ، ولا أقدر ، ولا أشوه خلقة من أمك ؛ مراحل ، فأمرته أن يطأها فوطئها ، فعلمت منه بك فكنت سببا لقتل ولدى وسلبه ملكه ، فولى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللعاجة ، أى التى لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر انتهى^(١) .

[١٣٤] [وقيل] : أتى شاعر المأمون ، فقال : لقد قلت فيك شعرا ، فقال : أنشدنيه فقال :

حياك رب الناس حماكا	إذ بحمال الرجل رقاقا
بغداد من نورك أشرفت	وأورق العود بحدواكا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابى ، وأنا قد قلت فيك شعرا وأنشد يقول :

حياك رب الناس حماك	إن الذى أملت أخطاك
أتيت شخصا قد خلا كيسه	ولس حوى شيئا لأعطاك

فقال يا أمير المؤمنين الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئا يستطاب ، فضحك المأمون وأمر له بمال انتهى .

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهزة (١١٥/١) .

[١٣٥] وروى ابن عامر الفهرى عن أشياخه قال : أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالزندقة ، فحملوا إليه فمر بهم طفيلي^(١) فرآهم مجتمعين ، فظن خيرا ومضى معهم إلى الساحل ، وقال ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة ، فانسل ودخل الزورق ، وقال : لا شك أنها نزهة ، فلم يكن إلا يسير حتى قيد القوم وقيد معهم ، فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له ورام الخلاص فلم يقدر ، وساروا إلى أن وصلوا إلى بغداد ، وأدخلوا على المأمون فاستدعى بهم بأسمائهم واحدا بعد واحد وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه حتى لم يبق إلا الطفيلي وفرغت العشرة .

فقال المأمون للموكل : من هذا ؟ فقال : لا أعلم يا أمير المؤمنين غير إننا رأيناه معهم فحطنا به ، فقال : يا أمير المؤمنين امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت إنها وليمة يدعون إليها ، فلحقت بهم . فضحك المأمون ، وقال : أو قد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل ، لقد سلم هذا الجاهل من القتل ولكن يؤدب حتى لا يعود إلى مثلها ، وكان إبراهيم بن المهدي حاضرا ، فقال : يا أمير المؤمنين هبه لى ، وأنا أحدثك عن نفسى فيما وقع لى فى التطفل من العجب ، فقال : وهبته لك هات حديثك .

فقال : يا أمير المؤمنين خرجت متنكرا يوما أنظر إلى سكك بغداد ، فاستهوى بى الطرب والتفرج فانتهى بى المسير إلى موضع شممت فيه

(١) طَفِيلَى : الذى يدخل وليمة ولم يُدع إليها ، وهو منسوب إلى رجل اسمه طَفِيل .

رائحة طعام وأبازير^(١) قد فاحت وهفت نفسى إليها ، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المشى فرفعت بصرى وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه ، فبقيت حائرا ونسيت رائحة الطعام بذاك الكف ، فأخذت فى عمل الحيلة إلى الوصول إليها ، فإذا بجانب المكان حياط فسلمت عليه فرد على السلام ، فقلت : يا سيدى لمن هذه الدار ؟ فقال: لرجل من البزازين ، فقلت : ما اسمه ؟ فقال : فلان ، قلت : هو ممن يشرب الخمر قال : نعم ، وأظن أن عنده اليوم أصحابه تجار مثله ، فبينما نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان ، فقال لى : هذان ندماؤه ، فقلت له : ما اسمهما وما كنيتهما ؟ فقال لى: فلان الفلانى ، وفلان الفلانى ، فحركت ورائتهما رجلى ، فلحقتهما فقلت : جعلت فداءكما استبطأكما فلان أعزه الله ، ولم أزل معهما حتى أتيت البيت فدخلت، ودخلا . فلما رآنى صاحب البيت بينهما لم يشك فى أنى معهما ، فرحيب بى وأجلسنى فى أفضل الأماكن ثم جىء بالمائدة ، ونقلت إليها الألوان .

فقلت فى نفسى : هذه الألوان قد منُ الله على بلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ، ثم جىء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أطرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بى ويقبل على لظنه أنى ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الطرف وحسن الهيئة ، فسلمت من غير خجل ولا احتشام وجلست وأتى بعود فحسته أحسن جس وإذا هى حاذقة فى الصناعة وغنت تقول :

(١) البز ، جمعه أبزاز ، وجمع الجمع أبازير : التابل ، وهو ما يطيب به الغذاء .

ترومها فكري فأصبح خدها وفيه مكان الروم من نظري أثر
وصافحها كفى فألم كفها فمن ضم كفى في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلالي فطربت لحسن شعرها وحذقها ، ثم
غنت تقول :

أشرت إليها هل عرفت مودتي فردت بطرف العين أنى على العهد
فحادث عن الإظهار عمدا بسرها وحادث عن الإظهار أيضا على عمد
فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر ،
فضحكت لما أصابني من الطرب الذي لم أملك نفسي معه ، ثم غنت
تقول:

أليس عجيبا أن يتأ يضمننا وإياك لا نلهو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس وتقطع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكف يسلم

فزاد حسدى لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها ، وإصابتها معنى
الشعر ، لأنها لم تخرج عن المعنى ، وقلت : عليك يا جارية شيء ، فرمت
العود من يدها ، وقالت : متى كنتم تحضرون الغناء ! فندمت على ما كان
منى ، ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا على ، فقلت فى نفسى : فانتى جميع
ما أملت وأحببت أن أتلافى قضيتى ، فقلت : أئتم عود غير هذا ؟ قالوا :
نعم فأحضروا عودا فأصلحت ما أردت إصلاحه ، ثم قلت:

ما للمنازل لا تحيب حزينا أصممن أم قد بالبلاء يلينا

فما أتممت شعري ، حتى وثبت الحارية إلى وانكبت على يدي
تقبلها، وتقول: المعذرة إليك يا سيدي والله ما علمت مكانك ولا سمعت
بهذه الصناعة من أحد ، ثم زادوا إكرامي وطربوا غاية الطرب ، فشربت
عدة أقداح ثم غنيتهم أبياتا فرأيت من طربهم شيئا عظيما ، حتى قلت : إن
أرواحهم فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا إلى عقولهم
فغنيتهم ، وقلت :

هذا محبك مطوى على كمده	وحدا وأدمعه تحرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته	مما به واليد الأخرى على كبده
يا من يرى كلفا فى جبه دنفا	كانت منيته فى عينه ويده

قال : فجعلت الحارية تصيح وتقول : هذا والله الغناء ، والذي كنا
فيه ليس بشيء . وشرب القوم ؛ فلما جاءهم البسط وأخذ المجلس منتهاه ،
أمر صاحب البيت عبيدین له أن يحفظا التديمين إلى مترلها ، وخلوت معه
فقال : والله يا سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلا حيث لم أعرفك قبل
يرمى هذا فبالله يا مولاي من أنت؟ فجعلت أرد عليه وهو يقول ، ويقسم
على حتى أعلمته من أنا على الحقيقة ، فلما سمع ذلك قام على قدميه
وقال: عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك ، وقد أصابني من الدهر
نعم لا أقوم بشكرها ، ثم قال : أترى هذا بقطة أم مناما أقسمت أنى لا
أزال هذه الليلة قائما إلى أن تأذن لى فلانى أحفر من أن أجالس الملوك ،
فأقسمت عليه بأن يجلس ، ثم أخذ فى الكلام وجعل يعرض على السبب
الذى أوجب حضوري عنده بالطف تعريض ، فأخبرته بأمرى على الحقيقة ،
ولم أخفه شيئا ثم قلت له : الطعام قد نلت منه بغيتى ، وبقي الأمر الآخر
فرثب إلى باب القاعة ، وقال : كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا

من المخدع ، ثم استدعى بهن وجعل يقول : يا فلانة وهن يخرجن واحدة بعد واحدة ، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتى أربعون امرأة .

فقال والله ما بقى إلا أختى وها أنا مخرجها إليك ، فقلت : افعل ، فقال : حبا وكرامة ، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها ، فإذا هى التى رأيتها ، قلت : هذه الحاجة ، فأمر غلمانها لوقته أن يأتوا بعشر شهود ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفا أخرى . فلما حضروا قال لهم : هذا سيدى إبراهيم بن المهدي يخطب أختى فلانة ، وأشهدكم أنى قد زوجها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فقلت : قبلت الزواج ، ثم دفع الألف التى كان أخرجها لهم ، فشكروا له ودعوا وانصرفوا ؛ ثم قال : يا سيدى أمهد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك ، فأعجبني ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها فى داره .

فقلت له : بل أجعلها فى عمارية وأحملها إلى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا ، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين . فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال : لله دره ما أكرمه والله ما سمعت بمثله قط . ثم أطلق الطفلى ، وأمر بإحضار الرجل واستنطقه ، فأعجبه حسن منطقته وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومنادميهِ ، والله أعلم .

١٠ - فصل

ذكر خلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد^(١)

هو ثامن خلفاء بني العباس ، وكان شديد القوة ما كان فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والإقدام .

[١٣٦] قيل إنه أصبح ذات يوم وكان برده شديدا وثلجه عتيذا فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه ، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم، أربعة آلاف قوس وكان يدعى المثلث .

[١٣٧] وأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي^(٢) يمدح المعتصم بن هارون الرشيد يقول :

إن جس عودا رأيت الخيل ناقصة كأنها من سماع هزها نغم
أو حركت يده اليمنى له وترا على أعاديه غنى اليوم والرخم^(٣)

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور : خليفة عباسى من أعاضم الخلفاء .
بويج بالخلافة [٢١٨هـ] يوم وفاة أخيه المأمون ، وبعهد منه ، وكان بطرسوس . وهو
فاتح عمورية من بلاد الروم ، وهو باني مدينة سامراء [٢٢٢هـ] ، وهو أول من أضاف
اسمه إلى اسم الله تعالى ، وكان لين العريكة رضى الخلق ، اتسع ملكه . وكان له
سبعون ألف مملوك ، مدة خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر . ت [٢٢٧هـ - ٢٨٤١م].
انظر : ابن الأثير (١٤٨/٦-١٧٩) ، تاريخ بغداد (٣/٣٤٢) .

(٢) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي : من أشهر شعراء العصر العباسى ، نشأ فى دمشق
وتوفى فى الموصل ، مدح الخلفاء ولاسيما المعتصم . ت [٢٣٠هـ - ٨٤٥م] .

(٣) الرخم : طائر من الطيور الحارحة .

كان يقول بخلق القرآن ، وضرب على ذلك أحمد بن حنبل على أن يقول ذلك فلم يقل رضى الله عنه ، وله معه كلام طويل ، فانظره فى حياة الحيوان^(١) .

[١٣٨] ومن لطائف الحكايات ، ما روى عن أحمد بن أبى دؤاد القاضى^(٢) أنه قال: جىء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيرا ، وكان قد خرج عليه . قال : فما رأيت رجلا عرض عليه الموت ، فلم يكثر^(٣) به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع . فلما مثل بين يديه نظر إليه ، فأعجبه حسنه ، وقده، ومشيه إلى الموت غير مكترث ، فأطال الفكر فيه ، ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ؟ فقال : أما إذا أذن أمير المؤمنين فى الكلام فإنى أقول الحمد لله الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولم بك شعت المسلمين ، وأحمد بك نار الباطل ، وأنار بك سبل الحق : إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب : وأيم الله لقد أعظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك وهو أشبه بك وأليق ، ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا يلاحظنى من حيث لا أتلفت

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١١٨) .

(٢) أحمد بن أبى دؤاد الإبادى : من قضاة المعتزلة ، ورأس الفتنة بالقول بخلق القرآن . وزير المعتصم ، كان من المعتصم كيجيى بمن أكثم من المأمون ،

ت[٢٤٠هـ=٨٥٤م] .

(٣) يكثر : يالى به .

وأكبر ظننى أنيك اليوم قاتلى
ومن ذا الذى يأتى بعذر وحجة
يعز على الأوس بن تغلب موقف
وما جزعى من أن أموت وإننى
ولكن خلفى صبية قد تركتهم
كأنى أراهم حين أنمى إليهم
فإن عشت عاشوا فى سرور ونعمة
فكم قائل لا أبعد الله داره

وأى امرئ عما قضى الله يفلت
وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يسل على السيف فيه ويصلت
لأعلم أن الموت شىء مؤقت
وأكبادهم من حسرة تفتت
وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
أذود الردى عنهم وإن مت موتوا^(١)
وآخر جذلان يسر وهشمت^(٢)

قال : فبكى المعتصم ، ثم قال : إن من البيان لسحرا ، كما قال :
النبي ﷺ . يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل ، قد غفرت لك
الهفوة ووهبتك للصيبة ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف
دينار . انتهى من زهر الكمام فى قصة يوسف عليه السلام .

[١٣٩] وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغنى^(٣) قال :
تطلقت طفيلة ، قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم . قيل
له وكيف ذلك ؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له :
يا أمير المؤمنين إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير
المؤمنين ، قال : نعم فأمر البوابين أن يتركونى ، فخرجت أتمشى فى

(١) الردى : الهلاك .

(٢) جذلان : فرحان .

(٣) مخارق أبو المهنا بن يحيى الحزار : إمام عصره فى فن الغناء ، ومن أطيب الناس
صوتا ، ت [٢٣١هـ - ٨٤٥م] . انظر : الطبرى (٢١/١١) .

الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها ، فتبعها ورأيت معها زنبيلًا ، فوقفت على فاكهاني ، واشترت سفرجلة بدرهم ، وإنصرفت فتبعها ، فالتفت فرأنتي ، فقالت : يا ابن الفاعلة إلى أين ؟ قلت : خلفك يا سيدتي ، فقالت : ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحدا فيقتلك ، فتأخرت ومشيت ، وتمشت أمامي ثم إلتفت فرأنتي فشتمتني شتما قبيحا ، ثم جاءت إلى دار كبيرة فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب ، وقد ذهب عقلي ونزلت على الشمس وكان يوما حارا ، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين .

فلما وصلا إلى الباب أذن لهما فدخلا ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعاني وحيء بالطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا ، فقال لنا صاحب المنزل : هل لكم في فلانة ؟ فقالوا : إن تفضلت . قال : فاستدعي بتلك الجارية ، فخرجت فإذا هي صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعت في حجرها فغنت وشربوا وطربوا وهي تلحظني وتشك في فقالوا : لحن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق ، فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه ، قال : فاستدعيت بمدورة ، وقضيب ، وغنيت الصوت الذى قالته الجارية فقاموا إلى وقبلوا رأسى ، قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا ؛ قال : ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا : بالله من أنت ياسيدى ؟ فقلت : مخارق ، فقالوا : وما سبب محبتك ؟ قلت : طفيلي - أصلح الله شأنكم - وأخبرتهم بخبرى .

فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى هذا الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت من بيعها ، قالوا : نعم ، قال : هى له فقال صديقه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف ، قال مخارق : فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها ، وكلما مررت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول : يا مولاتى أعهدى كلامك فتستحي منى ، فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين ، فقيل لى : إنه انتبه فطلبك فى منازل ابناء القواد فلم يجدك وتغيظ غيظا شديدا ، فدخلت عليه ويدي فى يدها ؛ فلما رآنى سبنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين لاتعجل ، وحدثته الحديث ، فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم ثلاثين ألف درهم ، والله أعلم انتهى .

حكاية غريبة عن محلها

[١٤٠] قال الأصمعى : دعانى بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام ، فخرجت معه إلى البرية فأتوا بباطية^(١) بأذنين ، وعليها السمن غارق ، فجلسنا للأكل ، وإذا بأعرابى ينسف الأرض نسفا حتى جلس من غير نداء ، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه^(٢) ، فقلت : لأضحكن الحاضرين عليه فقلت :

كأنك أثلة فى أرض هش أتاها وابل من بعد رش^(٣)

(١) باطية : إناء من الزجاج ، والجمع بواطير .

(٢) الكراع : ما دون الركبة من مقدم الساق ، والجمع أكرع .

(٣) أثلة : التراب القليل . أرض هش : اللينة الضعيفة التى لا يثبت عليها شئ . وابل :

المطر الشديد . رش : تفرقت .

فألتفت إلىَّ بعين مبحلة ، وقال لى : الكلام أنثى ، والجواب ذكر
وأنت :

كأنك بعرة فى أست كبش مدلاة وذاك الكبش يمشى
فقلت له : هل تعرف شيئاً من الشعر أو ترويه ؟ فقال : كيف لا أقول
الشعر وأنا أمه وأبوه ، فقلت له : إن عندى قافية تحتاج إلى غطاء ، فقال :
هات ماعندك فقصت فى بحور الأشعار ، فما وجدت قافية أصعب من
الوار المحزومة فقلت :

قوم بنجد قد عهدناهم سقامهم الله من النو^(١)
قلت أتدرى النو ماذا ؟ فقال :

نو تاللاً فى دجا ليلة حالكة مظلمة لـ
فقلت له : لو ماذا ؟ فقال :

لو سار فيها فارس لأنثى على بساط الأرض منطو
فقلت له : منطو ماذا ؟ فقال :

منطوى الكشح هضم الحشا كالباز ينقض من الجو^(٢)
فقلت له : الجو ماذا ؟ فقال :

جو السماء والريح تعلو به اشم ريح الأرض فاعلو

(١) النو : النجم .

(٢) الكشح من الجسم : ما بين السرة و وسط الظهر .

فقلت : فعلو ماذا ؟ فقال :

فاعلموا لما عيل من صبره فصار نحو القوم ينعمو

فقلت : ينعم ماذا ؟ فقال :

ينعم رجالا للفنا شرعت كفيت ما لاقوا وما يلقوا

قال : فعلمت أنه لاشيء بعد الفناء ، ولكن أردت أن أثقل عليه فقلت
له ويلقوا ماذا ؟ فقال :

إن كنت ما تفهم ما قلته فأنت عندى رجل بو

فقلت له : البر ماذا ؟ فقال :

البر سلخ قد حشى جلده يا ألف قرنان تقوم عنى أو

فقلت له : أو ماذا ؟ فقال :

أو أضرب الرأس بصوانة تقول فى ضربتها قو

فخفت أن أقول له قوا ماذا فيضربنى ويكمل البيت ، فقلت له : أنت
ضيفى الليلة ، فقال : لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فقلت : لزوجتى اصنعى لنا
دجاجة ، ففعلت فأنيته بها وجثته أنا وزوجتى وابناى وابنتاى ، وقلت : له
فرق يا بدوى ، فقال : الرأس للرأس وأعطانى الرأس ، وقال : الولدان
جناحان لهما الجناحان ، والبنتان لهما الرجلان ، والمرأة لها العجز ، وأنا
زائر لى الزور ، وأكل الدجاجة ونحن ننظر إليه ، وبتنا نتحدث .

فلما أصبحنا قلت لزوجتي : اصنعى لنا خمس دجاجات ، ففعلت
وأتيته بالدجاج وقلت له : اقسم يا بدوى فقال : تريد شفعاً أو وتراً ؟
فقلت : إن الله وتر يحب الوتر ، فقال : كأنك تريد بالفرد ، فقلت : نعم ،
فقال : أنت وزوجتك ودجاجة ، وابناك ودجاجة ، وابنتاك ودجاجة ، وأنا
ودجاجة ، فقلت : لا أرضى بهذه القسمة ، فقال : كأنك تريد شفعاً ؟
فقلت : نعم ، فقال : أنت وولداك ودجاجة ، وزوجتك وبنتها ودجاجة ،
وأنا وثلاث دجاجات ، والله لأحول عن هذه القسمة ، قال الأصمعي :
فغلبني مرتين : مرة في الشعر ، ومرة في الدجاج ، ثم انصرف انتهى .

١١- فصل

خلافة أمير المؤمنين الواصل بالله تعالى^(١)

[١٤١] قال ابنه محمد -الذي يقال له المهتدى بالله- : كان أبى الواصل بالله إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا فى ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذا أتى بشيخ مقيد ، فقال : إئذنوا لأبى عبد الله يعنى ابن أبى دؤاد ، وأصحابه ، وأدخل الشيخ مقيدا ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا سلم الله عليك ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين بشما أدبك المؤدب ، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا حِيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] وأنت والله ما حييتنى بها ولا بأحسن منها ، فقال: ابن أبى دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم ، فقال الواصل : كلمه فقال الشيخ : ما تقول فى القرآن ؟ فقال الشيخ : لم تسألنى ولى السؤال ، أسأله ؟ فقال الأمير : سله فقال الشيخ لا بن أبى دؤاد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال ابن أبى دؤاد : مخلوق ، فقال الشيخ : هذا شىء علمه النبى ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر وعثمان وعلى -عليهم السلام- أجمعين- والخلفاء الراشدون أم شىء

(١) هارون بن محمد بن هارون الرشيد العباسى ، الواصل بالله : من خلفاء الدولة العباسية ولد ببغداد وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [٢٢٧هـ] ، فامتحن الناس فى خلق القرآن وسجن جماعة ، وقتل فى ذلك أحمد بن نصر الغزالى بيده [٢٣١هـ] وكان فى كثير من أموره يذهب مذهب المأمون ، وشغل نفسه بمحنة الناس فى الدين فأفسد قلوبهم ومات فى سامراء . قيل بعللة الاستسقاء . قال ابن دحية : كان مسرفا فى حب النساء ، وخلافته خمس سنين وكان كريما عارفا بالأنساب ، طروها بميل إلى السماع . ت[٢٣٢هـ = ٨٤٧م] . انظر : تاريخ ابن الأثير (١٠/٧) ، النبراس لابن دحية ص ٧٣ .

لا يعلمونه فقال : شيء لا يعلمونه . فقال : سبحان الله ! شيء لا يعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الصحابة ، ولا الخلفاء الراشدون ؛ وعلمته أنت ! قال : فحجل ، وقال : أفلنى . فقال : قد فعلت ، والمسألة بحالها ، قال : نعم .

قال : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : مخلوق ، قال : هذا شيء علمه النبي ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ﷺ ، والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه ؟! قال علموه ، ولم يدعوا الناس إليه . قال : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال : ثم قام أبى ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجله على الأخرى ، وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الخلفاء الراشدون ، وعلمته أنت سبحانه الله ! انتهى^(١) .

[١٤٢] وذكر الحافظ أبو نعيم فى حليته^(٢) ، قال الحافظ أبو بكر الآجرى^(٣) : بلغنى عن المهتدى - رحمه الله - أنه قال : ما قطع أبى يعنى :

(١) انظر : تاريخ بغداد فى ترجمة الوائى (١٥٣/٧) .

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد ، أبو نعيم : الحافظ ، صاحب حلية الأولياء ، ت[٤٣٠هـ] . انظر : شذرات الذهب (٢٥٤/٣) .

(٣) محمد بن الحسين بن عبد الله ، أبو بكر الآجرى : فقيه شافعى محدث . له تصانيف كثيرة ، منها أخبار عمر بن عبد العزيز ، ت[٣٦٠هـ - ٩٧٠م] . انظر : وفيات الأعيان (٤٨٨/١) .

الرواق إلا شيخ جرى به من المصيبة^(١) ، فمكث في السجن مدة ، ثم إن أبي ذكره يوما ، فقال : على بالشيخ ؛ فأتى به مقيدا ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ؛ فلم يرد عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ما سلكت بي أدب الله ولا أدب رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رَدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] وأمر النبي ﷺ برد السلام ، فقال: إن وعليك السلام ، ثم قال لابن أبي دؤاد سله ، فقال : يا أمير المؤمنين أنا محبوس مقيد أصلى في الحبس بتيميم منعت الماء فمر بقيودي تُحَلِّ ومُر بماء أتوضأ وأصلى ثم سلني فَأَمَرَ به فَحُلَّتْ قيوده ، وأمر له بماء فتوضأ وصلى ، ثم قال لابن أبي دؤاد : سله .

فقال الشيخ : المسألة لي فمره أن يحييني ؛ فقال : سل ، فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد ، فقال له : أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه . أشيء دعا إليه النبي ﷺ ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه عمر بن الخطاب ، بعدهما ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه عثمان بن عفان ، بعدهم ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه علي بن أبي طالب ، بعدهم ؟ قال : لا .

قال الشيخ : أفشيء لم يدع إليه الرسول ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، تدعو أنت الناس إليه ! ليس يخلو أن تقول : علموه أو جهلوه ، فإن قلت : علموه وسكتوا عنه توسعا ، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم ؛ وإن قلت : جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن

(١) المصيبة : مدينة على نهر جحان .

لكم، شيء يجهله النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وتعلمه أنت ، وأصحابك.

قال المهتدي: فرأيت أبي وثب قائما ، ودخل الحجرة فجعل ثوبه في فيه وجعل يضحك ، ثم جعل يقول : صدق الشيخ إلى آخر ما تقدم .

[١٤٣] وقال المهتدي : مازلت أقول القرآن مخلوق صدرا من خلافة الوائق، حتى أقدم علينا أحمد بن أبي دؤاد شيخا من أهل الشام ، فأدخل الشيخ على الوائق مقيدا و هو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة ، فرأيت الوائق قد استحيا منه ، ورق له ، فما زال يدينه ويقربه ، حتى قرب منه فسلم عليه الشيخ ، فأحسن السلام ودعا فأبلغ وأوجز ، فقال له الوائق : اجلس ، ثم قال : يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ابن أبي دؤاد ، يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، فغضب الوائق وأعاد مكان الرقة له ، غضبا وقال : أبو عبد الله بن أبي دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت ! قال الشيخ : هون عليك يا أمير المؤمنين مابك ، وأذن لي في مناظرته ، فقال الوائق : مادعوتك إلا للمناظرة .

فقال الشيخ : يا أحمد يا ابن أبي . دؤاد ، إلام دعوت الناس ودعوتني إليه ؟ فقال أن تقول القرآن مخلوق، لأن كل شيء دون الله مخلوق، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إني رأيت أن تحفظ على وعليه ما نقول ، فقال : افعل ، فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه أواجبة داخلية في

عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال ماقلت ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ : أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل إلى عباده هل ستر شيئاً مما أمر الله به في دينه ؟ فقال : لا ، قال الشيخ : أفدعا رسول الله ﷺ إلى مقاتلتك هذه ؟ فسكت ابن أبي دؤاد ، فقال الشيخ : تكلم ، فسكت فالتفت الشيخ إلى الرواق ، فقال : يا أمير المؤمنين قل : واحدة ، فقال الرواق : واحدة .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن الله عز وجل حين أنزل آخر القرآن على رسول الله ﷺ ، فقال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣] أكان الله صادقاً في إكماله أم أنت الصادق في نقصانه ، فلا يكون كاملاً حتى يقال فيه بمقاتلتك هذه فيكون كاملاً ، فسكت ابن أبي دؤاد . فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجبه . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين قل : اثنتان ، فقال : اثنتان .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن مقاتلتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن أبي دؤاد : علمها ، فقال : أفدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، قل : ثلاثة ، فقال الرواق : ثلاثة .

فقال الشيخ : يا أحمد أفاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت ولم يطالب أتمه بها ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ : واتسع لأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ﷺ فقال ابن أبي دؤاد : نعم ، فأعرض الشيخ عنه ، وأقبل على الرواق ، فقال : يا أمير المؤمنين قد قدمت أن أحمد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، يا أمير

المؤمنين ألم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلى ﷺ فلا وسع الله على من لم يتسع له منا ما اتسع لهم من ذلك؟ فقال الواصل نعم إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلى ﷺ فلا وسع الله علينا. ثم قال: اقطعوا قيد الشيخ؛ فلما قطع ضرب الشيخ بيده، فأخذ القيد فوضعه في كفه، فقال الواصل: لم فعلت هذا، فقال الشيخ: لأنى نريت أن أقدم إلى من أوصى إذا مت أن يجعله بينى وبين كفى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله عز وجل يوم القيامة، وأقول: يارب سل عبدك هذا لم قيدنى، وروع أهلى، وولدى وإخوانى بلاحق واجب على؛ وبكى الشيخ، وبكى الواصل، وبكىنا ثم سأله الواصل أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين لقد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم، إكراما لرسول الله ﷺ إذ أنت رجل من أهله. فقال الواصل: لى إليك حاجة؟ فقال الشيخ إن كانت ممكنة فعلت. فقال الواصل: تقيم عندنا ينتفع بك فتياننا، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين إن رذك إياى إلى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عندك، فقال: ولم ذلك؟ فقال: لأسير إلى أهلى وولدى فأكف دعاءهم عنك، فقد خلفتهم على ذلك، فقال الواصل: أفتقبل منا صلة تستعين بها على دهرك؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين أنا غنى وذو ثروة، قال: أفتسألنا حاجة؟ قال: أوتقضيها؟ قال: نعم، قال تخلى سبيلى إلى السفر الساعة، وتأذن لى،

قال أذنت لك؛ فسلم عليه الشيخ وخرج ، قال صالح : فقال المهتدى بالله: فرجعت عن هذه المقالة من ذلك اليوم ، والله أعلم^(١) .

فائدة

[١٤٤] روى الدارقطني وشيخه ، والحاكم ، وابن عدى ، عن عمر : «أن النبي ﷺ كان فى محفل من أصحابه اذ جاء أعرابى من بنى سليم ، قد اصطاد ضبا^(٢) وجعله فى كفه ليذهب به إلى رحله ، فرأى جماعة محتفين بالنبي ﷺ فقال : على من هؤلاء ؟ قالوا : على هذا الذى يزعم أنه نبي ، فاتاه فقال ، يا أحمد ما اشتملت على ذى لهجة أكذب منك ، ولولا أن تسمينى العرب عجولا لقتلتك ، فسررت بقتلك الناس أجمعين ، فقال عمر : يا رسول الله دعنى أقتله ، فقال رسول الله ﷺ : «أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا» ، ثم أقبل الأعرابى على رسول الله فقال : واللات والعزى لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج الضب من كفه ، وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «يا ضب فتكلم الضب ، بلسان فصيح عربى صريح يفهمه القوم جميعا ، فقال : لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين ، فقال رسول الله ﷺ : من تعبد ؟ قال الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : أنت رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين قد أفلح من

(١) انظر : تاريخ بغداد (١٩٦/٧) ، حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١٢٩/١) .

(٢) الضب : من الحيوانات الزحافات التى تعيش فى الجبال .

صدقك وخاب من كذبك فقال الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت
رسول الله حقا ، والله لقد أتيتك وماعلى وجه الأرض أحد أبغض منى
إليك ، والله لأنت الساعة أحب إلى من نفسى ومن ولدى فقد آمن بك
شعرى ، وبشرى ، وداخلى ، وخارجى ، وسرى ، وعلايتى .

فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى هداك إلى هذا الدين الذى
يعلو ولا يعلى عليه ، ولا يقبله الله تعالى إلا بصلاة ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة ،
قال : فعلمنى فعلمه النبى ﷺ الحمد لله ، وقل هو الله أحد ، فقال :
يارسول الله ماسمعت فى البسيط ولا فى الرجز أحسن من هذا ، فقال
رسول الله ﷺ : إن هذا كلام رب العالمين ، وليس بشعر إذا قرأت قل
هو الله أحد ثلاثا أو قال ثلاث مرات فكأنما قرأت القرآن كله فقال
الأعرابي : إن إلها يقبل اليسير ويعطى الكثير» . انتهى باختصار من حياة
الحيوان الكبرى^(١) .

[١٤٥] و [قيل] : وقف رجل على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين
صل رحمك ، وارحم أقاربك ، وارحم رجلا من أهلك . فقال الواثق : من
أنت فإنى لا أعرفك قبل اليوم ؟ قال : ابن جدك آدم ، فقال : يا غلام اعطه
درهما ، فقال : يا أمير المؤمنين وما أصنع بالدرهم ، قال أرأيت لو قسمت
المال بين إخوتك أولاد جدى أكان ينوبك منه حبة فقال لله درك ما أذكى
فهمك فأمر له بعتاء وانصرف مكرما .

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الضاد (١٠٨/٢) .

١٢- فصل

خلافة المتوكل على الله تعالى^(١)

[١٤٦] حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبى العيناء : ما أشد ما مر عليك فى ذهاب عينيك ! فقال : فقدَ رؤيتك يا أمير المؤمنين ، فاستحسن منه هذا الحواب ، وأمر له بجائزة نفيسة .

[١٤٧] ومما حكاه أبو القاسم على بن محمد الذهبى عن أبى عبد الله النحوى قال: لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى فى الطواف جارية فى نهاية الحسن فسأل عنها فقبل : إنها لرجل من الأدباء ، قد رواها الأشعار ، والأخبار ، والنحو ، والعروض، وقد أحسنت ضرب العود ، وطريق الغناء ؛ فاشتراها بمائة ألف درهم . فلما قدم بها مدينة دار السلام شغف بها شغفا شديدا وأخفى أمرها وما يجده منها تخوفا من أمير المؤمنين المتوكل ، وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياما لا يظهر للناس فيظنون أنه زمن^(٢) وأمره معها مستور ففطن به سويد بن أبى العالية^(٣)

(١) جعفر بن محمد بن هارون الرشيد ، المتوكل على الله : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد ببغداد ، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق [٢٣٢هـ] وكان جوادا ، محبا للعمران ، من آثاره المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالا كثيرة . ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرىء على المتقير بترك الحدل فى القرآن ، وأن الذمة بريئة ممن يقول بحلقه أو غير خلق . اغتيل فى سامراء ليلا [٢٤٧هـ - ٨٦١م] . انظر : تاريخ بغداد (١٦٥/٧) .

(٢) زَمِنَ : أصابته الزمانة ، أى شدة العشق .

(٣) محمد بن يزداد بن سويد المروزي : من رجال الدولة العباسية ، ومن كتاب

الإنشاءت [٢٣٠هـ] .

صاحب البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرة ، فلم يجد سواً يكيد به إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتاباً نسخته : «بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد الله اشترى جارية بمائة ألف درهم فهو يصطبغ معها ويغتنق زمانه كله معها ، وقد اشتغل بها عن النظر في أمور المسلمين ، وعن التوقيع في قصص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة ما فيها من الغرغاء ، فيتعب أمير المؤمنين في اصطلاحها وقد أنهى المملوك ذلك إلى أمير المؤمنين أيده الله وهو أعلى رأياً والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلى نرجس الخادم وقال له : امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير إذن ، وانظر إلى ما يصنع ، ثم خذ منه جاريته فلانة وأت بها من غير تأخير ، فمضى نرجس من ساعته . وكان محمد قد اصطبح معها في ذلك اليوم فدخل عليهما نرجس من غير استئذان فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه ، لعلمه أن نرجساً ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء . فقال له : يا نرجس ما الذي أقدمك قال أمير المؤمنين أمرني أن آخذ جاريتك هذه ، قال : يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره ، وغاب خيره ، وقد ترى ما نحن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين ، ثم أمر للخادم بكرسى فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلي لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمداً نظر إلى الجارية وبكى بكاءً شديداً ، وقال لها غني لأتزوج منك ، فأخذت العود وغنت بصوت حزين تقول :

لله من لمعزيين رماهما بشماتة العذال والحساد
أما الرحيل فحين جد تحمل مهج النفوس به من الأجساد
من لم يبت والبين يصدع شمله لم يدر كيف تفتت الأكباد^(١)

ثم إنهما أعلنا بالهكاء والنحيب والشهيق ، فرحمهما الخادم ورق
لهما حين عاين ما حل بهما ، فقال : أيها الأمير إن رأيت أن أمضى
وأدعكما على ما أنتما عليه ، وأتعلل عنكما لأمر المؤمنين فعلت ، فقال :
يا نرجس من خلفه مثل أبي سويد كيف يمكنه التعلل ؟ ولكن ارفق بنا ،
فقلت الجارية : والله يا سيدى لا ملكنى غيرك أبدا ، ولئن دفعتنى إليه
لأقتلن نفسى ، فقال لها محمد : لو كان غير أمير المؤمنين لكان فى ذلك
أوسع حيلة ، ولقد وددت أن يأخذ منى أمير المؤمنين جميع ما أملك
ويعزلى عن عملى ويقيقك علىّ ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، ثم التفت
إلى نرجس وقال : لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا
بالمحبة والمودة والألفة ، وليس يخفى عن علمك أن صنائع المعروف تقى
مصارع السوء ، ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى ، فخذها وامض بها
إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك ، ثم التفت إليها وقبلها
وبكى وبكت وبكى نرجس ، ثم أخذها وخرج وهى تبكى ، وتخمش
خدها ووجهها^(٢) ثم حملها نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى
دخل على المتوكل .

(١) البين : البعد .

(٢) تُخمشُ خدها : أى تلمسه

فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس قال ورائي يا أمير المؤمنين كل بلية ثم إنه جلس بين يديه وقصر عليه حالهما ولم يخف شيئا ، فقال المتوكل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذي خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها ، فرق عليه قلب المتوكل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك هذا وأدركه قبل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة ألف درهم ولها مع ذلك مثله ، وجعلت أمر أبي سويد إليه يصنع به ما يشاء ، ثم كتب له توقيعا بذلك ودفعه إلى نرجس فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عريانا يتقلب على حصر سامان^(١) من شدة الكرب والوجد ، وقد أهدقت به الجوارى يروحه بالمراوح .

فقال : أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد رد جارتك عليك من غير أن يوقع نظره عليها ، وقد حكمك في أبي سويد ، ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة ، ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبي سويد . فلما حضر دفع إليه التوقيع . فلما قرأه قال : أعوذ برضاك من سخطك وبغفوك من عقربتك ، وأن تهدم منى ركننا أنت شيدته ، وأن تضيع صنعة اصطنعتها إلى مثلى ، فمثلى من هفا ومثلك من عفا ، ثم قام وقبل البساط .

فقال له محمد : لا أبدل نعمة الله كفرا ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم، فقالت الجارية : وأنا أيضا أهب له خمسين ألف درهم مما وهبه لي أمير المؤمنين شكر الله تعالى على ذلك ، ثم أقره على ما كان عليه وأمر أن

(١) حصر سامان : نوع من أنواع الحصر ، وسامان : قرية في خراسان إليها ينسب السامانيون .

يحمل المال بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والحارية إلى ما كانا عليه
فى أطيب عيش وأحسن حال متظاهرا بذلك غير مستتر ولا خائف ، انتهى .

[١٤٨] و [قيل] :أتى المتوكل بمحمد بن النصيب ووزيره ابن
الديروانى ، وكان محمد هذا قد خرج على المتوكل واستوزر ابن
الديروانى ، فلما مثل بين يدى المتوكل قال له : ما حملك على ما فعلت يا
محمد ؟ قال الشقوة وحسن الظن بعفوك يا أمير المؤمنين ، وأنشد يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قتلى إمام الهدى والعفو بالحر أجمل
تضائل ذنبى عند عفوك قلة فجد لى بعفو منك فالعفو أفضل

فقال الملك : خلوا سبيله ثم قدم ابن الديروانى فقال : اضربوا عنقه
فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين تعفو عن الرأس وتقطع الذنب ،
فضحك المتوكل وعفا عنه انتهى .

[١٤٩] وكتب محمد بن عبد الملك الزيات^(١) وهو فى السجن :
- وقد اشتد به الحال- فكتب رقعة إلى المتوكل يستعطفه على نفسه من
شدة ما قاسى من الأهوال والعذاب فى السجن يقول فيها هذين البيتين :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم كفراحة النائم الفرحان بالنوم
لا تعجلن رويدا إنها دول دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال : فلما قرأها المتوكل رق له وبكى ، وأمر بإطلاقه . فذهبوا إلى
السجن فوجدوه ميتا رحمة الله عليه .

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر : وزير المعتصم ، والرائى . عزبه
المتوكل وسجنه ، ت[٢٣٣هـ] .

١٣ - فصل

خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد^(١)

[١٥٠] كان يسمى السفاح الثاني ، لأنه جدد ملك بني العباس بعد أن أخلفته الأتراك وأذلته . وفي ذلك يقول علي بن العباس الرومي^(٢) :

كما بأبي العباس أنشئ ملككم كذا بأبي العباس أيضا يحدد

[١٥١] ولقد اتفق في أيامه على ما حكى : أمر فطيع كشفه الله له بهيبته في نفوس الناس فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتسب ما في نفسه مخافة صولته ، لأنه كان لشدة حذقه يتخيل لهم أنه يعلم ما في نفس الإنسان من الضمير ، فاتفق أن أحد وزرائه وأكبر قواده بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه ، فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزه وكان يجلس كثيرا في ذلك البناء ، فرأى يوما من الأيام في دار من دور جيرانه جارية بارعة الجمال فولع بها فسأل عنها فأخبر أنها بنت أحد التجار فأرسل إلى والدها خاطبا . فقال له أبوها : -وكان من أهل اليسار- لست أزوجه إلا من تاجر مثلي ، فإنه إن تزوجه من هو مثلي لم يظلمها وإن ظلمها قدرت على النصفة منه وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها

(١) أحمد المعتضد بالله بن الموفق ، أبو العباس : بويح له بالخلافة يوم وفاة عمه المعتمد ، فاستقل بالأمر . وكان شجاعا ، عادلا ، ذا هيبه ، وذكاء مفرط ، ت[٢٨٩هـ-٩٠٢م] .

(٢) علي بن العباس الرومي : شاعر ببغداد ، من أعظم شعراء الدولة العباسية ، ت[٢٨٣هـ] .

على النصفة منك ، ولا على الحيلة لنصرتها . فلم يزل يرومه فى ذلك بكل أمر ، وتوسط إليه بالأكابر والأمثال من الناس وهو مع ذلك يمتنع .

فلما يئس منه أن يجيبه شكاً إلى أحد خواصه ، فقال له : ألف مثقال يقوم لك هذا ، فقال : كيف ذلك ؟ والله لو علمت أنى أنفق عليها مائتى ألف مثقال أو أكثر وتأتينى لفعلت . قال له : عليك أن تحضر لى ألف دينار ، فأمر بإحضارها فمشى بها ذلك الرجل إلى عشرة رجال كانوا عدولا عند القاضى فى شهادتهم وذكر لهم الأمر ، وقال : هذا أمر ليس عليكم من الله فيه تبعة فإنه يصدقها كذا وكذا ألفاً وأعلى لهم المهر ، وإنكم تحيون نفساً أشرفت على الهلاك ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ما ترغبون وأبوها إنما هو عاضل لها فى الزواج ، وإلا فما يمنعه من ذلك وقد خطبها مثل فلان فى جلالة قدره ومكانة أمره وقد أعطاه صداقاً لا يعطى إلا لبنت ملك ، ثم هو مع هذا يابى هل هذا إلا عضل بين !

ولكن لكم ألف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون أنه قد زوجها منه ، فإنه إذا علم أبوها بأنكم قد شهدت عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والخيرة ، فأخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا أن أباهما زوجها على صداق مبلغه كذا ورفعوا فى الصداق إلى غاية ما ترفع إليه صداقات الملوك . فلما علم أبوها بذلك زاد نفاراً وإباء ، فمشى الوزير وذلك القائد إلى القاضى وقال : إنى تزوجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق وهؤلاء شهدوا عليه ، ثم قد ناكرنى وأنكر الشهود ، وقد أردت أن أدفع له حق بنته وأخذها ، فأمر القاضى بإحضار الشهود فشهدوا عنده وأحضر مال النقدين بين يدى القاضى والرجل على إنكاره متماد ، فأمر

القاضى بإمضاء الحكم عليه وأن تؤخذ ابنته منه أحب أو كره ، وأمر بحمل المال إليه .

فلما وصلت الجارية عند الوزير لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتصم وكان المعتصم غليظ الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصة ، فقليل للرجل : إنه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان له بقصره فإن استطعت أن تكون مع جملة رجال الخدمة تصل إليه وتكلمه بما أردت ؛ ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل فى جملة رجال الخدمة للبناء . فلما كان ذلك الوقت الذى كانت عادة أمير المؤمنين المعتضد يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى على الأرض وجعل يحثوا التراب على رأسه ويستغيث ، فسأله عن شأنه فقص عليه القصة فأرسل المعتضد فى ذلك المقام خلف ذلك القائد وأغلظ عليه فى القول فحملته هيئته له وقلة إقدامه على الكذب عليه أن وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع أن يعذره فى ذلك إذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وأمر بإحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم - وذلك كله رهبة له وإجلالا أن يخاطبوه بكذب مع تخيلهم أنه يصفح لهم عن هذه الزلة ، إذ قد أرادوا إحياء نفس ذلك الوزير ، وأيضا قد دفع له بين يدي القاضى نقدا لا يكون إلا فى صداقات الملوك ، وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ؛ فكأنما قد أخذها بحقها وبأكثر من حقها .

فلما تحققت عنده جلية الخبر ؛ أمر أن يصلب كل من شاهد منهم على باب داره وأن يوضع ذلك الوزير فى جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب ، حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ، ثم أمر به لما صنع به ذلك

أن يفرغ بين يدي نمور كانت عنده . فلما لعقت تلك النمر ذلك الدم ، أمر الرجل أبا البنت أن يأخذ ابنته ، ويأخذ كل ما ذكروا لها على ذلك الوزير في صداقتها من عقار ودور ومال ، ثم مات المعتضد وولى ابنه المقتدر ، وكان صبيا صغير السن فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك ، والله تعالى أعلم .

[١٥٢] ويقرب من شهامة هذا الملك، ما ذكره في حياة الحيوان في ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن^(١) صاحب بلاد المغرب من أنه وقع بينه وبين الأذفونش نصراني طليطلة مكاتبات قال : بعث الأذفونش إلى الأمير يعقوب يتوعده ويتهدده ويطلب منه بعض حصون وكتب له رسالة من إنشاء وزيره ابن النجار وهي : "باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الفصيح ؛ أما بعد فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والنكول والتكاسل وإهمالهم أمر الرعية وإخلاصهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسوسهم بحكم القهر وإخلاء الديار وسبي الذراري^(٢) ، وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهوان وشديد النكال ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم ، إذا أمكتك القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك كل ذى رأى وخبرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى قد فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن

(١) يعقوب بن عبد المؤمن : ثالث خلفاء الدولة المؤمنية الموحدية بالمغرب والأندلس .

له فتحات عظيمة في الأندلس ت [٥٩٥هـ - ١١٩٩م] .

(٢) الذراري : الأطفال و النساء .

فيكم ضعفا رحمة منه ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، ولقد حكى عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا ندري أكان لجبن إبطاؤك أم لتكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى : إنك لا تجد إلى الحوار سبيلا ولعله لا يسوغ لك التقحم فيه ميلا وها أنا أقول لك ما فيه الراحة واعتذر عنك ولك أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من البرهان وإلا جئت بجملتى إليك : وأقاتلك فى أعز الأماكن عليك ، فإن كانت النصر لك كانت غنيمة كثيرة جاءت إليك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، والله الموفق لا رب غيره ولا خير إلا خيره" .

قال : فمزق يعقوب الكتاب وكتب على قطعة منه : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع واستشهد بيت المتنبي :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسله إلا الخميس العرمم^(١)

ثم أمر بكتائب الاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب السراقات من يومه بظاهر البلد وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبته^(٢) ، فعبر فيه إلى الأندلس ودخل إلى بلاد الإفرنج ، فكسره كسرة شنيعة وعاد بغنائمهم ، والله أعلم.

(١) المشرفية : كناية عن السيوف التى تصنع فى المشرفية ، والمشرفية مكان فى اليمن .

الخميس العرمم : الجيش الكثير ، الشديد البأس .

(٢) زقاق سبته : اسم مضيق جبل طارق قديماً فى المغرب ، يطل على البحر المتوسط .